

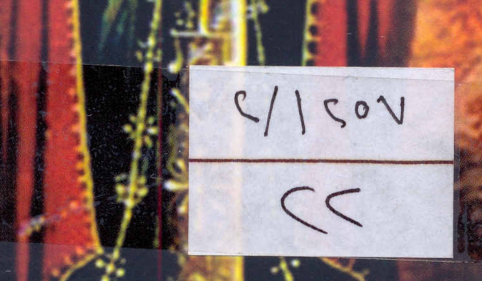
مكتبة دير السريان العامر

سيرة وتعاليم القديس
الأنبا باخوميوس
أب الشركة

إعداد

الأنبا متاؤس

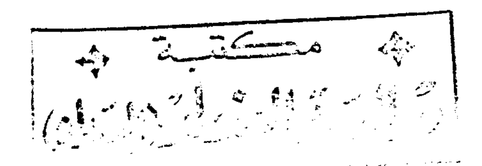
أسقف و رئيس دير السريان العامر



مكتبة دير السريان العامر
تقدم

القديس الأنبا باخوميوس
أب الشركة

طبعة ثانية



مراجعة وتقديم

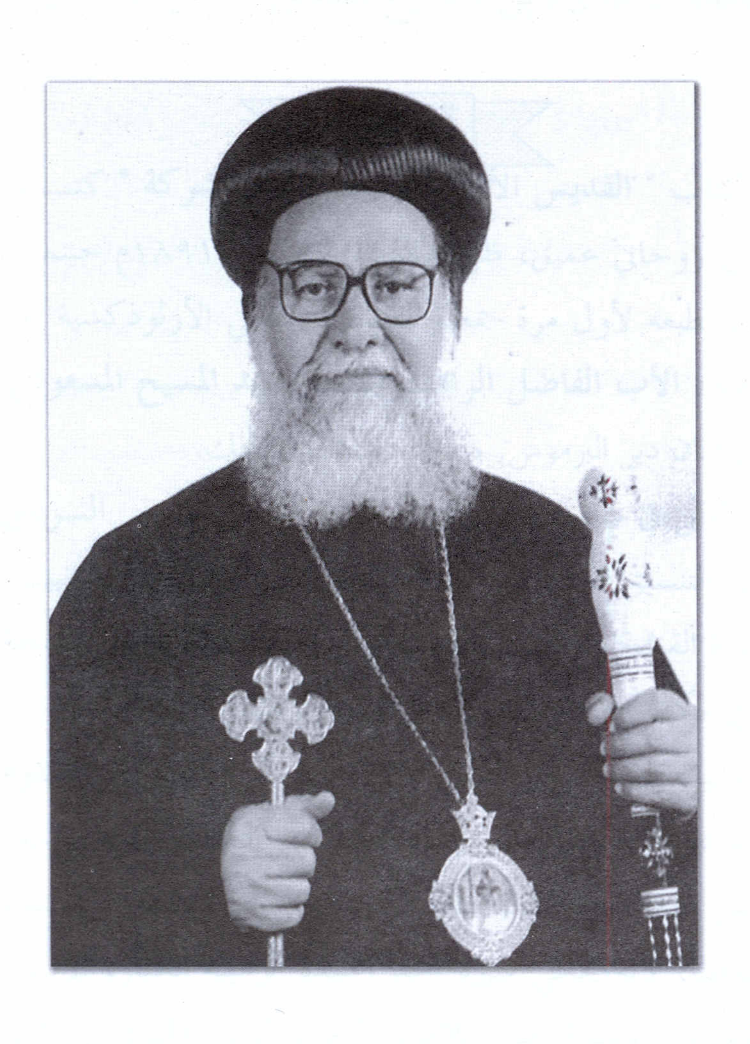
نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

الكتـــــاب : سيرة وتعاليم القديس الآنبا باخوميوس أب الشركة
إعـــــداد : الآنبا متاؤس أسقف ورئيس دير السريان العامر
الناشـــــر : مكتبة دير السريان
المطبعـــة : دار الكرمة للطباعة ٠١٢١٥٠٠١٧٠
الطبعـــة : (الأولى) أكتوبر ٢٠٠٩
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٩٤٥٠



قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث
بابا الأسكندرية و بطريرك الكرازة المرقسية



نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

باسم الآب والابن والروح القدس الله الواحد آمين

تقديم

كتاب "**القديس الأنبا باخوميوس أب الشركة**" كتاب رهباني روحاني عميق، ظل مخطوطاً حتى سنة ١٨٩١م حينما قامت بطبعه لأول مرة جمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسية بعد أن نقحه **الأب الفاضل الراهب القمص عبد المسيح المسعودي** أب رهبان دير البرموس. ولم يتم طبعه بعد ذلك.

ولكن في سنة ١٩٨٠ قام **الراهب القمص تادرس السرياني** ببعض التنسيق لهذه الطبعة ووضع لها بعض العناوين الجانبية لسهولة القراءة، ثم كتب الكتاب على الآلة الكاتبة وأودع نسخة منه في مكتبة دير السريان العامر لمنفعة الرهبان.

واليوم وبعد مرور حوالي ١٢٠ سنة على طبعته الأولى تقوم مكتبة دير السريان العامر بإعادة طبع هذا الكتاب القيم والسفر النفيس طبعة ثانية لمنفعة أبناء الكنيسة عموماً ومنفعة الرهبان خصوصاً، لأنه يحكي سيرة أحد أعمدة الرهبنة الكبار، الأنبا باخوميوس، وسيرة بعض تلاميذه الأفذاذ الذين خلفوه في رياسة

وتدبير أديرة الشركة مثل القديس تـادرس تلميـذه الخـاص والقديس بطرونيوس والقديس أورسيوس وغيرهم.

كما يحكي الكتاب بدايات تأسيس نظام رهبنـة الـشركة الباخومية وبناء الأديرة الأولى لها مثل دير طبانـسين (دنـدره حالياً بمحافظة قنا) ودير بافو (فاو حالياً محافظة قنـا أيـضاً) وغيرهما من الأديرة الباخومية العريقة.

نرجو أن يحوز هذا الكتاب في طبعته الثانية الجديدة رضاك أيها القارئ العزيز وأن يكون سبب بركة لكـل مـن يقـرأه ويستفيد منه.

بشفاعة أمنا الطاهرة القديسة مريم، أم العذارى والرهبـان جميعاً، وبصلوات أبينا الطوباوي المكرم البابـا الأنبـا شـنوده الثالث، الرئيس الأعلى للرهبنة القبطية وأب رهبان هذا الجيل.

ونعمة الرب تشملنا جميعاً آمين ،،،

الأنبا متاؤس

اسقف دير السريان العامر

٢٢ مايو ٢٠٠٩م
١٤ بشنس ١٧٢٥ش

عيد نياحة القديس العظيم
الأنبا باخوميوس أب الشركة

باسم الآب والابن والروح القدس الله الواحد آمين

الفصل الأول

سيرة القديس باخوميوس

القديس باخوميوس، أول من أظهر بين الرهبان العيشة الرسولية المشتركة، وجعل الرهبان الكثيرين يمشون على قانون واحد تحت تدبير رئيس واحد.

فميلاد هذا البار كان سنة ٢٧٢ ب م. من أبوين أصنامين يعبدان الشياطين، فربياه على المذهب الأصنامي وفقهاه بالآداب الفلسفية والعلوم المنطقية ...

هذا باخوميوس حظى من حنان النعمة بأوفرها ومن الرأفة بأكثرها، وعساه قد كان في نفسه رحوماً فلذلك رُحمَ وصار مسيحياً، ولما نجح في الإيمان صار راهباً كاملاً وعابداً فاضلاً ومن الواجب أن نشرح سيرته ونَصفْ طريقته منذ صباه وطفوليته حسب قدرتنا لتمجيد الله الرحيم الذي يستدعي من كل جهة كافة الخلق ويخرجهم من ظلام الجهل إلى سناء ضوءه العجيب المعجز.

هذا الصبي باخوميوس مضى به والده في وقت من الأوقات إلى هيكل بعض الأصنام على النهر وكان قصدهما تقديم بخور

لأشباح الأبالسة الذين في النهر، فلما أبصر الكاهن الموكل بباب هيكل الصنم المذكور الصبي باخوميوس مقبلاً مع والديه صرخ بأعلى صوته صياحاً جنونياً وقال بحرقة ومرارة: ابعدوا عدو الآلهة من ههنا، اقصوه عن هيكلنا وعن واجباتنا نفياً. فلما سمع والداه ذلك حزنا جداً لما قيل عنه أنه عدو المظنون بهم آلهة وليسوا بآلهة.

وفي وقت آخر سقاه والداه من نبيذ تضحية الصنم ومع ما شربه قذفه للوقت، على ما حكى هو لنا من فمه. وفي وقت آخر جاء بلحم مطبوخ إلى فعلة يعملون في موضع وبات هناك فأمسكته فتاة جميلة جداً ابنة رجل في ذلك الموضع قائلة ارقد معي. فانزعج لكونه يبغض هذا الفعل لأنه كان غير نجس، وقال لها لا يكون مني أن أفعل هذا الفعل الشرير، وهكذا خلصه الله منها.

ومن بعد أن صار راهباً وصف جميع ما عرض له في حداثته، وقال الشياطين الذين لا بر فيهم أبعدوني على لسان كاهنهم من هيكلهم، فلما أبصروني للرذيلة ماقتاً وعن المنكرات حائداً سالكاً الطريق القويم، جانحاً عن الحال الوخيم، حدسوا عليّ من ميلي إلى حسن العبادة أنني سوف أنطوي إلى الإيمان الصادق والديانة

الفائقة وبهذا الحدس والتخمين حركوا خدامهم على إبعادي من الهيكل.

ومن بعد الاضطهاد الذي أثاره ديقلديانوس ومساهمة في الكفر والإلحاد مكسيميانوس، استولى على قضيب المملكة قسطنطين الكبير أول ملوك الروم المسيحيين، وفي عروض ذلك تمرد على الملك والي بلاد الحبشة وعصى عليه، وأن الملك تجهز إليه بجيش كثير وأرسل قوماً من أصحابه إلى سائر البلدان التي تحت طاعته يجمعون له رجاله ويلحقونه بهم إلى بلد الحبشة الفوقاني للمعونة.

فمضى عظماء القصر إلى جميع الكور مع سجلات الملك وأخذوا أناساً أقوياء من كل مدينة وقرية، وعرض من الأمور أن الشاب باخوميوس أُخذ في جملة الرجال الذين أُخذوا من بلد الصعيد وكان له من العمر وقتئذ عشرين سنة ولم يكن قوياً جداً بل من كثرة الجموع الذين حُشدوا أُخذ هو أيضاً، وحملوهم في السفن وساروا إلى بلد الحبشة حسب أمر الملك، ولما كانوا يخرجون من البحر إلى اليابس كان الموكلون بهم يحبسونهم بالليل حذراً من أن يهرب منهم إنسان وكانوا في نقص حسبما يكون مثلهم.

فلما رآهم أناساً من النصارى الرحومين من مدينة إسـنا، ترأفوا وأحضروا لهم عند المساء مأكولاً ومشروباً، فحسن موقع ذلك عند الشاب باخوميوس وأعجبه فعلهم، فتقصى من بعض الناس الحاضرين من أهل البلد قائلاً من هم هؤلاء القوم الجياد الرحومين الذين فعلوا بنا هذا الإحسان و لم يعرفونا قط، فقالوا له: هم نصارى مسيحيون وهذا دأبهم وفعلهم مع كل غريب ومحتاج حباً في إله السماء، وليس هذا فعلهم فقط بل وقد شرع لهم مسيحهم محبة مبغضيهم والإحسان إلى مضطهديهم والصلاة على لاعنيهم والتغاضي عن ظالميهم.

فقال باخوميوس ومن هو هذا المسيح؟ فأجابوه يقولون إنه ابن الله خالق الخضراء والغبراء وكلما فيهما، ما يُرَى وما لا يُرَى. فلما سمع باخوميوس هذه الأوصاف العجيبة التي ما سمع مثلها في كافة العلوم الفلسفية اتخذ إحساساً في قلبه بمفعولية النعمة التي انسكبت عليه من لدن الإله الرحمن وجعل في نفسه أنه إذا تخلص من تلك الضغطة يصير مسيحياً. وأنه انتصب قائماً وبسط يديه إلى السماء وهتف مبتهلاً وقال أيها الإله الحقيقي وحدك خالق السماء والأرض والبحار وكل ما فيها، اقبلني عبدك الملتجيء الآن إليك والمعترف بلاهوتك ولا تحقد عليَّ أيها

الصالح إذ جهلتك و لم أعرفك، وانظر إليَّ وخلصني من هذه الضغطة التي قد أُخذت إليها وأنا أتعبد لك وأخدمك كافة زماني وأعمل مشيئتك وأخدم كافة الأنام وأنيحهم حسب وصيتك.

ولما كانوا يسيرون كان رفقته يقلقون ملتمسين منه أن يتساوى بهم في الانخداع واللهو المزاح وعدم النظام، فكان يباعد نفسه منهم، غير مشارك لأعمالهم، محروساً بنعمة الله.

ولما صارت الحرب السالف ذكرها منح الله للملك قسطنطين الظفر والغلبة وفتك بعدوه وعاد سالماً بغنائم عظيمة وجيوشه، فأرسل للوقت سجلات لإطلاق الحشود، فلما أطلقوهم توجهوا إلى بلدانهم.

فأما باخوميوس فإنه قدم لله شكراً وأخذ في وفاء نذره وصار في بلد الصعيد الأعلى على اسم السيد المسيح الذي استصحبه له هادياً وراشداً حتى بلغ إلى قرية تُعرف بشينوفسكيا، كان فيها كنيسة فقصدها وصادف فيها كاهناً مباركاً فتحدث معه وكشف له سره وكتب اسمه بدفتر الموعوظين، فألهم الله ذلك الكاهن قبوله فقبله وعمده، وكان ذلك في خميس الفصح المجيد سنة ٢٩١ب م وكان عمره ٢٠ سنة، وكان في الليلة التي أُهل في صباحها لنعمة العماد رأى في نومه ندى نازلاً من

السماء عليه وصار في قوام قرص عسل في يده اليمنى ثم بدأ ينقط على الأرض نقطاً متواتراً وسمع صوتاً هاتفاً إليه وقائلاً: يا باخوم تفهم ما قد حدث وحصله في معرفتك لأن تأويله سيصير لك فيما بعد من الزمان.

ولما استيقظ من نومه وجد في نفسه فرحاً وابتهاجاً بمحبة الله تبارك وتعالى وكان ينمو في ذلك الموضع بمحبته للناس وكان يسلي كل من يأتي إليه حتى أن خبره أدرك كل أحد، وكثيرون كانوا يمضون ويسكنون تلك القرية من أجله.

وفي عروض ذلك لحق أهل تلك القرية مرض فكان كثيرون منهم ملقين مرضى، أما هو فكان يخدمهم وكان يجلب حملات حطب يفرقها عليهم لأنه كان بالقرب من ذلك الموضع حرشة عظيمة فيها سقط كثير جداً، وقام يخدمهم حتى دفع لهم الرب العافية ورفع المرض.

سعي القديس للرهبنة

حينئذ التمس أن يصير راهباً، وفكر في نفسه قائلاً هذا الفعل الذي هو خدمة كثيرين في قرية ما هو فعل راهب غير كهنة فقط وشيوخ مؤمنين، وأنا لا أعود أفعل هذا الفعل بعد هذا الوقت لئلا يتشبه بي آخر في هذا الفعل وتلحقه عثرة بهذا

السبب، فتأتي علىَّ الكلمة المكتوبة إن نفساً بنفس ومكتوب أيضاً أن الخدمة الطاهرة بغير دنس عند الله الآب هي هذه أن تفتقدوا الأيتام والأرامل عند ضروراتهم وأن يحفظ الإنسان نفسه من دنس العالم.

وبعد ثلاثة سنين وهو في ذلك الموضع رأى جموعاً كثيرة سكاناً حوله حتى أنهم لا يخلونه ينفرد، طلب الانتقال من ذلك الموضع، وأن القسيس دله على متوحد اسمه بلامون قديم في العبادة وهو مقصود وأب لكثيرين، وللوقت دفع موضعه لشيخ آخر راهب لكي يهتم بالقليل البقولات والنخل من أجل حاجة المساكين، وقام ومضى إلى موضع الشيخ بلامون.

ولما وصل إليه قرع باب قلايته فتطلع إليه الشيخ من الكوة وقال له: من أنت أيها الأخ وماذا تريد؟ فأجابه بإسراع قائلاً أنا أيها الأب المبارك أطلب المسيح الإله الذي أنت تعبده وأطلب إلى أبوتك أن تقبلني إليك وتجعلني راهباً. فقال له الكبير بلامون: يا ابني الرهبنة ما هي من الأعمال المطلقة ولا يأتي إليها الإنسان كيفما اتفق، لأن كثيرين قد طلبوها وقدموا إليها وهم جاهلون أتعابها، ولما حصلوا فيها ما استطاعوا الصبر، وأنت سمعت بها سماعاً ساذجاً وما قد عرفت جهادها.

فأجابه باخوميوس قائلاً: أيها الأب لا ترد وسيلتي ورغبتي، ولا تخمد نشطتي بل اقبلني وأطل روحك عليَّ وجربني وبعد ذلك افعل معي ما بدا لك. فقال له الشيخ: امض يا ولدي وجرب نفسك وحدك ثم ارجع إلينا أيضاً لأننا مستعدون أيضاً في الوقت الذي تقدم إلينا فيه أن نتعب معك كقدر ضعفنا حتى تعرف ذاتك وحدك لأن نسك الرهبانية فيه مضض كثير وخشونة وتقشف وأنا أعلمك أولاً مقدارها وتمضي وتجرب نفسك إن كنت تحتمل الأمر أم لا.

نحن أيها الولد الحبيب إليَّ والكريم عليَّ لما عرفنا من الدنيا غرورها وحيلها وقلة إنصافها لأهلها رأينا أن الثقة بها عجز وزلل والميل إليها والتمسك بها نقص رأي وخلل فتركناها إيثاراً وابتعدنا منها اختياراً، وحصلنا في هذا المكان الوحيد والمسكن الفريد وحملنا على عاتقنا صليب مسيحنا ليس عود خشب بل شقاء الجسم وضناه وقمع شهواته وإماتة قواه،...

نقيم نصف الليل ساهرين كل حين نتلو في الصلاة وتمجيد الله، ودفوعاً كثيرة نعمل من العشاء إلى الصباح شغلاً كثيراً بأيدينا، إما حبالاً أو ليفاً أو خوصاً أو شعراً ... لكي نقاتل النوم

ومن أجل حاجة جسدنا وإطعام المساكين حسب كلمة الرسول القائل أذكروا المساكين.

وأما أكل زيت أو شيء مطبوخ أو شرب خمر فلا نعرف أمر هكذا البتة، ونحن في كل حين صيام إلى المساء في نهار الصيف وفي الشتاء يومين يومين، ونفطر على خبز وملح لا غير.

ونبعد الملل بذكر الموت وقرب الأجل، وندحض بالاتضاع كل تعاظم وارتفاع ونحرس حسباتنا من الهواجس الردية، وبهذه الجهادات النسكية المكملة بمعونة الله جل اسمه نقدم أرواحنا ضحية نقية وذبيحة مرضية ليس دفعة، بل دفعات، وذلك بإزاء الجهادات لتحققنا أن المواهب الروحية توزع على قدر الأتعاب الجسدية ذاكرين قول الله أن الذين يغصبون ذواهم يرثون ملك السماوات.

فلما سمع باخوميوس من الكبير هذه الأقوال التي لم يسمع مثلها في وقت من الأوقات تأيَّد بالروح أكثر وتشجع على مباشرة الأتعاب ومكابدة الأوصاب ورأى أن يصطبر معه، وأجابه قائلاً ثقتي بالمسيح الإله أولاً، وبمؤازرة صلواتك ثانياً أنني أتقوى على جميع ما حكيت وأصطبر معك إلى حد الموت.

عند ذلك فتح له وأدخله، فسجد لديه وقبل يديه، فوعظه الشيخ وعرفه جميع ما يحتاج إلى معرفته من إماتة معقول الجسد وتواضع اللب وانسحاق القلب، وقال له: إن أنت حفظت ما قلناه لك وأن لا ترجع إلى خلف ولا تكون ذا قلبين فنحن نفرح معك. ثم قال له: أتظن يا بني أن جميع ما قلت لك من نسك وصلاة وسهر وخلافه أننا نطلب بذلك مجد البشر؟ .. لا يكون ذلك. أو تظن أننا نتهدد الناس؟ .. ، بل نحن نعرفك بعمل الخلاص لنكون بغير لوم لأنه قد كتب أن كل شيء ظاهر فهو. نور، من أجل أن بكثرة الضيق ندخل إلى ملكوت السموات.

رهبنة القديس

ثم قال له الأنبا بلامون والآن لعلك ترجع إلى مسكنك حتى تمتحن نفسك وتجربها أياماً فليس الذي تطلبه أمراً صغيراً، فأجابه باخوميوس: قد فرغت أجرب نفسي في كل شيء وأنا أرجو بمعونة الله وبصلواتك المقدسة أن قلبك يستريح عليَّ.

فأجابه الشيخ حسن، وقبله بفرح، ثم تركه عنده أياماً وهو يجربه في الصلاة وفي السهر وفي الصوم، ومن بعد ثلاثة أشهر لما اختبر صبره واجتهاد عزيمته صلى عليه وقص شعر رأسه وألبسه

إسكيم الرهبنة وذلك في سنة ٢٩٤ ب م. وكان عمره وقتئذ ثلاثة وعشرين سنة.

وصارا يواظبان النسك والصلاة معاً ويشتغلان في الأوقات بغزل الشعر ونسج المسوح وينالان من ذلك الحاجة الضرورية وما فضل عنهما يدفعانه للمساكين على ما شرح المغبوط بولس الرسول.

وكان في حال سهرهما متى ما ثقل النوم أعينهما يخرجان معاً خارج قلاليهما ينقلان رملاً ويرميانه في مكان آخر ليتعبا جسديهما ويطردا النوم عنهما.

وكان الشيخ يعظ الشاب دائماً ويقول له تشجع يا باخوميوس وليكن عشقك لله متوقداً بنار المحبة على الدوام وكن لديه ورعاً متواضعاً، واظب الصلاة ولا تمل وواصل سجودك ولا تكل، تيقظ ساهراً حذراً لئلا يمتحنك المجرب ويحزنك، لا يخفى عنك أن هذه الدنيا دار تجارة فالمسعود من انصرف منها بدون خسارة.

وكان باخوميوس الشاب يلتذ بتعاليمه ويعيها في قلبه، وكان الكبير يتحقق ذلك منه وتبتهج نفسه بنجاحه وتنسر

بفلاحه ويقدم لله شكراً ويرغب إليه أن يعضده بيمينه العلوية ويثبته في المناقب السنية والمناهج البهية.

ولما كان يوم الأحد المعظم عيد الفصح المجيد قال الشيخ لباخوميوس إذ كان هذا اليوم يوماً شريفاً وهو أكبر أعياد المسيحيين فانهض أعد لنا ما نغتذي به، فقام وسحق ملحاً وصب عليه زيتاً وجمع من نبات الأرض خضرة يسيرة وأحضر خبزاً واستدعى الشيخ إلى الاغتذاء، ولما أبصر الشيخ أن الزيت قد غطى الملح استكثره وأنه حزن ولم يشاء أن يأكل، وجعل يضرب بيديه على وجهه وقال وهو باك: الرب لأجلي صُلب وأنا آكل زيتاً هذا الذي ينعم الجسد. فحزن باخوميوس وسجد بين يديه معتذراً بأن الزيت قد اندفق بغير اختياره حتى غطى الملح وتوسل إليه أن يأكل وبالجهد أكل. هكذا كانت سيرة الكبير بلامون محررة حاملاً على عاتقه صليب السيد المسيح قافياً أثره بقلب منسحق ولب منكسر.

ولما أبصر الصبي باخوميوس شجاعة الشيخ كان يخرج من مسكنه دفوعاً كثيرة يمضي إلى المغاير الممتلئة موتى ويقيم الليل جميعه يصلي للرب حتى أن المكان الذي يقف فيه كان يصير مثل الطين لكثرة عرقه بسبب الحر في تلك الأماكن، ومن بعد ثلاثة

سنين نظر الرؤيا التي كان رآها أولاً – أعني باخوميوس – أن نداء السماء نازلاً عليه وكان يبصر مفاتيح تعطى له، وفي الغد أعلم الشيخ بذلك فتفكر في نفسه قائلاً أن في تفسير هذا الكلام معنى عظيم، بل إرادة الله تكون.

وفي يوم عيد الظهور الإلهي الذي هو عيد العماد جاء من نحو الحرشة، أعني باخوميوس، فنظر الشيخ يَقيدْ تحت قدر فتعجب في نفسه قائلاً ما الذي يطبخ الشيخ في هذا اليوم، ومن بعد قليل قال الشيخ أسرع اجلب صحناً، فلما جاء به كشف القدر وسكبها فيه، وإذ ذاك تين يابس لأنه كان في ذلك المكان شجرة عظيمة وكان يسقيانها بأيديهما من أجل حاجة مريض أو ضيف، ثم أكلا بشكر لأن المر حلو في نفس المحتاج.

راهب مغرور

وفي أحد الأيام طرقهما أحد الإخوة زائراً وكان ممن قد غلب عليه الخيلاء والظن بالذات فبات عندهما وفيما هم يتفاوضون أقوال الله وقدامهما ناراً تشتعل كثيرة لأن الوقت كان شتاءً قال الأخ الضيف لهما من منكما له إيمان قوي بالله فلينهض ويقف على هذا الجمر ويقول الصلاة التي علّمها الرب لتلاميذه، فلما سمع الشيخ قوله رجزه قائلاً ملعون هو الشيطان

النجس الذي ألقى هذا الضمير الفارغ في قلبك فاكفف عن هذا الكلام، فلم يحفل الأخ بقول الشيخ لكنه قال أنا أنا ثم نهض قائماً وانتصب على ذلك الجمر المتقد كثيراً وقال تلك الصلاة الإنجيلية مهلاً مهلاً وخرج منها ولم تعمل النار في لحماته شيئاً البتة، ومن بعد ذلك مضى إلى مسكنه بكبرياء قلب عظيم.

فقال باخوميوس للشيخ: لقد تعجبت من هذا الأخ الذي طلع على كثرة هذا الجمر ولم تحترق قدماه. فأجابه الشيخ: لا تعجب يا ابني من هذا لأنه بلا شك فعل الشيطان هو وسمح الرب أن لا تحترق قدماه كما هو مكتوب أن الله يرسل لذوي الاعوجاج طرقاً معوجة، صدقني يا بني أنك لو كنت تعلم بالتعب المعد لهذا لكنت تبكي على شقوته.

ومن بعد أيام قلائل وهو ماكث في كبرياء القلب لما عاينه الشيطان أنه متيسر لقبول خداعته تشكل له بصورة امرأة جميلة الدلال حلوة المقال متزينة بثياب زاهرة وقناعات فاخرة فجاءت وقرعت بابه ففتح لها، حينئذ أسفرت وجهها وقالت اعلم أيها الأب الخير أنه عليَّ دين لأقوام مقتدرين وهم الآن يتلمسونه مني، وأنا في هذا الوقت ما يتجه لي وفاهم وأخشى أن يقبضوا عليَّ ويأخذوني إلى ديارهم عبدة لهم لأنهم مسافرين، فاعمل

معي جميلاً وآويني عندك يوماً واحداً أو أكثره يومين لكي أفوهم وتغتنم من الله بي جزيلاً الأجر ومني أنا المسكينة صالح الذكر.

أما هو فلأجل انغلاق بصيرته وعمى قلبه لم يحس بالبلاء الذي دبر عليه لكنه أدخلها إلى قلايته وأتكأها على وسادته، حينئذ تحركت أوطاره وامتلأ قلبه من شهوتها، فمد يده نحوها لتكميل الفعل الوخيم والعمل الذميم، وللوقت باغته الشيطان وصرعه على الأرض، وبقى كالميت يوماً وليلة، ومن بعد ذلك عاوده رشده ورجع إليه حسه، فقام وجاء إلى عند الشيخ بلامون وهو مرتعد باك، فأعلن له الكائن على حقيقته وقال: أنا أنا سبب هلاكي وعلة مماتي إذ لم أصغ إلى ردعك إياي لأني أصبحت أسيراً للشيطان بهواي.

وعندما كان يعد هذه الأقوال والشيخ وتلميذه يبكيان لمصابه، بغته الروح النجس فطفر طفرة منكرة ومضى مستكداً في الجبل وقطع مسافة بعيدة وبلغ إلى مدينة تسمى بانوس وبقى تائهاً موسوس العقل وقتاً ما، وأخيراً زج ذاته في تنور متوقد فاحترق فيه، ولما عرف الأب الكبير ما آل إليه حاله وكيف كانت وفاته حزن جداً.

باخوميوس يزداد حرصاً ونسكاً

ولعمري أن هذا الحادث سبب لباخوميوس تيقظاً أكيداً وصار له معلماً ومرشداً لإقباله وإصلاح حاله كقول المزمور " يفرح الصديق إذا ما رأى الانتقام ويغسل يديه بدم الخاطئ ". لأنه زاد في حراسة قلبه وصيانة أفكاره ليله ونهاره حتى أن الأب بلامون كان يعجب من نشاطه ليس احتماله شقاء النسك الطويل، بل وحرصه على نظافة نيته ونقاء طويته وكونه حسن القبول لناموس الله جلّ اسمه وتقدس ذكره ذاكراً الرجاء المذخور في السماء.

وكان في ذلك المكان مغارة كبيرة خربة مملوءة من الأشواك والأحطاب، فكان يتردد عليها وينقل منها الحطب حافياً وكانت النواخز والأشواك تدخل في أسافل رجليه وتؤلمه إيلاماً شديداً وهو صابر مقدماً لله شكراً من حيث لم يطالع بذلك إنسان، فتذكر المسامير الحادة في رجلي المخلص على الصليب وبهذا الذكر كان يخمد مضض الألم ويسكن اضطراب الأفكار.

وكان إذا صاح في تلك المهامة والقفار المصاقبة لتلك الديار، كان ينتصب قائماً على رجليه ويمد يديه إلى السماء ويرفع لواحظ عينيه ويصلي قائلاً: " أيها الإله العظيم الغير محدود

ارحمني أنا صناعتك وجبلة يديك واقبلني أنا الخاطئ تائباً إليك، أعطني يا محب البشر قلباً منسحقاً وروحاً متخشعاً وأعين ملآنة دموعاً، ارحم يارب شعب النصرانية وتحنن على بني المعمودية وأحرس كنيستك من كل أذية بصلاة عبدك بلامون المرضية في كل حين آمين.

دعوة القديس باخوميوس لعمل الكنونيون

ولما كان في أحد الأيام وهو يسعى في تلك البرية جاء إلى قرية يقال لها (طبانسين)، وفي ما هو يصلي كعادته وقد أطال في الصلاة كثيراً، ففي عروض ذلك ظهر له ملاك مقدس وقال له: " بأمر الرب يا باخوميوس عمر ديراً في هذا المكان، فإنه سيقدم إليك جمع غفير من الأنام طالبين الرهبانية والسكنى معك ".

فلما سمع ذلك وتميزه، علم أنه أمر إلهي فعاد إلى الشيخ وأعلمه بكلام الملاك الظاهر له وأمره له من أجل عمارة الدير وما عَوَّل هو عليه، فلما سمع الكبير هذا منه حزن لمفارقته جداً، وقال كيف بعد سبع سنين وأنت ماكث معي بطاعة وخضوع كثير تفترق مني عند كبري وأنا أرى أن وجودي معك أسهل على من مفارقتك.

عمارة أول دير في طبانسين

(بعد ذلك) انتقلا كلاهما إلى قبلـــي، وبلغـــا طبانـــسين (دندرة حالياً) وشرعا في عمل دير لطيف حسب الإمكـــان، وذلك في سنة ثلاث مئة وواحد ب م، وكان عمره ثلاثين سنة، ولما فرغا منه قال الشيخ لباخوميوس: " اعلم أيها الابن الأحب إلى والأكرم من سائر الأشياء على، أن نفسي تنازعني بـــالعودة إلى قلايتي ومكان توحدي وقد عرفت أن الله قلدك عمارة هذا الدير وأنه سيكون كبيراً ويمتليء من الناس المرضيين لله، وأنـــت عتيد أن تستمد من الله قول وطول روح على سياستهم، وأنا قد طعنت في السن وضعفت قوتي وقد أزف انصرافي، وأرى كوني في توحدي أوفق لي، ولكني ألتمس من بنوتك وأطلـــب مـــن خلوص محبتك أن لا تعدمني نظرك وقتاً بعد وقـــت، وتكـــون تزورني مرة وأزورك أنا مرة في الأحيان الموافقة مدة هذه الأيام اليسيرة التي تبقت لي ...

نياحة القديس بلامون معلم باخوميوس

ثم افترقا بعد صلوات كثيرة وصارا يفعلان هذه الزيارة مدة حياة الشيخ، ولم يكن ذلك وقتاً كثيراً، لأن بعد قليل تحرك على الشيخ وجع طحاله من خشونة النسك الزائد على القوة، وامتد

الألم في كل جسمه لأنه كان دفوعاً يغتذي ولا يشرب مــاء، وتارة يستعمل الماء عوض الأكل وكان قوم من تلاميذه يزورونه ورؤساء أخر جاءوا من البعد إليه ومعهم طبيب حاذق ليداويه، فلما أبصره الطبيب قال أنه ما به شيء يحتــاج الطــب إلا ألم النسك فقط الذي ألم به، فإن هو أطاع وأكل قليل طعام ووافق فأنا أرجو أنه يعافى. فأشار عليه الإخوة بسؤال كثير في شــأن ذلك فأطاعهم وأكل بعض الأطعمة التي تأكلها بعض المرضــى دفعات ولم تجدي عليه نفعاً، فامتنع منها، وقال شهداء المــسيح صبروا على الحريق والتتقطيع وصــنوف العقــاب والعــذاب واجتَزت بالسيوف رؤوسهم وأنا ما أصبر على مر يــسير بــل أتطيب وأستعمل أدوية. ثم أني استعملت وما انتفعت فسبيلي أن أعاود نسكي ومن أنا بسبيله قد عرف قصدي وهــو يــأتي في أمري ويهتم بي أكثر وأوفق من اهتمامي أنا بذاتي.

ثم أنه عاود نسكه الأول بحماسة ونشاط نفس ومنحــه الله عافيته وقتاً ما، ثم بعد قليل مرض أيضاً بهذا المرض الــذي فيــه انتقل إلى عند الرب بمحضر من باخوميوس، لأنه كــان يكثــر المجيء عنده سيما في حال أمراضه ويخدمه ويراعي أموره ويتوفر على ما عاد بمصالح شأنه إلى أن أخذه الإله الذي خدمــه منــذ

نعومة أظفاره، بعد أن تزود باخوميوس بركاته، وكانت نياحته في عاشر ساعة من النهار الخامس والعشرين من أبيب وذلك في سنة ثلثمائة وستة ب م.

حضور يوحنا أخ باخوميوس إلى طبانسين

(ثم بعد ذلك) عاد باخوميوس إلى ديره الذي أنشأه في طبانسين وأخذ في جهاده ونسكه، وكان لباخوميوس أخ بالجسد أكبر منه سناً قد عاد إلى الإيمان المستقيم وتسمى يوحنا، هذا يوحنا لما سمع الأخبار الحسنة الصائرة عن أخيه قصده. فلما أتى إليه قبله باخوميوس أحسن قبول وفرح به كثيراً لأنه منذ انفصل عن ذويه وأهل بيته لم يبصر منهم أحداً إلا هذا يوحنا.

وعشق يوحنا هذا سيرة الرهبانية النسكية وأقام عند أخيه وكانا كلاهما يدرسان الكتب الإلهية ويحفظان النواميس الإنجيلية علماً وعملاً ويشتغلان بأيديهما حسب أمر الرسول وما يصير من ذلك يتمسكان بالقليل منه لضروري الحاجة والجزء الأكثر يدفعانه للمساكين.

حياة التقشف والنسك التي كانوا يعيشونها

وكانا هما والإخوة المجتمعين معهما لباسهم لباس الفقراء وذلك ثوب واحد لكل منهم وما كان يوجد عندهم وشاح

(ولا منثني) يستر به جسمه من يشاء غسل ثوبه، فأما باخوميوس فكان متسربلاً بثوب شعر خشن وغذاءه كان على ما ألفه من الكبير بلامون معلمه حسبما قد تقدم ذكره، وبقي مدة خمسة عشر سنة لا ينضجع على جنبه ولا يستلقي طريحاً على ظهره لكنه كان يأخذ من النوم اليسير وهو جالس على كرسي منفرد من حيث لا يلصق جسمه بالحائط ولا يستند إليه.

وأوقاتاً كثيرة كان يسهر من العشاء إلى الصباح، وكثير من الرهبان لما شاهدوا ذلك عياناً ورمقوه أحياناً غايروه وماثلوه ذاكرين قول بولس السعيد أن أغراض الجسد عداوة لله، بحسبما نشارك المسيح في آلامه نشترك معه في مجده، والإله الكلمة الأزلي قال ادخلوا من الباب الضيق المؤدي إلى الحياة، والمغتصبون ذواقم يختطفون ملكوت السماء. فلهذا جاهدوا في مرضاة الله إلى الغاية وثبتوا في النسك والشقاء بشجاعة إلى النهاية.

توسيع وعمارة دير طبانسين لأجل كثرة الإخوة

ولما رأى أبونا باخوميوس أن الدير قد ضاق بالإخوة الوافدين إليه، وخطر بباله كلام الملاك الذي قال له سابقاً حين أمره ببناء الدير المشاع في طبانسين سيأتيك جمع غفير من الأنام

مؤثرين السكنى معك، شرع مع أخيه يوحنا في تكبير الدير واتساعه لقبول الجم الغفير القادم للسلوك في طريق الرهبانية، وفيما هما يعمران قصد باخوميوس الاتساع لعلمه بما أوحى إليه بواسطة الملاك، وأما قصد يوحنا فكان الانجماع، وكان باخوميوس ينقض عليه، فتكره يوحنا ذلك، وقال كفاك تمد السور إلى خارج لأن الاتساع ينتج التيه.

ولما سمع باخوميوس هذا القول اغتاظ وتحرك باطنه إلى الغضب ولكنه على حال سكت ولما كان المساء نزل إلى مغارة كانت هناك وانتصب مصلياً ولنفسه مونباً على الغيظ الذي اختطفه وجعل يقول: " اللهم ارحمني وأنظر إليَّ لأن ها الآلام التي فيَّ تتمرد عليَّ، ويلي وويحي إذ كنت بعد أحيا حياة جسدية والأعراض باقية في نفسي الشقية والغيظ يختطفني والغضب يمتلكني، ارحمني يارب وطهرني من مكتوماتي، ولا يفرح بي أعدائي، ولا يشمت بي عداتي. ارحمني يا ربي وإلهي أيدني وتمم سعي ولا تحوجني إليَّ، ولا تتكلني عليَّ، لئلا أهلك لأن العدو إذا وجد فيَّ شيئاً يسيراً مما يختص به فقليلاً قليلاً إن لم تدركني رأفتك ويشملني حنانك يحتوي عليَّ ويأسرني لأنه متى ذل الإنسان في واحدة من وصايا الناموس فهو بالكل مدان، لكي

واثق متى ساعدني حنانك الوافر وصلاحك المتكاثر أعرف السلوك في مناهج قديسيك، لأن القديسين بمؤازرة روحك إياهم قهروا مبغضيهم واستولوا على أعدائهم. يارب كيف أعلم جماعة الإخوة الذين تستدعيهم إليّ وتتكلهم عليَّ ما لم أكن قد سبقت فأحكمته أولاً لأن تعليمي يكون لي خزياً وبيلاً ".

ولم يزل على هذه الحال يقدم الرغبة والسؤال ويأتي بما يضاهي هذه الأقوال من المساء إلى الصباح بندب وخشوع، ومن كثرة أعراقه، لأن الأوان كان صيفاً والمكان حاراً صارت الأرض التي تحت رجليه طيناً وقد جرت عادته في حين صلاته أن يبسط يديه نحو السماء وما يدرهما إليه إلا بعد وقت كبير، وكان الناظر إليهما يتخيلهما لعدم تحركهما كأنهما مسمرتان على صليب.

ولقد احتمل هذا الأب الفاضل والرجل الكامل تجارب كثيرة ومحناً ليست بيسيرة أحزنته بها الشياطين المردة، بإطلاق من الله جلت قدرته لتظهر غلبته وتنمو نجابته، لأنه كان ذاكراً قول السيد أن من يصبر إلى الغاية ذاك يخلص، وأن ملك الله لمن غصب ذاته.

حروب الشياطين للقديس باخوميوس

ولما عاين الجان النعمة التي أوتيها من الله استشاطوا عليه وتواثبوا إليه وأخذوا في مناصبته جهاراً، وصاروا متى ما عاينوه جاثياً على ركبتيه يخيلون أمامه كهيئة جب ليهلع جزعاً ويبطل سجوده جذراً من أن يسقط فيه، فأما هو فكان قد عرف دهاهم ومكرهم وخيالاتهم وما كان يحفل بهم بل كان يتشجع بالنعمة الحاصلة فيه عليهم ويتمم ركعاته ويواصل سجداته من غير جزع ولا هلع ويقدم لله تبريكاته بإيمان حار، وكان أولئك يخزون.

ودفعة وافاه جماعة منهم بكثرة واحتاطوه يميناً وشمالاً كخدامين له واصطفوا لديه من ههنا وههنا كأنهم أمام رئيس ووال مبجلين إياه بحسن نظام قائلين بعضهم لبعض افرحوا لولي الله وأكرموه وشرفوه حسب ما يجب له، فأما هو فكان يتأيد برجاء رحمة الله ويستزري نفسه ويصغرها.

وتارة أخرى زلزلوا مكان سكنه وأوهموه أنه ينهبط عليه وقصدهم بذلك أن يقلقوه ويخيفوه ويبطلوه من صلاته، فأما هو فلم يضطرب ولا جبن بل لبث مصلياً قائلاً: " الله ملجأنا وقوتنا ومعيننا في الأحزان التي تصادفنا جداً لذلك لسنا نرعب هلعاً عند تزلزل الأرض وتموجها ".

ومرة أخرى في حال جلوسه ومباشرته للعمل وقف به شيطان شبه ديك كبير الخلقة ورقى على أعلى موضع أمامه وصات صائحاً، وأما هو فأبعده عنه برشم الصليب المحيي.

ومرة أخرى التأم جماعة من الشياطين وشدوا ورقة من ورق الشجر (بميخان) كان معهم شداً وثيقاً، ثم أخذ نصفهم طرف الميخان ونصفهم الآخر وصاروا يجرون (ويلالون) مثل من يجرون حجراً عظيماً وثقيلاً جداً وقصدهم أن يزلوه ويضحكوه ليستولوا بذلك عليه، فأما هو فتنهد على شقوهم واستعان بصليب الرب وللوقت غابوا عنه.

وفي بعض الأيام جلس ليتناول غذاءه فزاره الجن في شكل نساء عراة وجلسوا ليأكلوا معه فغمض هو عينيه وأغلق بصائر لبه فلما عاينوا شدة تحرزه علموا أنهم ما يقدرون أن يزلوه ولا يقنصوه ففروا وخلوه لأن قوة من العلي كانت تؤازره وتعضده.

جهاد القديس باخوميوس

وأشياء غير هذه قاساها وامتحن بها من الجن على سبيل التجربة، وقد كان وقتاً بعد وقت يضرب ضرباً محسوساً أليماً ويحصل موعوكاً من المساء على الصباح من حيث لم يصل إليه سلوة ولا عزاء غير ذكر الله فقط راحمه ومؤيده.

وفيما هو مضغوط بهذه الامتحانات مصطبر عليها بـــنفس شهمة اتفق في بعض الأوقات أنه سمع صوتاً يقول له تأيد وتقو فأني معك ولا أهملك.

زيارة أبا (راقابولون) للقديس باخوميوس وتشجيعه

وفي عروض ذلك طرقه راهب فاضل له قـــدم في الـــسيرة وسابق نظر في السريرة يسمى راقابولون وبعد أن سلم عليه فاتحه الخطاب قائلاً تأيد يا باخوميوس بالله ولا تمل من الجهاد وتهلع، لأن إبليس خزاه الله إن قوى عليك واستهانك فيستولى علينا نحن أيضاً، لأنك أنت إشارتنا وعلمنا وبك نقتدي كلنا فلذلك تقـــو بالله واصطبر لئلا تطالب بدمائنا.

فلما سمع منه هذه الأقوال علم أنه فاضل وتـــشجع أكثـــر وأكثر، واتفقا على أن يسكنا معاً فأقام عند بـــاخوميوس كـــل زمانه وتنيح إلى رحمة الله وفارق العالم على ما يـــشاء الـــرب، وحصل عند من كان له عاشقاً وإليه تائقاً.

تتابع جهاد القديس باخوميوس

فأما الطوباوي باخوميوس فامتلك بـــالرب إيمانـــاً صـــادقاً ومعرفة رائقة ويقيناً حسناً بالنعمة التي أوتيها حتى أنه صار يطأ ظاهراً الحيات والعقارب من غير جزع ولا هلع. أما موسى بكر

الأنبياء فلما أبصر عصاه متحولة تنيناً فزع أمام الرب، وذاك أنه من قبل أن يمنح الرب قديسيه سلطاناً على هذه الحيوانات كانت مفزعات، فلما خولهم السلطة عليها صارت المؤذيات غير مرهوبات والمستعصبات ممكنات.

جهاده ضد النوم

ولما طال القتال على مجاهد الحق باخوميوس طلب من الله أبي الرأفات وعنصر الخيرات أن يبعد عنه النوم ويمنحه أن يكون في ليله بلا رقاد كنهاره ليقاوم مع معونة الله حروب الشياطين المعاندين له ويهزمهم بيقظة على حسب القول: " أطرد أعدائي فأدركهم ولا أرجع حتى أبيدهم أضغطهم فلا يستطيعون ثباتاً يسقطون تحت رجلي إذ تؤيدني بقوة في الحرب ". وفاز الطوباوي بما طلب وابتعد عنه النوم وقتاً ما مدة أربعين ليلة.

وكان أكله في كل الأيام في كل أسبوع مرة واحدة.

وكان يشاهد الله الذي لا يرى بنقا قلبه وصفا لبه كما في مرآة.

ويزداد نجاحه مع الزمان. وأُهل لموهبة سبق المعرفة واستحق لنظر الملائكة وكان في الغاية الكاملة في المحبة لكافة الناس.

قبوله الإخوة القادمين للرهبنة ووصيته لهم

وكان يقبل كل القادمين إليه، وبعد امتحانهم الواجب يلبسهم زي الرهبانية ثم يعلمهم السيرة مهلاً مهلاً، فأولاً يوصيهم بهجر العالم ولذاته ومطرباته والانجماع عن أهله ومن الأخذ والعطاء، ثم الانقطاع عن الوالدين والإخوة والأهل من دون مقتهم، ثم قطع الهوى وقمع الشهوة وأماتتها، ثم النسك والتقشف، ثم الطاعة والخدمة، ثم اجتناب الحديث البطال وجمع الذات وحفظ الحواس الظاهرة والباطنة، ثم الاتضاع الذي هو اسطوانة هذه السيرة مع المحبة ثم مواصلة الصلوات الليلية والنهارية والسهر الدائم، ثم الهرب الكلي من السبح الباطل والصلف والتيه والظن بالذات.

وعندما كان جماعة الإخوة يستمعون منه هذه الوصايا الروحية ويستقون منه هذه المياه المحيية، كانوا يثمرون أثماراً بحسب الدعوة التي دعيوها، لا سيما إذا عاينوه مباشراً بذاته الأتعاب والأنصاب في خدم الدير كلها فكانوا ينتفعون جداً ويزدادون حرارة ونسكاً.

وذاك أنه كان يعود البستان وينظفه ويسقيه ويحمل برسم الإخوة حاجتهم منه ويعد لهم المائدة، ويفتح لقارع باب الدير

ويخاطبه ويخدم من يمرض من الإخوة نهاراً وليلاً حتى يستريح لأنه قال في نفسه من أجل الإخوة الذين معه أنهم غروس جدد ما وصلوا بعد إلى هذا المقدار أن يتعبدوا من أجل الآخرين.

وكان يقول لهم أيها الإخوة اغتنموا الوقت، جاهدوا فيما دعيتم إليه وصلواتكم لا تفوتكم لأنها سور لكم وفريضة من الله عليكم، احرصوا على قراءة المزامير لأن بها تندفع الأعداء عنكم.

وكانوا يستفيدون من نظرهم إلى سكوته في الأوقات المنفعة الكبرى التي تنيف على التعاليم والعظات ويمجدون الله ويتعجبون إذ كانت أفعاله تزيد على أقواله. وكانوا يقولون بعضهم لبعض كنا نظن أن القديسين والخاطئين كذا خلقوا وجبل بهم وولدوا لا يستطيعون انتقالاً ولا غياراً عما كانوا عليه، ولم نعلم أن الأمر بخلاف ذلك وأن الحال في القداسة والنجاسة مردود إلى السلطة الذاتية لأن ها نحن نرى صلاح خالقنا وكرم بارينا ظاهراً في أبينا باخوميوس وقد ولد من أبوين كافرين وللشياطين عابدين وأخذ هو عنهما عبادتهما وماثلهما، وها نحن الآن نعاين حسن دعوته إلى الإله الحقيقي من كل قلبه ونشاهد زهده ونسكه وقويم سعيه ومحمود فعله فإذاً الأمر في الحالين مردود إلى سلطة الإنسان، ونحن إن شئنا أمكنا أن نقفو

آثار القديسين فلنصغ إلى أقوال هذا الإنسان الفاضل والقديس الكامل ولنتمثل أوامره ونواهيه ولنمت بمماته لنحيا بحياته.

وفي بعض الأوقات لما رأوا جهاده في سائر خدم الدير الكبير منها والصغير، والجليل والحقير، قالوا له يا أبانا لم تعاني الشقاء كله بنفسك وتكابد سائر أعمال الدير بذاتك. فقال لهم: الفلاح إذا كدن فدانه ما يتركه بطالاً قدامه بل يستعمله في أوان العمل ويريحه إذا ما تم الشغل وكمل، والإله الرحمن إذا ما عرف تعبي هو يرسل لنا من يساعدنا.

نظام المعيشة في الدير ومجيء إخوة أفاضل للرهبنة

وكان هذا الدير كنونيون، أي عيشة مشتركة، وكان الكبير قد أعطاهم قوانين ورسوماً لا زلل فيها وتقليدات مفيدة للنفوس ورتب لباسهم باعتدال وطعامهم بمساواة ونومهم بحسن نظام حسبما كان أفاده الملاك الذي كان أمره ببناء الدير المشاع في طبانسين.

ولما شاء الله كثرة الإخوة وزيادتهم وعزاء الأب وراحته، أرسل إليه أناساً أفاضل طالبين المقام عنده والنسك معه، وهم (بسنتاسيوس، وسورس، وباصيوس) فقالوا له نريد نترهب عندك فقبلهم ولما جربهم ووجدهم جياداً ألبسهم زي الرهبانية.

ومن بعدهم وافاه هؤلاء الإخوة وهم (باسيليوس، وقرنيليوس، وباخوم آخر، ويوحنا، وبولس) لأنهم سمعوا بقويم إيمانه وحسن نظامه فقبلهم أيضاً.

حضور تادرس وقبوله تلميذاً خاصاً له

ومن بعدهم أيضاً وفد إليه شاب حديث في سنه، شيخ في عقله، اسمه (تادرس) فقبله أيضاً، وإذ تصور فيه إمارات صالحة اتخذه له تلميذاً خصوصياً.

نمو الرهبنة وتنظيم العمل بالدير

وعندما تكاثر إخوة الدير يومئذ وبلغوا ما به من العدد رتب من الأقوياء فيهم أقواماً أولين وناظرين في أشغال الدير وفي الاهتمام بأمور الإخوة.

عدم دخول الكهنوت في الرهبنة

وفي هذه الكثرة من الرهبان ما كان فيهم قسيس يكهن لهم، ولقد استمر هذا القانون أي عدم رسامة قسوس بأديرة الأب باخوميوس نيف من مائة سنة، وحين كانت الحاجة تدعو إلى خدمة القداس في أيام الآحاد والأعياد الضرورية السيدية كان الأب يستدعي قسيساً ما من البيع القريبة لهم يصلي بهم ويُعيِّد لهم ويقدم لهم الأسرار المقدسة.

وكان القديس يرى أن لا يكون لهم قسيس على ما ذكر هو لهم فيما بعد قائلاً: ما يجب أن يكون في كنونيون مجد وتــرأس لئلا يقدح من ذلك من بين الإخوة غيرة مرة وحسد خارج من مشيئة الله وإرادته، وحينئذ يحصل الخباطات وتنجم الانشقاقات. وكما أن شرارة النار التي هي في أوائلها صغيرة حقيرة إذا وقعت في بيدر ولم تطفأ وشيكاً تصير كثيرة وتهلك أتعاب السنة كلها وتبيدها، هكذا درجة الكهنوت التي هي فاتحة محبــة التــرأس. فالأولى بنا نحن الرهبان ألا نلتمس مرتبة، لا سيما كهنوتية، ولا ندع أفكارنا تجنح إليها بل تخضع لبيعة الله بوداعة والذي يقيمه آباؤنا الأساقفة كاهناً وقتاً بعد وقت نقبلــه بإذعــان وطاعــة ونصدره لهذا التكهين.

لأن في قديم الزمان لم يكن كل جماعة الشعب لاويين لكن أولئك وحدهم الذين اختارهم الله انتدبهم دون غيرهم، والذين قاوموهم أحرقتهم النار السموية، فنحن الآن لا نفعــل كفعــل أولئك، بل الله الذي يرتب من جهة آبائنا الأساقفة لهذا الأمــر نقبله راضيين. فإن هو أكمل خدمته على الحال القــويم نفــع وأنفع، وإن هو – عائذ بالله – بما أنه باشر أموراً ذميمة ولابس

أحوالاً وخيمة فما سبيلنا أن ندينه إذ كان الله وحده هو الديان، بل الخليق بنا أن نظهر الحنان والعفو عن مناقص سائر الآنام.

ومتى كان يحضر أحد الإكليروس من أهل الكنيسة ويختار الدخول معهم في مصاف الرهبان أما بالطقس فقد كان يذعن لناموس الله، وأما بحسب قوانين الإخوة فكان يجعله أن يسلك كواحد منهم بطيبة قلب.

خدمة المرضى

ومتى كان يمرض أحد الإخوة شيخاً كان أم شاباً، كان القديس يكثر المجيء عنده وما يبارحه مهتماً بخلاص نفسه، إذ يحثه على الشكر لله في السر والعلانية ويثقفه ويوقظ أفكاره لئلا يسبي في أمور عالمية وتخيلات ردية ويلزمه الهذيذ بذكر الله وتمجيده والتماس رضاه، قائلاً: صل ولا تمل واطلب من الله رحمة ولا تكل، فالموسم بعد قائم والوقت ليس بدائم، إن الإنسان بعد وفاته قد بطل شكره وصلاته كما يقول الروح في الزبور " أن ليس في الموتى من يذكرك ولا في الجحيم من يشكرك " ومع هذا فما كان يهمل الاهتمام فيما عاد بمصالح جسم المريض.

توزيع الخدمة بالدير

وكان ينسر ويفرح جداً إذا رأى نجاح المبتدئين بمنافـــستهم فضائل التامين ويمدح منهم نشاط أنفسهم لديهم، ولذلك كان يتضاعف حرصهم ويزداد نشاطهم.

ولما كثروا إخوة الدير، رسم للأقوياء الذين فيهم مظافرتـــه وموازرته على الاهتمام بالأنفس وافتقادها، ورتب أقنوماً يهـــتم بجميع حوائج الدير المحسوسة التي لابد منها ويحصلها.

وجعل دونه ثانياً له وخادماً بين يديه، ورسم مـــن أجـــلاء الإخوة خبازين ومن يطبخ للإخوة في الأيام الملائمة، ومن يهتم بتنضيد المائدة ويقدم ويرفع، وكان الأكل والحمية مـــردوداً إلى الإرادة والاختيار، من شاء الغذاء كان الاختيار إليه ومن آثـــر الانعكاف على النسك ما كان أحد يحجز عليه.

وجعل بعض البيوت الكبار بيمارستانا (مستشفى) وأقـــام عليه أوائل مدبرين وثواني خادمين، فكان متى مرض أحد مـــن الإخوة يُحمَل إلى هناك ويهتم به الاهتمام الحميد الذي ما عليه مزيد حسب رسوم الرهبان.

ووكل على أبواب الدير بوابين ورعين ومـــن الله خـــائفين حسني الخطاب ودودين يقبلون الغربـــاء الطـــارقين والإخـــوة

المقبلين. وقرب الباب كان بيت الضيافة مفرداً وجعل متوليه والمقدم على ما فيه راهباً ورعاً عالماً ذا حنكة وتجربة في سائر الأمور، خبيراً بالمذهب القويم والشرع المستقيم جميل الخطاب وكفؤاً في رد الجواب، وهذا فكان أولاً وبين يديه أخاً ثانياً ممتثلاً أوامره وطائعاً مراسيمه. ورتب بيتاً آخر يترل فيه الإخوة المرتاضون بالامتحان للسيرة قبل رهبانيتهم في مدة ثلاث سنين ورتب لهم شيخاً مباركاً لله عابداً خالصاً يعظهم ويهتم بأنفسهم إلى أن يترهبنوا.

وانتدب لبيع ما يعمله الإخوة بأيديهم وابتياع ما يعود بمصالح شأنهم أناساً تقاة على أنفسهم متحفظين بحواسهم أمناء على ما يسلم إليهم ذوي ديانة وأمانة ورسم بيوتاً كثيرة لعمل الحصر وغيرها من الصنائع، وأقام على الإخوة العمالين من يهتم بأمورهم ويقدم لهم حاجتهم، وافترض عليهم الطاعة والإذعان بعضهم لبعض وترك الخلاف والمضادة واجتناب الحديث البطال والدينونة وأن لا تفوهم صلوات السواعي بل يتركوا العمل ويتمموها لأنها فريضة لله على الراهب وأنه عتيد أن يطالب بها، ويكونوا في أوان العمل يهذون بمجد الله وشكره بغير فتور لئلا تسبى أفكارهم مع شهوات البشر التي هي موت.

وقال لهم إذا أنتم حفظتم أقوالي فإنكم تثمرون أثماراً مرضية لله ونقية من كل عيب.

وكان القديس يرى أن يُغير أصحاب الخدم في الأوقات ويقيم موضعهم غيرهم ويقصد في ذلك حالين. الأول منهما، هو أن يستفيد الخادم الجديد من أتعاب الخدم أثمارها الروحية وينال من الله أكاليلها البهية لعلمه أن الخدمة بمخافة الله ومراقبته بالثقة والأمانة وتجنب الخيانة يعادل ثوابها من الله بثواب الناسك المصلي الصائم والمواصل السهر على الدائم.

والحال الثانية: هي راحة الخادم الأول وسكونه من قلق الشغل وقتاً ما. وهؤلاء الإخوة المنصرفون عن الخدم لحرصهم في خلاص نفوسهم ولأجل الحرارة الروحانية الحاصلة فيهم ما كانوا يربحون ذواتهم الراحة المفوضة من الأب لهم مفتكرين أن هذه الدنيا دار شقاء وجهاد والآخرة دار راحة وبقاء، بل كان الذي منهم يعرف مهنة يمضي إلى منازل الصناعة باليد ويعمل، ومن لا يحسن صنعة يمضي ويباشر أشغال الدير منقادين لأوامر متقدميهم وممتثلين مراسيمهم ونواهيهم.

إدارة الدير

ومتى كان يغيب أبو الدير أو أول ومقدم الخدمة كان ثانيه ينوب عنه ويخلفه ويهتم بالأنفس ويأمر وينهي بسلطة تامة إلى حين عودة الأول من حيث لا يتبجح بذلك ولا يستكبر بل كان يشد بنيان إخوته بوداعة وافرة ومسكنة لب متكاثرة، وعلى هذه السبل السديدة والمناهج الرشيدة كانت تجري أمورهم في جميع الخدم والمنازل وساكنيها والمتقدمين عليها والأولين فيها.

خدمة الوعظ

ورسم لأقنوم الدير الذي كان ثانيه أن يصنف في كل يوم سبت عظة، وفي يوم الأحد عظتين، ويقرأ على الإخوة إذا كانوا ملتئمين في الصلوات الجامعة وكانوا يسمعون مصغين وللمقولات قبولين.

الطعام

أما الصوم والأكل فلم يكن تحت حجز ولا موضوع عنه أمر، بل كان الأمر في ذلك مصروفاً إلى اختيارهم، وذلك أن الإخوة المتولين خدمة المائدة ووضعها كانوا على ثمان ساعات من نهار كل يوم ينضدونها ويضعون عليها الخبز وأنواع البقول والزياتين (الزيتون) وفي الأيام الملائمة كانوا يقدمون جبناً

وبيضاً وسلائق وطبيخاً من الحبوب، وكانوا بعد صلاة الساعة التاسعة يحضرون إلى المائدة للطعام ولسماع القراءة. بل ما كان الجميع يغتذون معاً لأن بعضاً كانوا يغتذون في الساعة التاسعة وغير هؤلاء في الساعة العاشرة، وقوم في الساعة الحادية عشر وغيرهم في المساء عند طلوع النجم، وأقوام أخر كانوا يغتذون في اليومين مرة واحدة.

اتساع الدير وإنشاء أديرة أخرى وعمل الرهبان

وكبر هذا الدير واتسع جداً إلى أن بلغ عدد الإخوة الملتئمين فيه ألفان وخمسمائة راهب يعيشون عيشاً مشاعاً.

وكان فيهم جماعة يعانون الصنائع بأيديهم لا لهم بل للوسط، من ذلك خمسة عشر خياطاً وسبعة حدادين وأربعة نجارين وخمسة عشر صباغاً وعشرين دباغاً وخمسة عشر إسكافياً وعشرون بستانياً وعشرة نساخ واثنا عشر جمالاً، عمال الزنابيل الكبار، وعشرون نفراً عمال المراجين، عشرون نفر حراس، عشرة أكارين خمسون فداناً.

إنشاء دير بافو

ولما شاهد أبونا باخوميوس كثرة الناس الوافدين إليه الطالبين الرهبانية والمقام عنده أنشا ديراً ثانياً في أرض الخربة المسماة بافو،

وصار يقبل كل من قصده وبسكنه هناك. ونقل من ديره الأول إلى هذا الدير الثاني جملة من الإخوة المهذبين في السيرة لكي يعلموا الإخوة الجدد سبيل الخلاص ويرتبوهم على ترتيب الدير الأول المعروف بطبانسين.

وأقام منهم على الدير رئيساً وأقنوماً وخداماً كما رسم لكل واحد منهم أن لا يتعدى حدوده بل يلزم ما انتدب له بالإذعان والطاعة بعضهم لبعض من غير مروق ولا عقوق، زاعماً أن الحدود والسنن وضعت للمبتدئين الذين هم في العقل (متصابين)، فأما الكاملون فليس عليهم ناموس على رأي القائل جميع الأشياء تساعد المتيقظين إلى عمل الخير. لأن الكامل من الناس ذا الحنكة والتجربة لن تعثر قدماه ولا تزل خطاه ولو أنه بمكان قد عدم الترتيب والنظام. وكان الكبير يواصل افتقاد الديرين ليلاً ونهاراً كعبد أمين للراعي الصالح.

إنشاء دير شينوفيسكيا

ولما كثر الإخوة في هذا الدير بافو وضاق عليهم جداً جاء إلى عند القديس شيخ ناسك ولله عابد خالص طيب الثناء وحسن البناء اسمه أبو (نوخوس) ورغب إليه أن يستلم منه ديراً كان قد أنشأه برسمه في أرض الضيعة المسماة (شينوفيسكيا)

أي مرعى الوز، وهي الضيعة التي قبل فيها الكبير المعمودية على ما تقدم القول، ويجعله برسم الكنونيون.

وكان هذا الدير واسعاً وكبيراً وكان فيه رهبان قلائل، فاستلمه الأب الكبير منه وقدم شكراً كثيراً، ثم نقل إليه من ديره الأول الذي فيه كان مقامه جماعة من الإخوة المتقدمين والورعين وأسكنهم هناك بعد أن رسم منهم أباً على الدير مقدماً، وأقنوماً ثانياً، ورسم لهم أن يعلموا الرهبان الموجودين في هذا الدير طقسهم وسيرتهم المألوفة بغير زيادة ولا نقص.

إنشاء دير منخوسين

ولما امتلأ هذا الدير إخوة وضاق بهم اعتمر ديراً رابعاً في أرض تسمى (منخوسين) وعرف الدير بهذا الاسم ورتب فيه إخوة مباركين من الرهبان الأوائل الكاملين وصار يقبل فيه الواردين يستسيرون السيرة المشاعة للكل.

وتشعبت من هذه الأديرة أديرة أخرى إلى أن بلغ عدد الكل سبعة آلاف راهب. وكان الأب باخوميوس يفتقد جماعتهم ويراعي أمورهم ويحمل أثقالهم كأب مترائف على أولاده الخصيصين به.

حضور أخت القديس باخوميوس وإنشاء دير للراهبات

ولما سمعت مريم أخت أبينا باخوميوس بأخباره والشائع من طيب آثاره استدلت على مكانه وجاءت إليـــه إلى طابونـــسه، وعرَّفت البواب من هي وسألته أن يطالع أخاها بقدومها، ولمـــا علم الأب من أجلها أرسل إليها قائلاً هوذا قد علمت أني حـــي فلا تريني، بل إن شئتي أن تكوني بالقرب مني مشاركة إياي في السيرة والعمل فتشي نفسك في هذا الأمر وأنا أُصـــير إخـــوتي يُصلحون لك مسكناً مفرداً تسكنين فيه وأؤمل من رحمة الرب أنه يستدعي إليك كثرة من الأخوات يصيرون لك مؤنسات ولا يسهى عليك أيتها الأخت أن هذه الدنيا دار غرور لا ثبات لها ولا قرار وأما الآخرة فهي دار البقاء والمسار دار لا يدنو منـــها غيار ولا يصاقبها بلاء ودثار.

فعاد البواب إليها وبلغها الجواب، فلما سمعت هذا الكـــلام أفضت إلى الحقائق واستوعب قلبها انسحاق وخشوع واختارت السكون بقربه والمقام بكنفه وصقبه.

فلما عرف الكبير ذلك منها أمر من بنى لها قلاية مفـــردة في أرض القرية طبانسين تبعد من ديره الأول مسافة قليلة وسكنت فيها وقصدها فيما بعد نسوة غيرها واعتمروا لهن قلالي وسكنن

عندها وأخذن سيرها وهكذا قليلاً قليلاً كثرت الرهبانات وتزايد جداً وصار الموضع لهن ديراً كبيراً، وكانت هي أولتهن وكأم حنينة عليهن.

ورتب الكبير لافتقادهن شيخاً من آباء ديره وديعاً ورعاً يسمى بطرس وكان كلامه متبلاً بملح الروح عالي السيرة نقي السريرة متحفظاً بحواسه حانياً رأسه إلى أسفل ذا حشمة ووقار، هذا الشيخ المبارك كان يكثر وعظهن ويقرأ الكتب الإلهية عليهن ويدلهن على السبيل المستقيم ويعرفهن قوانين الإخوة وفروضهم التي سنها الأب الكبير لهم ويأمرهن بأن يستسيرن بها ويأخذن عنها وكان قد سكن في هذا الدير النساوي (دير الراهبات) منهم والدة وأخوات ونسيبات لقوم من الإخوة الرهبان المقيمين عند الأب الكبير. وربما كان يشتاق أحد هؤلاء الإخوة، الذي ما وصل بعد إلى درجة الكمال، أن يفتقد أمه أو أخته أو نسيبته فكان الأب يتنازل مع الأخ الطالب منه ذلك بإفراز على رأي القائل صرت مع الكل كالكل لأربح الكل، ويطلق له الزيارة بعد أن يرسل تلميذه وخصيصه يوصله إلى الشيخ بطرس، والشيخ كان يشاور الأم الكبيرة وتلك كانت ترسل معهم عجوزاً محتشمة من الأخوات، وهكذا بتحرز كبير وتحفظ غزير

كان يبصر الأخ أمه أو أخته أو نسيبته وقتاً يسيراً ثم يعود إلى ديره من حيث لا يجلب لها شيئاً ولا يأخذ من عندها شيئاً إذ لم يكن لهما شيء موجود بل كان رجاء الخيرات العتيدة يجزيهما عن هذه الأمور وهو حسبهما.

ومتى كانت الحاجة داعية إلى تجديد شيء من العمارة في هذا الدير النساوي كان الأب يرسل من عنده لهن من الإخوة الصناع من يثق بهم ويطمئن من قبلهم ويكون الشيخ أنبا بطرس مواظباً لهم إلى حين نجاز الشغل.

ومتى كانت الوفاة التي لابد منها تطرق إحداهن كانت الأمهات منهن يكفنن الجسم ويدرجنه (بسبنية) وكان الأب يرسل من عنده قسوساً ومصلين ويلتئمون في الكنيسة الرجال في جهة والنساء في جهة أخرى ويتممون الصلوات المألوفة على الأخت المتوفية بخشوع ووقار ثم يوضع الجسم على عجلة تسير به إلى الجبل خارج الدير بحيث كانوا يدفنون موتاهن والكل يتبعونه بالتزمير والتهليل وبعد مواراة الجسم ودفنه ينكفي الإخوة إلى ديرهم وكذلك الراهبات يتبعونه إلى ديرهن، فأما الأب بطرس الشيخ فكان يقيم في الدير ويواصل الصلاة إلى الله لأجلهن إلى حين قدومهن، وقد كانوا يدفنون البعض منهن في

قبور مفردة داخل الدير. وبلغت عدهّن إلى أربعمائة راهبة ورسومهن في أكلهن وصومهن ولباسهن وزيهن كانت على نظام الدير الكبير ما خلا الوشاح فقط.

الفصل الثاني

سيرة القديس تادرس

إذ كنا قد ذكرنا قدوم تادرس الشاب إلى عند الكبير مع جملة الوافدين ذكراً وجيزاً بحسب ما اقتضاه الوقت، رأينا الآن أن نأتي بما شاهدناه من أمره إذ كان في ذلك منفعة كبرى لكافة السامعين.

هذا تادرس المسيحي حقاً من بكرة سنه. كانت منيرة هيئته تدل على كبر همته وسمو سيرته لأنه من طفوليته لم يكن مثل باقي الأولاد مرحاً مطرياً، بل كان ساكناً هادياً متعقلاً، وهذه هي سيرته من مبدأها.

كان ميلاده نحو ٣٢٣ ب م في مدينة لاتوبوليس (إسنا) (الأطوبولي) في إقليم طيبة العليا في البر المصري من عائلة معتبرة بالشرف والجاه والغنى في ما بين أعظم وأشرف أكابر الإقليم وأغناهم وبحسب النوع اللائق بعائلة هذه صفتها تربى تادرس وإذ بلغ إلى اثني عشر سنة من عمره بدأ عقله يستنير بالإنارات الإلهية آخذاً إحساساً بصعوبة الأخطار المهيأة للعائشين بالتنعمات العالمية والملذات الجسدية، وقد كانت عادة قديمة مستمرة بين مسيحي تلك المدينة أنهم في عيد الظهور المجيد

الإلهي يحتفلون احتفالاً زائداً بولائم جليلــة وموائــد فــاخرة بمأكولات شهية ومشروبات عطرة زكية بأنواع متبادلة في مــا بين العائلات والأصدقاء والأقارب، فلما شاهد تــادرس هــذا الاستعداد وأبصر أنواع تلك الخيرات الوافرة والألوان اللذيــذة المتكاثرة والمترل مخصباً مترعاً من كل فن من المأكولات الشهية والخمور العطرة الزكية، تخشع في قلبه وروى في فكره ولبه قائلاً لنفسه يا نفسي إن أنت تمتعت بهذه الخيرات الحسية والأطعمــة الجسدية لن تحظين بالنعم الدهرية إذ كان من الممتنع جداً هــو التمتع ها هنا وهناك.

حينئذ ولج إلى بيت بعيد عن القلق والانزعاج، وخرَّ علــى وجهه ساجداً لله قائلاً: أيها الإله القدوس علام رويات المُهــج والنفوس قد عرفت مني خالص نيتي وفهمت عزمــي وطــويتي بحسب ذلك أهدني إلى رضاك إذ ليس لي إله سواك لست أشاء هذه الملاذ العالمية ولا أؤثر الأشياء الحسية ولا أريد شــيئاً مــن الأمور المرئية بل طلبتي كلها إياك على رأي القائل واحدة سألت الرب وإياها ألتمس أن أسكن في بيت الرب كل أيــام حيــاتي لأنظر بهاء الرب وأطلع على هيكله المقدس. نحوك تكلم قلــبي وإياك أيها الرب ابتغاك وجهي يارب طالباً وجهك فلا تصرف

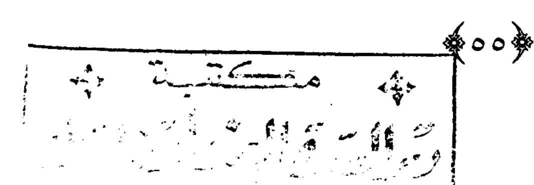
وجهك عني تعطف عن عبدك، لست أريد ولا أرغب في غيرك ولا ألتمس سوى رحمتك وحنانك، قد عطشت إليك نفسي وصبا نحوك قلبي فأرشدني إلى حيث تشاء يا علام السر والخفاء.

فأما والدته فلما افتقدته تقصت عنه وطلبته وبعد الجهد وجدته وإذ عاينته عن أثر كآبة وخشوع وأجفانه ندية بالدموع قالت له ما الأمر الذي شجاك ومن الذي أحزنك وآذاك وقد طلبناك أنا وأبوك وإخوتك كثيراً لتأكل معنا وتفرح بفرحنا، وأنه احتج عندها بمرض قد لحقه وأنه ما يشتهي طعاماً في ذلك الوقت وأقنعها وصرفها ولبث هو مكانه مصلياً إلى المساء، وحينئذ استعمل غذاء.

وكان يقطع هواه من الأطعمة الطيبة اللذيذة ويستعمل الدون، ودفعات كثيرة كان يصوم يومين ويأكل فيهما دفعة واحدة، وصار يقشف نفسه ويستسير سيرة الرهبان مدة سنتين وهو في مترل والديه، وكان والداه ينظران وينذهلان من فعله.

خروج تادرس للرهبنة

ثم انفسح له الخروج وقصد بعض الديار الذي يرشده الله إليه، وكان له من عمره وقتئذ أربعة عشر سنة، وأنه سار وبتوفيق الله وصل إلى دير لطيف يسكنه رهبان أخيار ونساك



أبرار وكان الوقت قرب المساء، فاستأذن ودخل وكان الإخوة مجتمعين في الكنيسة يكملون الصلاة وأنه صلى وأخذوه معهم إلى العشاء وبعد ذلك صاروا يتذاكرون فصولاً من الكتب الإلهية ويستفهمون معانيها.

وفي أحد الأيام كان أخ من رهبان ذلك الدير جائياً من بحري فأمسى عليه الوقت عند (دوناسة) واضطر أن يبيت في الدير فجعل أنبا باخوميوس الإخوة أن يصنعوا معه عظم محبة، ولما فرغوا من الأكل جلس أنبا باخوميوس يكلم الإخوة بكلام الله ويفسر لهم من الكتب المقدسة، وذلك الأخ جالس يسمع مثل الإخوة. ولما أصبح مضى إلى الصعيد إلى ديره في تخوم إسنا وقد كان في ذلك الوقت جالساً مع الإخوة وهم يتساءلون وكان الصبي تادرس يسمع ما يقوله كل واحد بعظم تأمل.

فلما سمع الشاب تادرس هذه المواعظ استوعب قلبه سروراً وصبا إلى ذلك الأب الممدوح ومال نحوه شوقاً وهام بذكره شغفاً وتوقاً وتوسل إلى الله قائلاً: أيها الإله العلي الشأن المتعطف والكثير الحنان أنت قد عرفت قصدي إليك وأني في جميع أموري متوكل عليك، وقد اتصل بي الآن خبر هذا الأب الخير عبدك باخوميوس ونفسي تنازعني إلى نظر رؤيته والمقام في حظيرته

والتتلمذ لأبوته فإن كان هذا الأمر لنفسي موافقاً فأرشدنِي إليه وبلغني إليه وإلا فليكن هواك يا من ليس لي رجاء سواك. وقضى أكثر الليل دارساً ما هذا فحواه.

ولما كان الصباح مضى إلى الأخ الذي قال الكلام عشية وقال له أنا أسألك أن تُعَرفني حال هذا الرجل الكبير الجامع في (طبانسين) الإخوة الكثيرين الذي تكلمت عنه البارحة وكيف هي تدابيره. قال له الأخ أما من أجل تعب ذلك الرجل على ما سمعت فهو كثير جداً، بل رأس أعماله أنا أعرفك به، هو رجل كل صبي يمضي إليه ويترهب عنده ويجتهد بكل اجتهاده في حفظه بغير خطية وبطهارة. فقال له عرفني أيضاً النواميس التي وضعها للإخوة وعملهم وأكلهم وجميع ترتيبهم فعرفه جميع ذلك. ولما سمع تادرس هذا كان مداوماً للصلاة في النهار والليل ليسهل الله طريقه لكي يجتمع بالأب باخوميوس وكان يقول: يا رحوم يا من لم يخيب طالبيه اجعلني مستحقاً أن ألتقي بعبدك واستحق معرفتك على يديه.

وكان لما مرض دفعة أتى إليه أبواه بطعام إلى الدير الذي كان فيه فلم يأخذه خائفاً مخالفة القوانين التي سمعها من الأخ أن هكذا تصنع الإخوة الذين لأنبا باخوميوس، فلما اشتد به المرض

أخذه أبواه وأدخلاه إلى بيتهما، و لم يكن هو يعلم من ثقل المرض، ولما استيقظ قليلاً علم ذلك فطلبوا إليه أن يأكل قليلاً فلم يشاء قائلاً لو أنني أموت لا أذوق شيئاً عندكم، فلما رآه أبواه أنه لم يطيعهما ليأكل أخرجاه إلى الدير أيضاً، فخدمه الإخوة حتى شفي من المرض.

ومن بعد أربعة أشهر وهو يسأل الله أن يعطيه سؤاله استضافه بهم أخ كبير ناسك من شركة الأب باخوميوس مرسوم لخدمة الإخوة اسمه أبا (باكيسيوس)، فلما نظره الصبي تادرس طلع الضمير على حبه للوقت كمثل من هو من الرب قائلاً ها هو الرجل الذي على يديه يكمل لك الله ما قد سألت ويمضي بك إلى رجل الله الذي من أجله طلبت، وأنه أتى إليه وعرفه ما عول عليه فما ارتضى باتخاذه كونه في دير.

حينئذ تادرس انتظر خروجه من دون إعلامه وسعى خلفه فرآه الذين كانوا مع باكيسيوس في المركب فقالوا له هوذا الابن الصغير الذي تكلم معك البارحة يجري على البر قبالنا، فأمر بإحضاره ولما مثل لديه سجد أمام رجليه وقبل يديه وعرفه شوقه إلى الأب باخوميوس وأنه يؤثر رؤيته وأخذ صلاته وبركته، وإن كان لله إرادة في رهبانيته يلهم الأب ليحصيه في جملة الإخوة

رعيته ويخدم الدير مدة حياته، فلما سمع الشيخ منه حسن عبارته عاين شوقه إلى النسك وكثرة حرارته واستدل على نجاحه من سذاجة هيئته وتلوح فلاحه من بساطة سجيته، أخذه معه.

ولما وصلا إلى باب الدير أحنى تادرس ركبتيه إلى الأرض ساجداً قائلاً مبارك أنت أيها الإله الصالح إذ سمعت صلاتي ومنحتني مناي وأهلتني أن أبصر دير قديسك باخوميوس الكبير عند ذلك قال له الشيخ باكيسيوس ابقي موضعك إلى أن أدخل استأذن الأب في دخولك وأعود آخذك، فدخل وأعلم الأب بخبره، فأمره بإحضاره، فلما مثل لديه وشاهده أحس باطناً بواسطة نور سماوي من كان تادرس، فهتف من أجله قائلاً هوذا الإناء المختار الذي أرسل من الله إلى جماعة رهباننا، وأن تادرس سجد لديه وقبل قدميه وبلهما بدموعه فباركه وقال له انهض يا ابني ولا تبك لأنني أنا خادماً لأبيك، أعني الله سبحانه، ثم قال له الإله الذي أقبلت من أجله والتجأت إليه الرب يسوع المسيح هو يكمل لك جميع ما قد رسمت في قلبك أن تعمله.

رهبنة تادرس في شركة باخوميوس واتخاذه تلميذاً له

ثم أنه اتخذه له تلميذاً خصيصاً وعلمه سنن السيرة وقوانينها ونظامها التي أولها تواضع اللب والطاعة، وكان الشاب ذا قبول

لما يتلو عليه بكل سكينة، ولما كان فيما بعد أمر الأب يقص شعر رأسه وأن يلبس الزي الرهباني، وكان له وقتئذ أربعة عشر سنة من عمره وذلك في سنة ٣٦ منذ وضعت الشركة في (دوناسة) وهي السنة التي حضر فيها إلى الدير، وذلك في سنة ٣٣٧ ب م.

جهاده في الرهبنة

وصار هذا الشاب الذي كان لخلاص نفسه وامقاً ولكل منقبة سامية عاشقاً ينافس الإخوة في نسكهم ويغايرهم في فضائلهم ويماريهم في أعراقهم (مما رآه حسنة محمودة)، وتأيد على حفظ الوصايا الجهادية والمناسك الخشنة الشقية بذكر الخيرات المرتجية، وكان الأب الكبير يقوي عزيمته بعظاته ويشدد منته بتنبيهاته ويشجعه على مواصلة الصلاة والصيام وعلى سهر الليل وينهيه عن الحديث وهذر الكلام، وكان الشاب عاقلاً لبيباً مكيناً في رأيه ثاقباً في ذكائه.

ولقد كان يستفيد من سيرة الكبير الظلفة ومناسكه الحركة القشفة من النظر إلى بساطة هيئته ونشاطة سجيته ليس بدون الانتفاع بعظاته وتثقيفاته. وقد كان أحكم فضيلة الطاعة المولدة الوداعة وأتقن نقاوة القلب والطهارة التي هي غاية الإشراق

والإنارة، حتى أنه صار يعزي المحزونين ويسلي الموجوعين ويثقف الذين هم أكبر منه في الدير سناً وقدماً، لأن نعمة الروح على ما قال السيد المسيح تهب حيث تشاء، وتصير العويصات سهلات والغير ممكنات مستطاعات.

ولما شاهد الأب نجاح هذا الشاب وزائد نسكه وتقشفه وفضائله السنية ومناهجه البهية حكم بأنه هو العتيد أن يتولى بعده رعيته ويتقلد سياسته وخدمته.

زيارة والدته له ورفضه مقابلتها

لما اتصل خبره بوالدته وعرفت أين هو، حملها الشوق إلى رؤيته، وأنها قامت ومضت إليه بعد أن حملت كتباً من الأساقفة ومقدمي الشعب وقتئذ إلى الأب باخوميوس يسألونه ويرغبون إليه أن يتنازل قليلاً في أمر لا خطر فيه ويأمر لتلميذه تادرس أن يعزي والدته بنظرها إليه ساعة من الزمان ويعود على ديره وترتيبه ويقلدهم بذلك المنة الكبرى والجائزة العظمى. ولما وصلت إلى دير العذارى وحصلت في مترل الضيافة أرسلت إلى الأب الكتب الواصلة معها مع كتاب مفرد منها ترغب إليه وتسأله أن يتحنن عليها ويرق لما بها من الصبابة والتراع إلى نظر ولدها ومهجة قلبها وأن يرسله إليها.

فاستدعى الكبير تادرس إليه وقرأ عليه جميع الكتب وقال له لأجل رغبة الأساقفة إلينا واعترافهم أن في ذلك تنازلاً قليلاً اعمل طاعة وامضي سلم على والدتك وعزها وأقنعها بالقول الذي تلقنه وقتئذ من الروح وارجع عائداً إلى ديرك.

فأجابه تادرس قائلاً قل لي أيها الأب المكرم إن أنا مضيت وأبصرتها بما أنها والدتي ونظرتني هي نظراً مختصاً بي (ولدها) وقضينا كلانا وطراً وغرضنا بشرياً بعد ما قد نلته من المعرفة الفائقة والعلوم الرائقة، أما يلومني الرب في يوم المداينة إذ أكون قد خالفت أمرته وتعديت سنته وأقابل بألم العذاب وأليم العقاب وعوض ما يجب عليَّ أن أتشجع بالله وأظهر شهامة وأبدي في إتقان الفضيلة بجدة، أصير حجر عثرة أولاً لذاتي وثانياً لإخوتي وآبائي وإن كان أولاد لاوي قتلوا والديهم وإخوتهم غيرة لله وفي طلب رضاه لئلا يهلكوا وقتئذ في السخط الوارد عليهم وكانوا ذوي شريعة رسمية وسنة ضلالية، فماذا يكون عذري أنا صاحب الشريعة الحقية والفرائض الخلاصية إذا خالفت وصية إلهي وخالقي وأقضي غرض والدتي واشتياقي لا كان ذلك أبداً وأنا ما أقتل والدتي كفعل أولئك بل أخالفهما فيما عادة منفعته لي ولها.

فأجابه الكبير قائلاً إن أنت أثرت الله وصدقته، وجنحت إليه وأحببته أكثر من والدتك فذاك الأفضل وهو الحال الأكمل، وأنا ما أعيقك ولا أصدك عن حميد قصدك لكنني أحثك إليه وأبعثك عليه لأن الرب صادق بقوله من أحب أباً أو أماً أكثر مني فليس هو بأهل ولا مستحق. وإذا سمع آباؤنا الأساقفة الذين أرسلوا إلينا يسألوننا في هذا الأمر عنك بمثل ذلك ليس أنهم ما يحزنون فقط بل ويسرون ويفرحون بنجاحك وفلاحك. وأنا فقد عملت هذا العمل نفسه بأختي الخصيصة بي، فإذاً الأجدر بنا والموافق لنا أن نختار من المحاسن أجلّها، ومن الفضائل أسناها وإن ود كافة الناس الخصيصون بنا والبعيدون بالنسبة منا، أعني الأهل وغيرهم، مودة واحدة محضة كأعضاء المسيح لا سيما المؤمنين من حيث لا تمييز، ولا نميز والدينا وإخوتنا الخصوصيين بنا في كل شيء، لأن اللحم والدم لا ينفعنا شيئاً.

فقال له تادرس: أيها الأب المكرم فإذا كان هذا هو الكمال وقد باشرته أنت بنفسك وفعلته فكيف تشير عليَّ أنا تلميذك بضده ولم تر لي ما لذاتك أوجبته.

فأجابه الكبير: قد يعرض في كثير من الأمور أمر ليس علينا في عمله خطر وأن نحن لم نعمله اكتسبنا بذلك من الله نعمة،

مثال ذلك ما نحن الآن نعانيه وكلامنا متردد فيه، ها والدتك قد وفدت لتراك شوقاً منها إليك وتلهيفاً عليك، فإن تنازلت ومضيت إليها وسلمت عليها فما قد فعلت خطية لكنك تعدم بذلك صيد الفضيلة وإن أنت قطعت هواك ولا تمضي إليها اقتنصت الجائزة الجليلة، والأمر في الحالين مردود إليك وعائداً عليك. فأجابه الشاب قائلاً: فإذاً افتعال الإنسان أمراً غير ضروري لعدم فاعله الفضيلة وإن كان ليس عمله سيئة؟ أجاب الكبير قائلاً: الأمر على ما ذكرت وآباؤنا الأساقفة تنازلاً سموه وأنا أيضاً.

فأما تادرس، الشاب في سنه، الشيخ في عقله فإنه اغتصب هيمان عزم مهجته وقهر ثوران تركيب طبيعته وأمر على أن لا ينظر والدته. وجزم الأمر وبته في سريرته وثبت على حميد عزمه. فأما أمه فلما عرفت نشاط نيته وأكيد طويته يئست من رؤيته وانغلقت دونها الأبواب وانقطعت الحيل والأسباب وزادت في العويل والانتحاب، فلما نظر كهنة الكنيسة أنه لا يخرج ليجتمع بها وأنها دائماً تبكي، دبروا شغلاً خارج الدير مع الإخوة ليعملوه وأطلعوها عليه في (دوناسة) وقالوا لها هوذا هو مع الإخوة يعمل أنظري إليه فرأته يعمل مع الإخوة ذلك النهار

فتعزت قليلاً ومضت، فأما هو فلم يعلم و لم يرها إلى يوم وفاته، أعني تادرس.

حضور بفنوتيوس أخو تادرس للرهبنة

ولما كان في أحد الأيام جاء بفنوتيوس أخو تادرس الأكبر إلى الدير يريد يترهب، و لم يكن تادرس هناك بل كان قد أُرسل إلى خدمة، وكان أخوه يقول للإخوة إذا لم أجتمع بتادرس لا أترهب. ولما جاء تادرس قالوا له الإخوة هكذا قال أخوك فلم يرد أن يلتقي به فطيب أبونا باخوميوس قلبه لكي يمضي يكلمه فمضى إليه وبعد سلامه عليه قال له إن كنت من أجلي جئت إلى ها هنا فارجع إلى الموضع الذي منه جئت، وإن كنت من أجل الله جئت لكي تستحقه فلماذا لم ترض أن تترهب قبل أن أجيء إليك؟ ولما قال هذا رجع لكي يمضي ويخليه، فمسكه قائلاً كم لي من يوم انتظرتك أن تجيء فلما جئت كلمتني هكذا بكلام جاف. فقال له إن كنت من أجلي تترهب اليوم فإذا تخليت أنا من الرهبنة أنت أيضاً بحق تتخلى، وإن كنت من أجل مخافة الله تصنع ذلك فإن صبرت أنا أو لم أصبر تبقى دائماً.

وبعد هذا لما دخلوا به إلى الإخوة سأل عن قلاية تادرس فلما عرفها دخل جلس فيها، فلما جاء تادرس ونظره قال في

وجهه: الموضع الذي جلست فيه أبقى فيه دائماً وأنا لا أريد أمكث في هذا الموضع لئلا نكون كمثل نسبة الجسديين واتركني عنك مثل جميع الإخوة لأن هذا المترل ليس فيه فرق بل نحن جميعاً عبيد الرب وبنو أبينا، فلما سمع هذا مضى وهو يبكي إلى أبينا باخوميوس قائلاً أرسلني إلى بيتي ما أريد أترهب لأن لما كلمني تادرس الدفعة الأولى عند الباب كلمني بكلام جاف مثل من هو غريب واليوم لما كلمني لم يحتمل قلبي كلامه البتة.

وأن أبانا باخوميوس دعا تادرس وقال له في خلوة لماذا تكلمه بجفاء؟ أما تعلم أنه غرس جديد؟ أو تظن أن كل من يجيء يترهب يأتي بخشية الروح القدس .. لأن قوماً يأتون من أجل خلاص أنفسهم وقوم أخر يأتون من أجل أسباب أخرى، وهؤلاء هكذا يصبر عليهم المؤمنون في كل نوع حتى يعرفوا طريق الله وهكذا يتركون فكرهم الجسداني، لأن كذلك فعل القديسون حتى خلصوا من يشاء الخلاص من جنس البشر. وأنت أيضاً سسه ودبره حتى يعرف المعرفة الحقيقية.

عند ذلك أذعن تادرس لأمرة الأب ورضخ لها وعمل بحسبها.

جهاد تادرس من أجل خلاص أنفس الإخوة

وكان في الدير أخ متوانياً في خلاص نفسه، ولأجل مواصلة الأب الكبير إياه في الردع والتونيب على ونيته وحثه فيما عاد بخلاص نفسه، ثقل عليه ذلك بفعل الشيطان وأشجاه وعول على الانصراف من الدير وأن يعود إلى العالم. ولما عرف تادرس الحال ممن كان ذاك قد باح إليه سره، حزن جداً. وكان هذا تادرس على ما سبقنا حصيفاً لبيباً وعاقلاً أديباً ذا حنكة وتجربة وأنه تصنع للأمر بدهاء ممدوح وجاء إلى عند ذلك الأخ ببشاشة وجاراه الخطاب قائلاً أشاء أن أفشي إليك سراً قد أضمرته وآخذ رأيك فيه، بل أريد منك كتمانه إلى حينه. فأجابه الأخ قل يا أخي ما شئت واسترح إليَّ فأنا مأوى السر وكتمانه. قال له تادرس لعل قد خفي عنك صرامة هذا المعلم الذي لي وثقل أخلاقه وصعوبة مرائه وقد ثقلت على وطأته وكرهت مقاساته وقد ضجرت روحي منه وتقسمت أفكاري، وعلى ما أرى لا أستطيع المقام ها هنا. فأجابه الأخ قائلاً عن صدق وتحقيق تقول هذا وأنه قد لحقك منه ما ذكرت؟ فأجابه تادرس أنا أنا تلميذه بعيني وعياني قد قامت روحي من شراسة أخلاقه ومللت من

مقاساته وما وصفت لك جملة ما عندي منه بل قلت لـــك مـــا قلت على سبيل التلويح بدون تصريح.

قال له الأخ فإذاً هلم إليَّ واستند عليَّ، قال له تادرس مـــا معنى قولك هذا ألعلك أنت أيضاً مكتئب من قوله؟ قال له الأخ لا كآبة واحدة بل كآبات وحسرات وأن عندي منه أضعاف ما عندك وقد أوعب قلبي بتوبيخاته وتفنيداته التي في غير موضعها أسهم نارية لن يطفيها ماء البحار حتى أني من كثرة أحزان قلبي التي تحتوي على قد عولت على أن أخلي الدير وأعود إلى العالم وأتساوى بأهله، إن خلصوا خلصت وإن هلكوا هلكت.

قال له تادرس: بالحقيقة أقول لك أنه بسياسة من الله جئت إليك ووجدتك مساهمي في الأحزان ومرت لي عزاء وسلوة وأنا لك مثل ذلك فليكن انصرافنا الآن معاً. فقد رأيت رأياً قد خطر بقلبي وأقول أنه موافق لنا أن لا ننصرف سراً بل علانية جهـــراً على هذه الصفة، أن نمضي إليه دفعة واحدة ونكشف له أحزاننا الصائرة منه إلينا ونعرفه بتقسيم أفكارنا وما قد عولنا عليه مـــن انصرافنا الذي هو سببه وعلته ونقول له يكون الله حاكماً بيننـــا وبينك وأكون أنا المتكلم دونك لأني أعرف حياءك وتوقفـــك وأنا قد ألفت خطابه وتجاسرت عليه بما أن مقامي منذ قـــدمت

إلى الدير عنده فإن هو تلطف بنا وأحسن العشرة معنا ورأينا من أقواله ما يوافقنا ويصلح شأننا استغفرنا بعضنا من بعض وأقمنا بديرنا الذي فيه ترهبنا وقصصنا شعرنا، وإن هو أصر على شراسته ونفر في وجوهنا قلنا له ديرك لك والدنيا لنا وننصرف حينئذ علانية بعد أن يكون الله وملائكته وإخوتنا قد عرفوا عذرنا، وما يعتب أحد علينا.

فلما سمع الأخ من تادرس هذه الأقوال آنسْ إليه وعول في أموره عليه وقويت منته وتأكدت عزيمته وقال له حسناً رأيت ومستقيماً رويت فليكن العمل بحسبه، ومتى رأيت وقت خلوة تعال خذني لنمضي إليه.

وانفصل تادرس من عنده ومضى إلى قلاية معلمه وإلى قديم خدمته، ولما خلى مع الأب أعاد به الحال على جهته وتحليته من بدايته إلى نهايته وأنهما معولان على تكملته، فقال له الأب: حسناً فعلت أيها الولد ونعما عملت إذ تهتم بأنفس إخوتك وتلم شعثهم (شملهم) بحنكتك، والآن متى شئت جيء به إلى عندي واشرع في ملامتي وأنا أقنعكما بما يمن الله به عليَّ.

ولما كان فيما بعد مضى تادرس إلى عند الأخ بخلو الوقت وأخذه وجاء به إلى عند الأب، فلما دخلا إليه استفتح تادرس

بالكلام وصار يشكو حزنه وحزن الأخ مع الأب، وكان تارة يعتبه ومرة يفنده ومرة يؤنبه ولم يترك شيئاً مما كانا أضمراه أن يقولاه إلا وعدده، فأجاب الكبير قائلاً أخطأت اغفرا لي، أسأت اصفحا عني، وقد يجب عليكما احتمالي كولدي أنا أباكما بالرب ومن الآن وفيما بعد لا أعود إلى أمر منكر.

فعاد تادرس في تفنيد الكبير وأكثر وزاد حتى أن الأخ أشار إليه وأومئ نحوه بأن يمسك ويكف، ثم قال له سراً حسبك يا أخي فقد اصطلحت في الحال وأنا فقد تعزيت جداً وأخذت سلوة كبرى عند ذلك سجدا له وهو لهما واستغفروا بعضهم من بعض وعلى هذه الصفة التي صارت بتصنع ودهاء ممدوح نفع تادرس الأخ وخزي الشيطان الذي كان يوسوس له في أفكاره وابتعد عنه.

إفراز تادرس وحسن تدبيره

أما الأب الكبير فلما رأى من تادرس حنكته وحصافته وحسن معرفته وأنه طائع للحق وراضخ للواجب، ازداد شغفه به وعظمته عنده وجعله مؤازره في سياسة أمور الإخوة.

وفي أحد الأيام جاء إلى عند الأب واحد من الإخوة الذين أفكارهم بعد منصبة في العالم وما قد خلعوا عنهم الإنسان العتيق يستأذنه ويأخذ منه صلاة ليمضي يفتقد أهله، وكان الكبير

يتنازل مع ضعفهم ويسوس أحوالهم بإفراز محمود ليريحهم، فأذن له بعد أن أمر لتادرس بحضرته أن يمضي معه يوانسه، ثم تأكد بالوصية مع تادرس سراً عن الأخ كيف يلاحظه ويثقفه ولا يمكنه من الانخداع والمرح والضحك والمزاح وما ضاهي ذلك.

ولما دخلا إلى المترل وحان أوان الطعام قدم أهل المترل المائدة على العادة وتادرس فما كان له رسم يفطر إلا عند المساء ولا كان مطلقاً للرهبان أن يأكلوا مع أهل العالم لا خارج الدير ولا داخله، فأما الأخ الزائر فأراد أن يأكل وأشار إلى تادرس أن يأكل معه فما أراد، فقال الأخ الزائر أقول لك حقاً إن لم تأكل معي فلا أعود معك إلى الإخوة. فروى تادرس في نفسه قائلاً هذا الأخ مبتدئ في السيرة ولا له عادة أن يصوم إلى المساء وإن لم آكل معه ربما زرع فيه إبليس عدونا الخجل والحياء من الإخوة إذ لم يحفظ القانون وما يعود إلى الدير، فالأفضل أن آكل معه لكي أربحه ولو لحقني في ذلك بعض الضرر والله تقدس ذكره قد عرف القصد ونحوه تكون المقابلة، وبهذا الإفراز الحسن أكل معه باقتصار كثير وكان يحس في داخله كأنه يذبح من فطنته، ومن بعد عودتهما اعترف للأب فعذره لعلمه أن الأمر صار بغير اختياره وبضد إيثاره.

تادرس يعزي الإخوة

وكان تادرس ينمو كل يوم ويتقدم إلى قدام في كل شـــيء وينمو نمواً صالحاً وكان يسير بقوة وعبادات كثيرة بخوف الرب والتعاليم التي يسمعها من أبينا بـــاخوميوس ويمـــشي كـــشبهه وصورته، فلما علم الإخوة أنه ينمو كل يوم مثل صموئيل وأن له نعمة عندهم كلهم جعلوا يغيرون على شبهه وكـــان أبونـــا باخوميوس ينشطهم ليمضوا إليه وينالوا منه تسلية وتعزية وقوة في جميع غمومهم المختلفة وتجاربهم، وكثيرون من الإخوة كـــان يصلي معهم حتى يريحهم الرب.

سيرة تادرس مع الراهب أرشيلاوس

وفيما هو – تادرس – يتكلم في بعض الأوقات مع أبينـــا باخوميوس ويسأله عن كلام الكتب المقدسة جاز بهمـــا أحـــد الإخوة اسمه أرشيلاوس وكان ناســـكاً جـــداً، فقـــال أبونـــا باخوميوس ألا تعجب من هذا الأخ أنه يتعبد منذ سنين كـــثيرة والشياطين يطغونه، وأنه يمضي دفوعاً كثيرة إلى مواضـــع أهلـــه بالجسد يسأل عنهم.

فلما سمع تادرس هذا الكلام، ولا ســـيما أنـــه رأى أبانـــا باخوميوس حزيناً على ذلك، دخل إلى كنيسته وصلى قائلاً يـــا

ربي هذا الأخ العظيم القديم لست أنا بمستحقه من أجل عظم الأتعاب الكثيرة التي صنع، أعطه السبيل لكي من جهتي أنا الحقير يتطهر من هذا الأمر لكي أنا أيضاً بهذا النوع أجد رحمة بين يديك.

ومن بعد فروغه من الصلاة وجد فرصة فقصد ذلك الأخ وصارا يتفاوضان من الكتب المقدسة فقال له تادرس كيف تتصور وتفهم هذا الفصل من الإنجيل المقدس القائل " من جاء إليّ ولا يمقت أباه وأمه ويكفر بذاته ويهلك نفسه ويحمل صليبه ... ويتلو ذلك فليس هو لي بأهل " فأجابه أرشيلاوس قائلاً: إن الإله العارف بضعف البشر وميلهم إلى العالم وأموره، فلهذا من الشأن غالى في الوصية وشد منها وسام زائداً لكي بهذه المغالاة لعل يبلغ منها يسيراً، وإلا فكيف يمقت الإنسان والديه ويشناهم ويكفر بنفسه ويهلكها، هذا خارج الحد وفوق قوة الإنسان هو.

فلما سمع منه تادرس هذا الجواب الفظيع والتحريف الشنيع أنكره، وأجاب على سبيل التداهي والتصنع قائلاً أهذا هو إيمانكم واعتقادكم يا سكان طبانسين، الإنجيل المقدس يأمر بشيء وأنت تحرفه وتتفوه بغيره وتفسره نحو مشيئتك وهواك .. وأنا من قبل أن أجيء إلى هذا الموضع على قدر صغري وضعفي

كنت أجاهد فيما يظهر لي أنه إرادة الله، ولما سمعت أنكم تسيرون بالكمال مثل وصية الإنجيل جئت أنا أيضاً إلى هذا الموضع والآن فلا أقيم بعد لكني أعود إلى الدير الذي التجأت إليه أولاً لأن الآباء المقيمين فيه ما جحدوا حرفاً واحداً من حروف الإنجيل.

وعلى هذا الحال انفصل عن الأخ كأنه منتقل من الدير وعائداً إلى ديره الأول.

وكان الأب قد افترض على إخوة الدير متى ما تقاول أخان وتضادا في أمر ما يطلعانه بذلك دون غيرهما في ذلك اليوم نفسه، فسبق تادرس وأعلم الأب بما كان ومضى واختفى، وفي أثناء ذلك جاء أرشيلاوس إلى عند الأب وعرفه بالأمر على جهته من أوله إلى آخره، وأن تادرس يريد ينتقل من الدير لأنه تشكك وسأله أن يطيب قلبه.

فقال أنبا باخوميوس للأخ هذا غرس جديد وما كان يجب أن تكلمه هكذا ولكن أسرع وجد في طلبه وطيب نفسه بما تجد إليه السبيل هذا إن لم يكن قد مر، واعلم أيضاً أنه إن خرج هذا من الدير ما تحسن السمعة عنا، فبادر بجد وحرص لعل تلحقه، وكان بيان من الأب تأسف على انتقاله.

ولما مضى إليه وجده يبكي وقد جمع مصحفات كانت لـــه وهو يتظاهر بالانتقال، فأخذه إلى الأب، فقال له الأب إنما تكلم معك هذا الأخ أراد أن يلطف بك ويمشي الحال معك مثل غرس جديد وإلا فليس هذا إيمانه. أجاب تادرس قائلاً إن لم يعتـــرف هو بفمه أمام الرب والإخوة أنه مطابق لكلام الإنجيل وأنه يمقت الإنسان أهله وأقاربه وأن الذي يمضي لافتقاد أهله يخطيء فـــلا أصدق ولا يطيب قلبي، فأجاب الأخ إلى ذلك واعتـــرف بـــه وأقنعه قدام الله والإخوة، وهكذا اصطلحا بسبب هـــذا العهـــد الذي فعل انقطع عن زيارة أهله بالكمال إلى حين وفاته.

التدابير الرهبانية للأنبا باخوميوس

في أحد الأيام سمع تادرس أبانا باخوميوس وهو يعلم الإخوة قائلاً إذا اقتنى الإنسان لنفسه العلم الحقيقي لا يخطئ أبداً لا إلى الله ولا إلى رفيقه، فلما سمع هذا الكلام توجع قلبه وصلى إلى الله قائلاً: أيها الرب الذي إليه هربت هب لي علماً حقيقيـــاً كمـــا وهبته لجميع قديسيك لكي أعمل ما يرضيك أمامـــه. وأبونـــا باخوميوس لما علم أن تادرس يبكي دفوعاً كثيرة من أجل هـــذا الأمر فكان يقول له إذا التقى به اجتهد يا ابني لكي تقتني لـــك المعرفة الحقيقية، ومن بعد هذا دعاه في الليل والقمر يـــضيء ثم

قال له ارفع عينيك إلى فوق لترى هذا المضيء كيف يضيء على الأرض كلها وهو مخلوق من بعض خليقة الرب، فالذي خلق هذا والشمس وجميع الخلائق وهو غير منظور فترى كيف ضياؤه ومجده فخف الآن منه جميع أيام حياتك عالماً أنه هو الذي خلقنا نحن وجميع الخلائق الأخر ونحن في يديه أجمعين، فإذاً أنت خفته وتؤمل أنه ينظر إليك دائماً فاحتفظ أن لا تخطئ إليه، وهكذا اعلم أن المعونة الحقيقية تصير إليك من قبله وتسبحه كل حين جميع أيامك وفيما هو يقول هذا بكى الاثنان وصليا ومضيا.

من أجل الصوم

ولما كانت أيام (البصخة) تقدم إليه تادرس قائلاً يا أبي حين كنت علمانياً كنت أصوم يومين يومين، والآن ماذا ينبغي وقد أدخلني الرب إلى هذا الكمال أصوم إلى رابع البصخة ثم أعمل اليومين الأخيرين؟

قال له الأب يا تادرس في جميع زمانك لا تخرج عن قوانين آبائنا كما سلموا إلينا في جميع وصاياهم أن نصوم يومين يومين وأن نسهر في الصلاة ونعمل عمل أيدينا في النهار من أجل وصية الرب حتى نكون في عذاب الجسد أكثر من الذين يصومون الأربعة أيام أو البصخة كلها، وهؤلاء لا يستطيعون أن

يدوموا في الصلاة وأن يعملوا لكي يكملوا الوصيتين، حب الله وحب الرفيق لأن ما المنفعة التي ينتفع بها أولئك الذين يصنعون هذا .. بل يجب على التقي أن يجرب أولاً كل عمل قبل أن يبتدئ به إن كان فيه منفعة.

ثم إننا نسمع عن الذين يفعلون هكذا أنهم يتعبون أناساً آخرين في خدمتهم وينفروهم بضجرهم عليهم من أجل ضعفهم من كثرة الصوم، ثم من بعد البصخة أيضاً يهتمون لأنفسهم بأطعمة كثيرة حتى يقووا.

وإذا قال واحد أنه قوي في جسده وأنه يصوم البصخة كلها ويداوم الصلوات ويحفظ نفسه من المجد الباطل أن لا يقبله ومن بعد الفطر يحفظ نفسه أيضاً أن لا يهتم بأكل ولا بشرب، نقول وإن كان هذا قوياً يفعل هكذا، بل إذا رآه واحد ضعيف وتشبه به في هذا الفعل فهو يتعب كثيراً ويمنع قوماً آخرين كثيرين من مداومة الصلوات ومن شغل اليد الذي يتفرغون له.

وأما النساك الكملاء فليس الستة أيام فقط كائنة لهم عذاباً، بل جميع عمرهم كائن لهم بصخة إلى يوم افتقادهم. وجسد الرب الطاهر يأخذونه كل حين في الأيام المحدودة، لأن طهارتنا وحياتنا كائنة به.

ولما سمع تادرس هذا قبله مثل من هو من الروح القدس.

توبيخ تادرس بسبب كلمة (لا)

ولما كان في بعض الأيام والإخوة يأكلون، رسم الأقنوم لتادرس أن يخدمهم، وكانت الخمسين وأعطى لهم جبناً ليأكلوا، ومن بعد فروغهم من طعامهم أعطى له جبناً لكي يأكل فلم يشاء أن يأخذه ولما كلفوه قال (لا).

فقال له أبونا باخوميوس: ما هي هذه الكلمة التي قلتها يا تادرس (لا)، أعطيت للشيطان فيك موضع معصية، وإن كنت لا تريد أن تأخذ تقول لا أريد الآن أن آخذه، واستعمل منه يسيراً ثم ضعه ولا تترك هذه الكلمة عادة أن تقول (لا). لأنها ليست ثمرة مستقيمة.

فلما سمع هذا تألم جداً ولم يعد يصنع هكذا، وهكذا كان يبني تادرس جميع الإخوة بخوف الرب وبكل ضمير صالح في العمل المختار.

من أجل الطاعة

وأبونا باخوميوس كان له كساء خيطه في بعضه بعضاً مثل المزرة، وكان يلبسه عشية كل يوم من أجل الشتاء والبرد، ولكونه أيضاً لا يضع عليه غطاء، وكان إذا جاء إليه كاهن أو

إخوة يخرج يتلقاهم وهو عليه، فلما نظر ذلك أحد الإخوة الأتقيا ممن كان يعمل في السفينة اسمه أنبا (تناسيه) وكان قديماً في الإخوة أن أبانا باخوميوس يتلقى الإخوة الآتين إليه وهو لابس هذا اللباس، تقدم إلى تادرس وقال له ليس هو حسناً أن يتلقى أبونا الإخوة الآتين إليه وهو لابس هذا اللباس الحقير فأعطه لي لكي أمضي به إلى المجمع لكيلا يجده إذا طلبه، أنا أعطيه آخر بدله. فلما سمع تادرس هذا أعجبه القول فأعطاه له وأخذ ثوباً آخر وضعه موضع ذاك، ولما كان المساء طلب الثوب فلم يجده فقال لتادرس أين ثوبي يا تادرس؟ قال له تادرس خذ لك الموضوع مكانه. قال له يا ساذج أعطني ثوبي فأجاب تادرس خذ لك الموضوع مكانه، ولما سأله لثالث دفعة وجعه قلبه وندم على ما فعل ولا سيما أنه علم حاجته إليه لأنه كان شتاء حتى أنه من وجع قلبه جرت دموعه على خديه وقال لا تجده في هذا الوقت.

وبعد ذلك أقام أبونا باخوميوس سبع سنين يذكر هذا الأمر قدام الرب في كل وقت وهو يصلي قائلاً اغفر لي يارب المخالفة التي صنعت لأنه كان يجب أن أطيعه وآخذ الثوب ولا سيما أنه

المرسوم لهذه الخدمة فكان يجب على أن أطيعه، لأني أعلم الإخوة الطاعة وأن لا يرادوا وصرت أنا عاصياً.

تصرفات القديس باخوميوس الحسنة وقدوته للإخوة

ولما مرض أبونا باخوميوس دفعة أخذه تادرس إلى الموضع الذي يأكل فيه الإخوة المرضى لكي يطعمه هناك، والأخ الخادم طبخ له قليل سليق جيد فلما ذاقه علم أنه طبيخ طيب فقال له ما تعرفون تطبخون الطعام جيئوا لي بقليل ماء فلما جاءوا به له سكب منه في صحن الطعام حتى ملأه ماء. وبعد الأكل سكب تادرس على يديه الماء لكي يغسلهما وفيما هو يغسلهما رش الماء من يده على رجليه مثل من يغسلهما، ولما فرغ قال له تادرس ما هذا الفعل الذي فعلت سكبت الماء على الطعام حتى فسد، قال له في جميع زمانك كل شيء تصنعه احفظ نفسك من المجرب لكيلا يخسرك لأن الأخ الذي أعد لي الأكل أعد لي جيداً بنشاط، والنشاط لا يكون دائماً مع الإنسان فقلت لئلا آكل طيباً هذه الدفعة ويأتي غداً وأنا مريض فانتظر أيضاً أن يعد لي جيداً وبهذا السبب يضطرب قلبي من أجل هذا أفسدت ما أعده لي جيداً حتى أنه إذا أتى غداً ولا يعد هكذا لا يهمني، لأننا لسنا نجهل أن الرجل المؤمن يجربه المجرب.

وسأله تادرس أيضاً فلماذا وقت أن غسلت يديك سكبت الماء على رجليَّ كأنك تغسلهما قال له رأيت أن أفعل هذا لكيلا تتشامخ نفسي وحتى لا تدينني حسبتي أنك خدمتني إذ كانت خدمة الكل لازمة عليَّ حسب رأي القائل لم آت لأُخدَم بل لأخدِّم وبهذا أصير مثالاً نافعاً.

وفي ما هو ماض دفعة مع الإخوة في شغل وكانت الحاجة أن يحمل كل واحد حملة خبز، قال له أحد الإخوة لا تحمل أنت يا أبانا شيئاً هوذا قد حملت كفافي وكفافك. أجابه لا يكن هكذا إن كان هو مكتوباً من أجل الرب أنه قد يجب عليه أن يتشبه بإخوته في كل شيء، فأنا الحقير أخلي إخوتي يحملون شيئاً عني أو يعملون عملاً لا أعمل مثلهم. من أجل هذا أن الأديرة الأخر كائنون بانحلال لكون صغارهم يتعبدون لكبارهم، وليس هذا واجباً أن يعمل هكذا لأنه مكتوب من يريد أن يكون كبيراً فيكم فليكن لكم عبداً ومن يريد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم خادماً. كما أن ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليَخدِّم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين والرسول يقول يداي هاتان خدمتا حاجاتي وحاجات الذين معي.

إرشادات روحية وتعاليم لتادرس

ولما كان في أحد الأيام تقدم إليه تادرس وهو يبكي بكـــاءً عظيماً فقال له ما بالك تبكي؟ فقال له أريد أن تعرفني إن كنت أرى الله أم لا، فإن كنت لا أستأهل أن أنظر خالقي فما منفعتي في ولادتي في هذا العالم. قال له تريد أن تراه ها هنا أو هنـــاك. قال هناك فقال له بالحقيقة إن أردت أن تـــراه فاصـــنع جميـــع اجتهادك في جميع الأوامر المكتوبة في الإنجيل إذ يقـــول طـــوبى للنقي القلوب فإنهم يعاينون الله، فإذا طلع على قلبك ضمير نجس أو بغضة أو زنا أو غيره بمحقرة لأخيك أو مجد فارغ فكـــر في تلك الساعة قائلاً إذا طيبت قلبي مع واحد من هذه الأفكـــار لا أرى الله.

وإن كنت تشاء أن تخفف عنك كل الأفكـــار ولا تقـــوى عليك فهذ في قلبك بغير فتور في كل حين بثمرة صالحة مكتوبة في الكتب وأنت توثق قلبك وتتيقن بكل ثقتك أن تحـــرص أن تسير فيها كنحو قوتك وهكذا تنقص منك قليلاً قليلاً الأفكـــار الردية وتضعف كمثل العنكبوت.

أول كل شيء يجب على الرجل المتقدم للمسير في مرضـــاة الله أن يطهر نيته في الأمر الذي يظن به جيداً أو ردياً، لأن النية

تركها الرب في جميع الناس والمشيئة المخيرة والإفــراز والحــس والمعرفة. لأن النية تنخس الرجل من أجل الشر وتقول له أن هذا الذي فعلته رديء وأن الذين عرفوا ناموس الله إذا هم أخطـــأوا المعرفة تشهد لهم لأجل مخالفة الوصية، فإذا خــالف الإنــسان الوصايا المكتوبة ولم يطع نيته التي تنخسه في الأعمال وتوقظــه فهو يتلف نيته وحده ويحرقها حتى أنها لا تبكته دفعة أخــرى. وإذا حفظ الإنسان نيته طاهرة يحل فيه الروح القدس كمثل إناء تكسيه ذهباً فيصير بهياً كذلك الروح القدس إذا حل في الإنسان يجعل جميع أعضاء النفس تصير بهية وترفع ضميره، والــذين لا يقتنون لهم روح الله فتلك الأعضاء هي موجودة في القلب أعني النية والمعرفة ولكن لم تطهر بهذا الفعل.

ولما سمع تادرس هذا تعجب واستعجل بفــرح أن يــسلك بطهارة قلب كي يكمل له الرب شهوته أن يراه في الدهر الآتي.

رؤيا ونبوة لتادرس

وفي تلك السنة أيضاً، وهي أول سنة لــه منــذ جــاء إلى الإخوة، كان في قلايته جالساً يفتل حبالاً في الليل وهو يتلو في ما يعرف من الكتب، وفي كل ليلة ينخسه فكره فيقوم يــصلي وبعد ذلك تطلع فرأى قلايته قد أضاءت، وإذا ملاكان في شــبه

إنسانين وهما مضيئان فلما أبصرهما الصبي خاف لأنه لم يكن ظهر له بعد شيء من الإعلان من قبل الرب، فخرج للوقت ووقع على السطح، فخرج الرجلان إلى السطح ونزعا عنه الخوف ثم دعاه الكبير منهما قائلاً امدد يدك فمدها كما يفعل في وقت أخذ الأسرار، فدفعا في يديه مفاتيح كثيرة فمسكها بيديه الاثنتين ثم لم ير الرجلين بعد، وهذا الإعلان الذي رآه لم يقله لأبينا باخوميوس لحشمته قائلاً من أنا حتى أجعل نفسي مساوياً بأبي رجل الله وأنا خاطئ.

الأنبا باخوميوس يعمل على خلاص أنفس الجميع

وكان في صقع طبانسين قرية خربة تجتمع فيها بهائم البلدة ورعاتها، وكان في الرعاة مسيحيون وغير مؤمنين لا يبارحون ذلك الموضع لأجل طيب المرعى وخصبه وكثرة المياه، فبنى الأب باخوميوس في هذه الخربة كنيسة برأي الأب سرابيون أسقف دندرة كي يجتمع فيها النصارى للصلاة في أيام السبوت والآحاد وأيام المواسم والأعياد ويسمعوا أقوال الله ويمجدوه ولا يبقوا كالبهائم، وصار الأب يزورهم في أيام الاجتماع ويقرأ عليهم أقوال الله ويفهمهم إياها ويعظهم وينبه عقولهم ويرشدهم إلى خلاص أنفسهم وينفق في حاجاتهم وحوائج الضيوف الذين

يطرقونهم، وكانت قراءته عليهم بورع كثير وتحرز غزير حافظاً عقله وحواسه الظاهرة والباطنة حفظاً محكماً حتى أن من نظرتهم إلى هيئته ومشاهدتهم وداعته كانوا يتخيلون ملاك الله قائمـــاً في وسطهم ويزداد نشاطهم وحرصهم في خلاص أنفسهم، وكان الغير مؤمنين يشتاقون أن يصيروا مسيحيين وآمن منهم كثيرون ولم يزل هذا دأبه إلى أن رتب في الموضع قساً مباركاً نائباً عنه في التعليم ورسم له من عنده حاجته الكافية.

هكذا كان هذا الكبير رؤوفاً في الغاية مهتماً بخلاص الأنفس اهتماماً زائداً ومتى كان يرى أناساً لا يعرفون الله خالقهم بحزن ويكتئب جداً وينتحب ويبكي ويطلب إلى الله فيهم وكانت كل شهوته مصروفة إلى خلاص الكل قاطبة إن أمكن ذلك.

سيرته مع البابا أثناسيوس الرسولي

وكان وقتئذ الأب الفاضل أثناسيوس رئيس أساقفة مدينـــة الإسكندرية أول ما تقلد الكرسي ولما أزمع على المضي إلى بلاد الصعيد الأعلى وإلى بلد (سينس) أصوان ليفتقد البيع التي هناك ويوطدها ويحكم أمرها، وكانت طريقه على طبانسين ولما وصل إلى هناك خرج أبونا باخوميوس مع جماعة الإخوة في خلق كثير وجمع غفير واستقبله قبولاً حسناً بالصلوات الكثيرة والتـــسابيح

الغزيرة والأضواء المنيرة وبكل هشاشة وبشاشة وفرح للكافة بحضور رئيس الأساقفة وراعيهم، وكان أنبا سرابيون أسقف (دنتيرون) دندرة المقدم ذكره قد تقدم وعرف لرئيس الأساقفة بأن في بلدته المختصة بكرسيه رجلاً فاضلاً مباركاً لله وعابداً وطلب منه أن يباركه قسيساً ويرسمه متقدماً على سائر الأديرة والرهبان الذين في ذلك الصقع وجميع حدوده.

هروب القديس باخوميوس من الكهنوت والرئاسة

ولما تحقق الأب باخوميوس هذا الخبر اختفى من رئيس الأساقفة في كثرة الجمع، فلما جلس الأسقف والجمع العظيم الذي معه قال الأنبا سرابيون بالحقيقة الرجل الذي قلت لي عنه هو أنبا باخوميوس قد سمعت خبر إيمانه وأنا في الصعيد من قبل أن يضعوا على اليد ومن بعد ذلك قام وصلى وقال لأولاده سلموا على أبيكم وقولوا له أنك وإن اختفيت مني وهربت من الأشياء التي بسببها تكون الغيرة والحزن والحسد واخترت لك العلو الفاضل الدائم إلى الأبد مع المسيح، فربنا يعطيك مثل قلبك. وإن كنت قد هربت من العظمة الفارغة الوقتية الفانية والآن ليس أنت فقط لا تشاء أن يكون لك هذا الأمر، بل وأنا أيضاً أمدد يدي إلى العالي الأبدي أني لا أغصب رئاستك ولا

أكلفك على هذا الأمر، بل بمشيئة الله إذا عدت فأكون مستحقاً أن أرى محبتك للإله.

ثم خرج من عندهم ومضى إلى الصعيد ومعه أساقفة كثيرون وجموع لا تحصى، ومن بعد ذهابه خرج أبونا باخوميوس من الموضع الذي كان مختفياً فيه، وفي حال رجوعه في المركب وكان في زهرة النيل أتى إليه أبونا باخوميوس لأخذ بركته لعلمه أنه ولي الله وخادمه ولا سيما لما كان اتصل به عند الاصطبار على صنوف الاضطهادات وما قاساه من التجارب التي كابدها لأجل نصرة الإنجيل وقويم الإيمان.

حال الرهبنة الباخومية ورؤيا للقديس باخوميوس

طلب الأنبا باخوميوس إلى الله أن يعرفه حال الأديرة بعده. عند ذلك أشرق عليه بغتة ضوء ساطع وسمع صوتاً قائلاً له: أن الجيل الذي تخلفه بعدك سيحيا حياة حميدة ولله مرضية كما هم الآن، وأوضح له اتساع الأديرة بعده وكبرها وزيادة عمارتها، ثم عولج بروحه وعاين بصفا عقله كثرة كثيرة من الرهبان لا يحصى عددها ملتئمين في قعر وادي وعر المسلك وعميق جداً ومظلم ظلاماً دامساً يسعون فيه ليبسه ووعارته ويصادمون بعضهم بعضاً وجهاً لوجه إذ لا يبصر الواحد صاحبه من سواد الظلام

وكان فيهم من يروم الصعود والارتقاء من تلك الوهدة التي لا يجد قعرها ولا يتكيف وعرها ويحتالون في تلك الحيل ويجاهدون إلى حد الكلل ويعانون أتعاباً كثيرة ويقاسون أوصاباً ليست بيسيرة، فمنهم من كان يطلع إلى نصف العمق ثم ينهوي ساقطاً، ومنهم من كان يبلغ إلى شفر الوادي ثم يتدحرج واقعاً، وعلى هذه الحال كانوا يصعدون بالجهد الجهيد والتعب الشديد، فواحد يطلع أكثر وآخر يصعد أقل والكل يعودون ويسقطون ويحصلون في القعر أيضاً، فمنهم من كان يلحقه الضعف والخوار ومنهم من كان يعتريه اللمم والدوار وأقوام منهم كان يبدون أصواتاً أهلاً للرثاء والرحمة، وكان منهم أناس قليلون بعد التعب الشديد والشقاء يبلغون بالكاد إلى رأس الوادي ويحصلون في الفضاء بحيث النور ويقدمون لله المجد الوافر والحمد المتكاثر.

ولما عاد باخوميوس إلى ذاته، عرف بالروح الساكن فيه تأويل ما نظر، وعلم بما ستؤول إليه أحوال الإخوة على ممر الزمان وفي آخر الأوان من الفتور والرخاوة والبلاد ومن كثرة عمى البصيرة والغفلة والونية في خلاص أنفسهم وإهمال ما عاد بمصالح شأنهم وهذا الحادث الفظيع والحال الشنيع منه ما بتولد فيهم من ونيتهم وسوء تدبيرهم ومنه من فقد سايسيهم وعدمهم

رعاهم ومن يهتم بأموره ويلاحظ أسبابهم ويرشدهم إلى السبيل المستقيم وذلك أن المرتكبين وقتئذ افتعال الرذائل الهاملين السعي وراء الفضائل الذين أعراضهم مداساة هم الذين ينافسون على أخذ الرئاسة وإذ يماحكون ينالون مرادهم بمؤازرة الشيطان إياهم ولعدم استحقاق الشعب أن يرؤس عليهم إنسان من صلحائهم وأخيارهم، فإذا نالوا الرئاسة على هذه الصفة الذميمة والحال المنكرة فأي منفعة ترجى منهم وأي علم يستفاد عنهم فالمحصول منهم على مثال فارغ لا يؤدي إلى فعل حميد ولا يهدي إلى أمر رشيد. ثم أنهم يتمردون على ذوي العلم والمعرفة ويحرصون على أن ينقلوا المخاطبين إياهم بالوصايا الإلهية والساعين في السيرة الروحية إلى السيرة البشرية وفي أيام هؤلاء الآخذين للرئاسات والسياسات عنوة وتمرداً وقسراً وغصباً يضطهدون الأخيار ولا يبقى للصلحاء دالة ولا وجاهة.

ولما تحقق الطوباوي هذه الأمور هتف إلى الله بندب وعويل قائلاً: أيها الرب الضابط الكل إذا كان هذا عتيد أن يكون وإليه تنتهي الأمور في أواخر الدهور فلما تسامحت أن تصير هذه الأديرة والكنونيات ثم يترأس عليها من هم بهذه النعوت والصفات أناس أشرار ومن الخير أصفار، أما قد ذكرت في

كتابك المقدس إذا قاد ضرير لضرير حصل كلاهما في بئر؟ لقد ضاع تعبي باطلاً وصار نصيبي عاطلاً وذهب حرصي ضائعاً واجتهادي مجاناً. أذكر يارب غروسك وكافة الإخوة الذين مسكنوا أنفسهم من كلية قلوبهم من أجل اسمك، أذكر يارب عهدك لي أن زرعي الروحاني لن يفنى إلى انقضاء الدهر، أنت أيها السيد تعلم أنني منذ لبست زي الرهبانية ما تملأت من شيء فوق الأرض حتى ولا من الماء.

ومع تكلمه بهذه الأشياء ورد إليه صوت قائلاً يا باخوميوس لا تنس أنك بشر فالتمس لما قلت صفحاً وإقالة لأن جميع الأشياء وسائر المبروءات برحمتي واقفة وبرأفاتي هي مستمسكة فلا يداخلنك التيه والكبرياء.

حينئذ خر على الأرض ساجداً وطلب من الله رحمة قائلاً: أيها الإله القدوس يا ماسك كل أحد أرسل رحمتك من علو عرشك على دائماً ولا تنزعها عني أبداً وأنني موقن جيداً أن خلواً من رحمتك لن يثبت شيء من المخلوقات.

وحين انتهى من صلاته وطلبته وقف به ملاكان من ملائكة الله ومعهما شاب لا يمكن لسان بشر وصف جمال صورته ولا يستطيع أن ينعت بهاء هيئته وصباحة وجهه ونضارته، وعلى

رأسه إكليل من شوك، عند ذلك أنهض الملاكان باخوميوس من سطح الأرض الذي كان خاراً عليها وقالا له إذ كنت قد طلبت من الله إرسال رحمته إليك فها رحمته نفسها، ها ابنه الوحيد الجنس المسيح رب المجد الذي أرسله إلى العالم فادياً ومخلصاً فصلبتموه أنتم معشر البشر ووضعتم على رأسه إكليلاً شوكياً كما ترى الآن عياناً.

فنظر باخوميوس إلى الشاب وقال أنا ما صلبتك أيها السيد وأنني لشديد السؤال والابتهال إلى نقاء جوهر طبيعتك ملتمساً من جودك وكرمك الرحمة، فقال له قد علمت أنك أنت ما صلبتني بل آباؤك وأسلافك. الآن ثق وتشجع ولتقو منتك أن زرعك الروحاني يدوم إلى الدهور ولا يعوز ولا يفنى وذلك أن الموجودين الآن تحت ظللك المعروفين بك قد اقتنوك مصباحاً أمام أعينهم وقد اقتبسوا من نورك واستناروا بفضائلك فحسنت سيرهم وهذبت أخلاقهم، والذين يأتون بعدهم لعلهم يقتدون بهم. فأما في أواخر الزمان فتعوز الفضيلة وتقل، وتكثر الرذيلة وتزيد لأجل القحط الصائر في ذلك الأوان من عوز المياه الروحية وييس الينابيع الإلهية لا اقتصاراً ولا بحكم الجبر والاضطرار بل حدوث ذلك مردود إلى الإرادة، وذلك أن

الأكثرين يستحوذ على جوهر عقلهم ظلام فشلهم وقتام ونيتهم ويجنحون إلى الأمور العالمية وينصبون وراء الشهوات اللحمية وينافسون على اللذات الدنياوية والمخلصون إذاً وقتئذ فهم قليلون جداً إذ يصيرون هم لأنفسهم مرشدين ومعلمين وهادين وبحماسة أنفسهم يشجعون ذواهم على عمل الصلاح واجتناب الطلاح وبصلاح أفكارهم الناجم منهم وبهم يفدون إلى الحقائق، ولئن كان نسك هؤلاء الأواخر وجهادهم بالإضافة إلى جهاد الأوائل وشقاؤهم قليلاً حقيراً لكنهم سيأخذون عن قليل أتعابهم، لا يأخذون الذين فاق في القديم نسكهم وذلك بقسط من العدل إذ كان زمانهم زمان يبس وقشب وقحط وجاهدوا في أوان الموانع والقواطع. عند ذلك رقي الإله إلى السماء.

فأما الكبير باخوميوس فلكثرة إعجابه من المقولات ولحسن المنظر الذي ظهر له، امتلأت نفسه بهجة وسروراً كمثل من شحم ودسم وأقام أياماً بكثرة لا يستعمل طعاماً، ولما دق ناقوس صلاة سحر تلك الليلة واجتمع الإخوة في الكنيسة لم يأت هو معهم بل ثبت بحيث كان مصلياً إلى الصباح، حينئذ وفد إلى الكنيسة واختتم الصلاة ثم جلسوا أجمعين لاستماع تعاليمه على الرسم الجاري.

عظة عن الموت للقديس باخوميوس

وأنه فتح فاه المقدس وشرع في التعليم قائلاً: أيها الإخــوة العمر قد تصرم، والموت قد تقدم فما دامت نـسمتنا في هــذا الجسد الترابي فلنبذل وسعنا ولنحــرص في خــلاص أنفـسنا ولنجاهد بكل قوتنا في افتعال وصايا إلهنا قبل حــضور ســاعة وفاتنا التي فيها نبكي على غفلتنا وونيتنا ولا تنفعنــا نــدامتنا، فلنستقرض الوقت ما دام لنا ونسعى وراء الفضيلة بنشاط وثبات عزم.

تذكروا على الدوام خيرات المجاهدين المعدة لهم في السموات وتصوروا ما قد أعد للمتوانيين من العذاب الأليم لا سيما مــن عرف الحق وفعل ضده فإن عقابه ألذع نكاية.

لا تهملوا زيارة المقابر والنظر إلى ما فيها لتعرفوا قوام طبيعة البشر وما هي غايتها وتتحققوا أننا لاشون سائلون حقــيرون، فلما إذاً نتبجح إذا كانت هذه النهاية نهايتنا؟ لمــاذا نتــصلف ونتعجرف نحن الترابيين مع علمنا بزهومة نتانتنا وقبح الرائحــة التي تبدو من هذه الأمور ليست خبر بل مشاهدة عياناً بــالنظر فلنفق يا إخوة من سكرتنا ولننهض من رقادنا وغفلتنا ولنرجــع عن جهلنا وغينا ولنبك على نفوسنا مادام لنا وقت قبل وفــود

المنية وحضور ساعة القضية ونحن غير متـــأهبين ولا مـــستعدين حينئذ تغلق الأبواب وتفقد العلل والأسباب، وبعـــدم الأجـــر والثواب وببعد منا زمان المتاب، يا لها من معركة صعبة، يا لهـــا من ظلمة دامسة .. إلا أن تلك النفس لشقية هي لقية وتوجـــد بالحقيقة مثلثة الشقاء واللقاء التي قد زهدت في الأمور العالميـــة ورغبت في الملكوت السمائية وتدونت بالله في الجندية ثم تعمل بخلاف ما وعدت ونذرت.

فلا نتسامحن أيها الخلان لهذا الدهر القليل المدة الفاقد العهدة الحقير الزائل المتلاشي السائل المماثل ظلاً فارغاً وشبحاً عابراً أن يغرنا بخداعه ويختطف منا تلك الحياة السعيدة والغبطة المديـــدة الدائمة البقاء والعادمة الفناء المعراة من سائر المعاطب والهمـــوم والمعافاة من كل المكاره والغموم.

بالحقيقة يا إخوتي إني لوجل خائف من أن يـــصير آباؤنـــا بالجسد وذوينا ومعارفنا العائشون في العالم المنصبون في أمـــوره الناظرون اليوم إلى زي الوداعة والسكينة علينا الظانون فينا أننا قد انطوينا إلى المسيح وصرنا له خواصاً وأولياء وقـــد أخـــذنا عربون الحياة المغبوطة المؤملون موازراتنا لهم ومعونتنـــا إيـــاهم ديانيين لنا.

إدانة أخ للقديس وتبكيته

وكان في الدير جب يحتاج إلى تنظيفه، فأخذ أبونا باخوميوس قوماً من الإخوة ونزلوا فيه واتفق في الإخوة شيخ لم تصر مخافة الرب فيه بعد لأنه لم يكن له زمان منذ جاء إلى الإخوة، فلما سمع أن الإخوة مع الأب قد انحدروا في الجب من حيث لم يعلم بحماسة أنفس المؤمنين وأنهم في سائر أعمالهم يضعون على الله رجاهم، قال لائماً للأب ومفنداً رأيه: بالحقيقة أن هذا الرجل قاسي القلب هو لا رحمة فيه لأنه قد زج أولاد الناس إلى هاوية الموت باختياره.

وفي تلك الليلة رأى هذا الشيخ في منامه كأنه واقف فوق الجب وناظر إلى الذين هم أسفل يعملون بهيين معافين وفي وسطهم شاب بهي المنظر ذو حشمة ووقار قائماً بينهم قائلاً لهم خذوا روح الطاعة والقوة، ثم عطف القول نحوه قائلاً خذ أنت أيضاً روح عدم التصديق وقلة الإيمان، ثم أنه انتبه من نومه مع ضرب ناقوس صلاة السحر وهو مرعوب ومفكر في المنظر، فجاء إلى الكنيسة وحضر في وسط الإخوة وسجد لهم واعترف إليهم بما كان من أول الأمر إلى آخره وطلب من الأب غفراناً وصفحاً ونقص معرفته.

طاعة تادرس

وفي دفعة أخرى والإخوة ذاهبون إلى قطع البردي والأب باخوميوس معهم، وكان تادرس معهم، فلما أرادوا أن يدفعوا السفينة لكي يسيروا قال الأب لتادرس أسرع اركب السفينة، فلم يسأل تادرس عن شيء ولا رادد، بل ركب السفينة و لم يأخذ معه الكتاب الذي يحفظ فيه لكنه للوقت بارك في قلبه قائلاً تباركت يارب الذي جعلتني مستحقاً أن أكون لإبراهيم ابناً في الأمر الذي صادفني.

رؤيا للقديس باخوميوس

وعندما كان الإخوة ينقلون ما قطعوه إلى المركب وكان الأب من داخل يتناول منهم، وفي عروض ذلك عولج بروحه بغتة ورأى منظراً مرهوباً جداً، وهو أن قوماً من الإخوة قد أحدقت بهم نار متوقدة حائطة بهم مشتملة عليهم من كل جهة وهم ما يستطيعون أن يخرجوا من دورانها، وقوماً أخر قياماً على عيدان جافة ذات نواخيز وأشواك وأرجلهم تقطر دماً من الشوك وتؤلمهم جداً وما يمكنهم البراح عنها والانفصال منها، وأقواماً أخر في أفواه السباع والتماسيح وأقواماً أخر واقفين في وسط جرف إما إلى فوق فراقياً عالياً وإما إلى أسفل فعميقاً هاوياً ولا

يقدرون على الصعود ولا على النزول وبين أيديهم نهر عظيم فيه تماسيح تتقاطر ووحوش تتنافر.

وفي حال شخصته ونظره لما ذكر، جاء الإخوة وأدخلوا إلى المركب أحمالهم ووقفوا معه في الصلاة وبسط يديه وجعل يصيح بعظم صوت وهو يسأل الله أن يكون لهم عوناً عنده وأقام هكذا إلى المساء.

ثم أن الإخوة سألوه تأويل ذلك فأجابهم قائلاً على ما أظن وأقايس أن هذا سيحدث للإخوة بعد وفاتي ونقض حياتي حتى أنهم لا يجدون من يسليهم ولا يصيبون من يعزيهم في أوان المصائب التي تطرقهم والأحزان العتيدة أن توافيهم حق التسلية والتعزية، لأن الكتاب يقول سيصير أوان قشب وجوع لا من عوز خبز محسوس بل من عدم أقوال الله.

تأثير الرؤيا على تادرس

فلما أعدوا للإخوة في وقت المساء ليأكلوا لم يأكل هو ولم يعلم تادرس بما قد كان لأنه كان أرسله إلى شغل مع أحد الإخوة، فلما جاء أعلموه بجميع ما جرى وأعلموه أيضاً أنه لم يأكل لكونه حزيناً من أجل الإعلان الذي رآه. فلما سمع أنه لم يأكل هيأ خبزاً للوقت وما تأكله الإخوة وأرسل إليه أخاً قائلاً

تادرس يدعوك، فلما سمع قام من ساعته جاء إليه وابتدأ يكلمه بوجع قلب حتى أنه من عتابه وجع قلبه وخرج من عنده وهو يبكي لأنه قال له امض أنت أيضاً وابكي قدام الرب كما بكيت أنا فسمعه أحد الإخوة وهو يكلمه فقال لأبينا باخوميوس تادرس هو أيضاً لم يأكل اليوم شيئاً فقال وأي شيء لكم معه دعوه لا يأكل ويبكي أيضاً، وجلس هو يأكل بوجع قلب كبير.

وفيما تادرس جالس في خلوة وهو وجع القلب علم أخان بوجع قلبه فتقدما إليه قائلين قل لنا كلمة، فقال لهما أنا محتاج أن تعزياني، فقالا له وقد يمكن أن تتعزى الآباء من بنيهم أيضاً بل قل لنا وجع قلبك ونحن نعزيك. قال لهما ما تقدران وأنتما اثنان أن تعزياني إلا أن يعزيني واحد فقط، فلم يفهما معنى قوله.

وفيما هو يتكلم وإذا شبه إنسان جالس بين يديه وابتدأ يتكلم مثل من يريد أن يشتم أبانا باخوميوس قائلاً أليس هو إنسان أمي لا يعرف شيئاً، فخاصمه تادرس وقال هل أبونا باخوميوس لا يعرف شيئاً. إن كان كذلك فلعل تقول عن الرسل أيضاً أنهم لا يعرفون شيئاً لأنه مكتوب من أجلهم أنهم كانوا أميين لا يعرفون الكتابة وهو يفسر لنا الأسرار التي في الكتب ويعلمنا كتباً مقدسة وليس ذلك فقط بل وهو أعلم

منك. فلما فرغ يقول هذا الذي يكلمه أعطاه سبيلاً أن يعرفه أنه ملاك الرب، فعند ذلك استحى من منظره فقال لـــه المـــلاك لا تخف .. الإيمان الذي لك في أبيك باخوميوس أبقه لـــك بغـــير نقص وكل كلمة قلتها أنت عنه فهي حق، ومن ساعته صعد إلى السماء وهو ينظر إليه.

وأن واحداً من الأخوين اللذين كانا يكلمانه لما سمعه يتكلم قال له أنت تُكلم مَنْ؟ لأنه لم يكن يرى الذي يكلمه، فانتـــهره الآخر ودفعه لكي يسكت لكونه علم أنه قد نظر إعلاناً لأنـــه كان يعلم أنه يرى دفوعاً كثيرة.

وكان لما عازوا الخبز وهم يحصدون في ذلك الموضع، دعـــا أبونا باخوميوس تادرس وعرفه كيف يعمل مع كل واحد مـــن الإخوة لكي يدبرهم في مرضاة الرب، وكان يقول لـــه اصـــنع هكذا حتى أمضي إلى الجميع أفتقد الإخوة لأننا قد أبطأنا عنهم وأنا أعود بمشيئة الرب ونأتي أيضاً بخبز من أجل إنا قد عزنا.

كمال الطاعة

فلما فرغ يقول له هذا قال له من ســـاعته إذا مـــضيت إلى المجمع يا تادرس لا تبطيء بل خذ الخبز وارجع إلينا سريعاً، قال له حسن. فلما أراد تادرس أن يسير من عنده لكي يعمل كمـــا

رسم له، قال له أيضاً أبونا باخوميوس: أليس أنا كنت أقول لك إلى الآن أني أنا أذهب فكيف تسير أنت؟ قال له تـــادرس: أنـــا بالطاعة فعلت لما قلت اقعد لا تمضي قبلت ذلك ولمـــا عـــدت وكررت الكلمة إذا مضيت يا تادرس لا تبطئ قلت حسن أنـــا أعمل كما يقول. فلما سمع أبونا باخوميوس هذا الكـــلام مـــن تادرس تهلل بالروح وقال له حسن هيأت نفـــسك أن تـــصنع هكذا، بل يلزمني أن أعرفك ما قد كان ليكون لك راحة قلب، عندما كنت أكلمك بما يجب أن تكلم الإخوة حسناً حتى أمضي وأجيء قال لي ملاك الرب في الوقت لا تمضي أنت بل تادرس، ومن أجل هذا نقلت الكلمة للوقت وقلت إذا مضيت يا تادرس لا تبطئ عن المجيء.

وكان تادرس متأيداً بالروح قافياً في جميع الأشياء آثار الرب الذي لا معاب فيها وكان شديد الطاعة لأوامره كمن يطيع الله، وكان الأب الكبير في بعض الأوقات يأمره بافتعال شيء مـــن الأشياء لتجربته، وإذا فعله رجع لامه ونبه قائلاً له لما فعلت هذا فكان يسجد ويستغفر من حيث لم يجاوبه في وقت من الأوقات ويقول له أنت أمرتني بل كان يسكت ويرد اللوم على ذاته قائلاً لعلني أنا ما فهمت القول الذي كلمني به أو لعل عقلـــه كـــان

مسبياً مع الله حين أمرني أو لعله رآني غير مستقيم في تــصرفي فرسم لي ما يليق بعوجتي ورجع ووبخني كمــا فعــل الله إذ لام شعب اليهود لاعوجاجهم بلسان إرميا النبي قائلاً مــا أمــرت والديكم وأسلافكم بضحايا ولا قرابين على أنه كان أمر بذلك على يد موسى كليمه وبهذه كان يقمع ويرد باللائمة عليه.

دروس في طول الروح والصبر على التجارب

زار بعض الأوقات الأب باخوميوس أحد الإخوة المتوحدين وتكلم معه لأجــل منفعــة الــنفس وفي حــال جلوســهما ومفاوضتهما، نظر الأب روحاً مظلماً قائماً عند الباب، فقــال في نفسه ترى ما الذي يرد هذا. ولما أراد الأخ الانطلاق فلــم يدعه الأب يمضي قبل أن يأكل قليل طعام لأنه كان المساء وكان الإخوة قد فرغوا من الأكل، فأشار إلى تادرس بأن يهتم بمأكول للأخ قبل انصرافه، فظن أنه يقول له تنحى إلى جانب لأني أكلم الأخ ولم يعلم ما يقوله له، فخرج وتركه جالساً، ولمــا أبطــأ تادرس ولم يعد ولا جاء بشيء أشار الأب إلى أقنوم آخر كــان قد اجتاز عنده بأن يهتم للأخ بطعام والأخ جالس عنده يسمعه وهو يقول هيئ للأخ لكي يأكل وبفعل العدو لم يفهم هذا مــا أشار به إليه وظن أنه قال له انعزل إلى مرقدك فمضى ولم يهيئ

شيئاً ولا رجع إليه، فلما لم يجيء تطلع الأب ونظر آخر فقال له أيضاً هكذا أعد للأخ ليأكل فخرج ذاك ولم يعلم كيف كلمه ومضى، فعلم الأب بكثرة إفرازه إن ما عرض هو تجربة وامتحان فلم يقلق بل نهض هو بذاته وأحضر مأكولاً للأخ وصرفه.

ثم استدعى تادرس وقال له ما هذا الاحتقار الذي فعلت يا تادرس ولا سيما أن الأخ يسمعني أكلمك، أبوك الجسدي لو أمرك بشيء هل كنت تحتقره؟ ما أظن ذلك، فلما سمع تادرس هذا بكى لوقته فقال له الأب إذا كان هذا بكاك أي شيء كان الحاجة إلى الاستحقار والاطراح، فقال له تادرس: يا أبا في أي شيء أطرحت بك ؟ فقال له الأب ماذا قلت لك في حين كان الرجل جالساً معي؟ قال له قلت لي انعزل لأني أكلم الأخ فانعزلت لوقتي، فقال له الأب ادعي لي فلاناً الأخ وفلاناً، فلما حضرا قال لهما أي شيء قلت لكما حين كان الأخ جالساً معي؟ قالا قلت لنا امضيا وانعزلا، فقال الأب: حين كلامي مع الأخ رأيت روحاً مظلماً قائماً عند الباب فللوقت قلت في نفسي هذا الشيطان الذي ظهر ليس يفعل خيراً وتنهد قائلاً ذلك الروح الخبيث أعاق هذا الأمر حتى يحزن كلنا، لكن مبارك هو الرب

الذي أعطانا فهماً وطول أناة وفضح شره فلنتعلم إذاً مما جرى طول الروح والصبر على التجارب.

ثم قال لتادرس قد رأيت اليوم ما صار فلذلك افعل كل اجتهادك أنت أيضاً إذا ما دعوت إنساناً وحقرك هكذا ولا يجيبك فلا تغضب عليه بل قل في قلبك بحق إنه لم يعلم الكلمة التي قلتها له، فإذا قلت لآخر أيضاً اعمل هذا الأمر أضمر أيضاً هكذا لكي يخزى العدو في كل شيء.

عظة للقديس باخوميوس عن حروب الشياطين وكيفية التغلب عليها

وحدثنا هذا الأب على سبيل التثقيف لنا: " إني سمعت سماعاً محسوساً الأرواح الخبيثة تصف وتثبت أنواع شرورها وفنون خبثها التي تتعمد بها الرهبان، فكان بعضها يقول لأصحابه تسر روحي وتبتهج براهب مهما وسوست له في فكره امتثله في الحال ونهض إلى فعله وإكماله لهذا تكثر مودتي وتزداد له محبتي. قال آخر: أما أنا فتحزن روحي وتكتئب من الراهب الذي متى أخطرت بفكره أمراً مما له فيه لذة وفائدة فليس إنه ما يقبل مشورتي فقط بل يكفر بصرامة وينهضه ذات غضب عليَّ وعبوسة وينتصب مصلياً إلى الله وطالباً منه إبعادي وإبادتي فلا

يمكني أن أثبت عنده بل في الحال أولي عنه هارباً كمن أجج ناراً، لهذا تكثر بغضتي وتقل عنه زيارتي.

قال آخر: أنا بدقيق حياتي وبلطف دهائي وخدعتي اعرض على الراهب بضاعتي كل نوع بنوعه وعلى جهته، فدفعة يجنح إليَّ ويبتاع مني ومرة يفرمني (ويزوعني) وهذا دأبي مع الناس كافة. وقال آخر أنا أقاتل وما أمل، وأكافح وما آكل، ومرة أغلب وتارة أنغلب ثم أعاود وما أَنْفكَ.

ولما ذكر هذه الأخبار قال لنا أيها الإخوة احفظوا أنفسكم وقلوبكم من كل جهة واختموها بخاتم اسم المسيح وإذ مقاتلونا أرواح لا ترى فيجب علينا أن نستعين بقوة الله الذي لا يرى حينئذ يولون من هذا الاسم ويهربون وما يمكنهم مضرتنا البتة، وأقول قولاً موجزاً وأكثر بياناً، ما دمنا حافظين مدينتنا إذ نحرس سورها ونغلق أبوابها من حيث لا ننام ولا نغفل عنها لا يقدروا على أخذها وأليق ما نقول أنهم ما يتقدمون إليها إذ لا يجدون لهم مطمعاً فيها، فإذا كان ذلك كذلك والأمر مردود إلى اختيارنا وشهواتنا في أن نهلك أنفسنا ونميتها وفي أن نقتنيها ونحييها فأي عذر يتجه لنا أن نورده وما هو احتجاجنا ...

عظة عن الحرص من التواني والكسل

ودفعة أخرى أمر الأب باجتماع الإخوة لديه وشرع في تعليمهم أقوال الكتب الإلهية وتلخيص معانيها وأردفهم بعظاته الروحية وتثيقفاته، وفي عروض ذلك انقبض بغتة وانقطع (ذرور) كلامه وسها حيناً يسيراً وشاهد بنظر عقله وبقوة الروح الحال فيه أمراً غائباً عن عينيه كأنه حاضر ولما عاد إلى ذاته استدعى بأقنوم الدير وقال له بسكون امض إلى قلاية الأخ فلان وأبصر ماذا يعمل لتصير شاهداً عليه، فمضى الأقنوم فوجد الأخ نائماً وعاد عَرِّف الأب ذلك، عند ذلك قال الأب: ألا ترون إلى ونية هذا الأخ بخلاص نفسه، أولاً أنه ما حضر لاستماع الأقوال الروحية لتأييد نفسه وتقوي منته على مكافحة الشياطين الغير منظورين، وثانياً أنه أهمل الصلاة في قلايته وتمدد ونام وقد كان مع ذلك ولو صلى ملاماً لا أظن أن هذا يصير راهباً إذ كان قصده في شركتنا غير صائب وكذلك صار لأنه بعد قليل انفصل عن الإخوة وأهمل الدير وعاد إلى العالم ولم يشاء حمل الصليب على عاتقه بحسب طاقته واستطاعته.

ثم أن الأب ضرب مثلاً قائلاً: لنفرض أن إنساناً له محلة فيها مائة بيت فأباع باختياره لرجل ما غريب بيتاً واحداً هل يقدر

يمنع ذلك الرجل الغريب عن الدخول والخروج إلى بيته؟ لا يمكنه ذلك. ولو أنه داخل البيوت كلها. هكذا هو الإنسان المؤمن إن امتلك كثرة كثيرة من أثمار الروح ثم بونيته وغفلته أعطى لعدوه موضعاً صغيراً في أمر ما لن يقدر يمنعه من الدخول إليه والخروج لافتقاد الجزء الذي يخصه فيه، فإن تيقظ ذلك الإنسان في مبادئ الأمر وفاق من سكرته وعرف ونيته وغفلته التي أضاع بها ثمرته فليس أنه يسترد تلك الثمرة الواحدة التي أهلكها فقط بل ويأتي بأثمار غيرها ويستظهر على عدوه ويطرده بقوة الله صفراً فارغاً لأن طرق حسن العبادة كثيرة، وفنون سبلها غزيرة وليست بمسلك واحد وقد يوجد في الناس إنسان غني موثر وغيره قوام متوسطون في الثروة وإنسان يرؤس على عشرة من البقر وآخر قائد لألف رجل ورؤساء ومتسلطون وملوك مقتدرون بهذه المقاييس هم المسيحيون ذوو الفضائل الذين لا يدعون شيئاً من ضمير الشر أن يملك عليهم وقد أيقنوا في نفوسهم قائلين أمام الرب بصدق نية ويقين إنك لو تركتنا إلى الانقضاء لا نميل عن إرادتك بل جميع زماننا الذي تتركنا على الأرض ندوم في مسرتك ولو تركتنا إلى انقضاء الدهر، وهؤلاء هكذا إذ هم صبروا من أجل الرب سنة واحدة أو خمسة عشر سنة أو أكثر أو

أقل وهم سائرون كمثل الحد الذي قرروه في قلوبهم وأضمروه وأيقنوه، فليس يأخذون الأجرة بمقدار الأعمال التي عملوها فقط بل أجرة الحياة إلى الأبد في الملكوت، لكونهم صاروا صادقين قدام الرب كمثل العهد الذي قد قرروه معه، وكذلك أيضاً الخطاة الدائمون في النجاسات التي ملكت عليهم من جهة إبليس الخبيث وشياطينه الأردياء هؤلاء الذين جعلوا ذواتهم له بنين فإنهم يكونون معه في العقاب إلى الأبد، لأن الرب لو تركهم على الأرض إلى انقضاء الدهر لم يكونوا يبطلون من النجاسات التي مشوا فيها مثل أبيهم الشيطان الذي لم يزل يخطئ بغير فتور من أجل هذا صاروا هم أيضاً واحداً معه في العذاب الدائم إلى الأبد الذي به يعذب.

جهاد القديس باخوميوس وتلميذه تادرس من أجل محاربة الكبرياء

كان في الدير أخ ناسكاً متعباً، ويقشف نفسه كثيراً، إلا أن تعبه لم يكن لله مرضياً لأنه كان نسكاً زائغاً مخلوطاً بالكبرياء التي هي نتيجة الشيطان ووليدته، فلما تحقق الأب منه هذه الحال السيئة التي هي أم الرذائل ومبدأها، أخذه على انفراد وقال له أيها الأخ: الرب يقول في الإنجيل المقدس لم آت لأعمل مشيئتي بل أتيت لأصنع مشيئة الذي أرسلني فاسمع أنت هذا القول مني

أنا الخاطئ، كان ذاك هو قائله لتنال منه سبحانه أجر من يقبل إنساناً ساذجاً كأنه نبي إذ كانت المجازاة بإزاء القصد والنية ونحو الاعتقاد والطوية.

اعلم أن الشيطان قد حسدك ويشاء أن يضيع أتعابك، فاعمل الآن ما أشير به عليك، واقطع مشيئتك وامتثل من أجل الله مشيئتي واصنع ما أقوله لك. فقال الأخ قل أيها الأب ما بدا لك فإني سامعه، قال له الأب: أريد منك أن لا تصوم إلى المساء بل تأكل الخبز مع الإخوة في الساعة التاسعة ولا تمتلئ إلى حد زائد لئلا تغفل عن الحروب التي تأتي على الناس ولا سيما أنك حدث، وإذا وضع الإخوة خضراً في كل يوم كل قليلاً حتى لا تظهر أنك تتنسك ولا تأكل أيضاً حتى تشبع ولا تعمل أيضاً صلوات كثيرة خارجاً عن القوانين الموضوعة للإخوة وإذا صليت تكون داخل (قلايتك) تصلي، فإذا خرجت إلى الإخوة لا تعبس وجهك بل اتركه فرحاً باشاً، ولا تخدم في أشغال الدير وقضاء حوائج الإخوة إلا إذا أُمرت بذلك فأما باختيارك ومشيئتك فلا تخدم. وهذا قلته لك لكونك أعطيت فيك موضعاً لروح السبح الباطل حتى لا يتسلط عليك إلى الغاية.

فلما سمع الأخ من الأب هذه الأقوال امتثلها وقتاً ما، ثم روح السبح الباطل قلبه قائلاً أين سطر في الكتب المقدسة لا تصم، أين سمع في تعاليم الآباء لا تُصلِّ، أين قيل لا تسهر ولا تتنسك، وعلى ما يلوح لي أن قائلي هذه الأقوال لا يقدرون على صوم ولا على صلاة ولا على سهر، فلذلك يأمرون بإبطالها فهم لا يدخلون ثم يمنعون الداخلين.

ولما ثبت على عصيانه وغيه عاملاً بما يوسوس له الشيطان في أفكاره، حزن الأب لعلمه بالشدة التي تلحقه، وكان يمضي إليه دفوعاً كثيرة ويذكره بكلامه السابق معه، وأخيراً شهد له قائلاً إذا أقمت هكذا فإن هذا الروح النجس يجننك وتصير موسوساً وتفتضح، فلم يذعن له.

وفي يوم من الأيام استدعى الكبير تادرس تلميذه وقال أني لشديد الحزن على هذا الأخ إذ لا يسمع مني، فامض افتقده وأنظر أي شيء يعمل، فلما مضى تادرس وجده منتصباً في الصلاة مواصلاً إياها فعاد إلى الشيخ وعرَّفه بذلك فقال له الكبير عد نحوه أيضاً وأمنعه عن الصلاة فإذا أنت أعقته منها ففي الحال يظهر لك فعل الشيطان الساكن فيه، فإذا رأيت ذلك احفظ ذاتك وتحرز من الكائن، فمضى تادرس وقطع الأخ من الصلاة

وعوقه عن تكميلها، فحنق الأخ وملأه الغضب على تادرس بفعل الشيطان الساكن فيه وقال له بصوت عال وحرد كثيراً يا كافراً منافقاً أنت تمنعني وتعيقني عن الصلاة لربي، ثم أنه طفر وأخذ بيده عوداً ثخيناً وعاد إلى تادرس يريد يقتله فاحترز منه تادرس وزجره باسم الرب فانضبط وكف.

ثم قال الشيطان على لسان الأخ لتادرس كل الذين يصلون على انفراد في قلاليهم ومواضع توحدهم بتلحين وترنيم ولذة يكررون الفصل الواحد دفعات بكثرة بنشاط وشهوة فذاك من فعلي هو. وكان في ذلك الوقت نفسه بعض الإخوة يترنم في قلايته بصوت جهير وتلحين وتكرير بالكلمة المكتوبة في تسبحة موسى النبي (لنسبح الرب لأنه بالمجد قد تمجد) فقال الشيطان لتادرس تريد أن أعمل في هذا الأخ إلى تسعة مرات فقال له تادرس أسدد فاك واسكت يا غير بار وكان متأملاً في نفسه إن كان الأخ يتم العدد فلما أكمله ذهل تادرس قائلاً لذاته لكَمْ من الاستيقاظ يحتاج الإنسان لكي يفوت مقانص الشيطان الكثيرة فنونها ويخلص من شباكه وفخاخه وينجو بمعونة الله منها.

ومضى أعاد على الأب جميع ذلك، فأما الكبير فكان على الدائم يبتهل إلى الله في خلاص الأخ وأن يصرف عنه هذا

الشيطان الذي قد حواه بانسحاق قلب فاستجاب الله منه بصلاته و لم يغفل عن طلباته، وامتن على الأخ برحمته وأبعد عنه الشيطان الذي كان يغتاله وصح في عقله ورأيه وتاب إلى الأب وصار يمتثل أوامره ويصون ذاته.

ضرورة الوعظ والتعليم للإخوة

ولما حان أوان قطع البردي خرج الأب من الدير كجاري عادته متوجهاً إلى حيث نبات البردي ليقطع مع الإخوة، وكان في الدير شيخ ساذجاً طبعاً وخيراً نقياً يسمى (مفغس) من المتقدمين الخواص وكان له رسم كل سنة يخرج في قطع البردي قبل الكل، إلا أنه في هذه السنة لم يخرج لحالين: أحدهما من أجل مرض كان قد لحقه وقتئذ، والآخر حزن كان قد اعتراه من قبل الأب بجهل منه ونقص إفراز، وذلك أنه لما سمع عظات الأب للإخوة الوافرة وتعاليمه إياهم المتكاثرة في النهار والليل استغرب ذلك بسذاجته منه في الغاية ولنقص معرفته بحيل الأعداء ومكرهم ولثبات عزمه ومكين منته في عبادة ربه قال ما بال هذا الشيخ يكثر علينا مواعظه الزائدة الخارجة عن الحد، ألعلنا عادمون العقل جهال مزمعون أن نهفو في كل ساعة حتى أنه صار يخنقنا بتعاليمه المضاضة. ولأجل الحزن مرض جسمه لم

يخرج مع الإخوة يومئذ إلى قطع البردي بل دخـــل إلى كوخـــه ورقد.

ولما كان بعد يومين توجه نحو الإخوة الذين في قطع البردي فلما تأمله الأب قال للأقنوم اصرف همتـــك إلى الـــشيخ أبـــا (مفغس) وراعه لأنني أراه ساذجاً نقياً ما عنده من الدهاء شيئاً إلى أن نعود إلى الدير، فامتثل الأقنوم أمره ولما عاد الكبير مـــع الإخوة إلى الدير بعد فراغ الشغل اجتمع مع الـــشيخ المـــذكور بحضرة قوم من الإخوة وعرفه أولاً بما كان أصره في قلبـــه مـــن الحزن وأعذره بأن ذلك صار منه عن سذاجة وأقنعه أن الإنسان مفتقر إلى التعاليم والعظات والردع والتثقيفات إذ كانت أفكاره جانحة نحو العالم مائلة إليه فإن عدم التوبيخ والردع والتثقيـــف تؤول أحواله إلى التلف، (فبنا أمس حاجة إلى الانتباه)، ونأخذ في التوبة إلى الإله الرحمن، ونلتمس من كرمه الصفح والغفران.

بهذه الأقوال وما ضاهاها أقنع الشيخ واعترف بنقصه وتحقق أن روح الله ساكن فيه وأن جميع ما يعمله بـــإفراز ومجـــد الله وشكره.

التذمر على تادرس تلميذ باخوميوس

وفي أحد الأيام وقت المساء دعا أبونا باخوميوس تادرس وأقامه في الموضع الذي يقف فيه وقال له أخطب على الإخوة أقوال الله التي يلقنك إياها روحه، فامتثل تادرس أمر الأب بكل طاعة وإذعان، وكان أول ما برز من فيه وتحركت شفتاه حمد الله، ثم أنه خطب في الجمهور أقوال الروح ذات الحياة وهذه أول كلمة قالها من الكتب " ادعوا النسوة النادبات وليأتوا أرسلوا إلى الحكيمات وليفتحن أفواهن وليندبن علينا " (إر ٩: ١٧، ١٨) وأما الأب فكان قائماً مع الإخوة الحضور.

وكان تادرس يومئذ شاباً في سنه شيخاً في عقله له في الدير عشرة سنوات وكان له من عمره لما وفد إلى الدير أربعة عشر سنة على ما تقدم القول، فلما أبصر بعض الشيوخ المتقدمين في الإخوة لأبينا باخوميوس قد أمر تادرس يخطب فيهم ويعلمهم أنكروا ذلك ومضهم وثقل عليهم بتحريك الشيطان، وقالوا إذا كان معلمنا شاباً مبتدئاً فأي منفعة تنتج عنه وأي علم يستفاد منه، ولم يشاءوا السماع لكنهم انفصلوا عن مجمع الإخوة ومضوا إلى قلاليهم.

فلما انتهى التعليم أنفذ الأب باخوميوس فاستحضر المشائخ الدين انصرفوا وسألهم قائلاً ما السبب الذي أوجب انفصالكم عنا وابتعادكم منا؟ ألعلكم لم تسمعوا من أجل الرب أنه أقام صبياً بين تلاميذه وقال لهم من قبل صبياً مثل هذا باسمي فقد قبلني وإن كنتم لم تذكروا هذا فما تروني كيف أنا قائم بين جميع الإخوة مثل طفل، فلماذا لم تغلبوا روح الشر فأجابوه قائلين أنك جعلت واعظنا ومعلمنا شاباً مبتدئاً ونحن كهول ومشائخ وأقدم منه في الدير فرأينا قيامنا بين يديه ذلاً لنا وهواناً.

فلما سمع منهم هذه الأقوال الفظيعة والإجابة الشنيعة مضه ذلك وأنكاه وتنهد قائلاً يا له من مصاب واعتذار معاب، لقد عظمت مهادفنا وتكاثرت حفايرنا وعدنا إلى غينا وانثنينا إلى قيئنا وملكنا عدونا لأن مشائخنا ومقدمي ديرنا وأوائلنا يلتمسون الكرامات ويؤثرون التمجيدات.

بالحقيقة أن داءكم قتال ومرضكم عضال، أما علمتم من أين جاءت الرئاسات إلى العالم؟ أليس من الخيلاء والكبر الذي بها سقط كوكب الصبح وهوى متهشماً على الأرض، ولأجل الأبهة والشرف الباطل الذي تطلبونه. بختنصر ملك بابل وأعمالها ساكن الوحوش وساواها أو ما سمعتم الكتاب الإلهي قائلاً

المرتفع بين الناس مرذول قدام الله والمرتفع سيوضع؟ لقد ملك إبليس المحال مهجكم واستولى بالحقيقة عليكم إذ طرحتم رأس فضائلكم الذي هو الاتضاع واعتضتم عنه بالكبرياء أم الرذائل وأولتهن لأنكم ما تركتم تادرس وتخلفتم عنه بل انفصلتم من الله الساكن فيه والناطق على لسانه، لقد خبتم بالحقيقة من نعمة الروح القدس واعتضتم بدلاً منه الروح الأدنس. حقاً لأشقياء أنتم ومستحقون من الندب أكثره ومن التثريب أوفره، كيف سلب الشيطان معرفتكم حقاً أنكم كهول جهال ومشائخ ضلال، إن الله تبارك اسمه وتقدس ذكره خالق الخضرة والغبراء وما يرى وما لا يرى من العدم إلى الوجود تخلى عن مجده وبهائه وانحدر من علو سمائه وتمسكن من أجلنا وذل وسمع المكروهات وما مل وصار طائعاً إلى الحمام عن القريب، وما أنف من عار الصليب ونحن بالطبع تراب ورماد نتعجرف كبراً وأبهة وصلفاً.

لقد انقلب النظام وفرغ القول والكلام وصار ما قدام خلف وما خلف قدام، المتعالي على كل علو المتراقي شرفه إلى أبعد حد، الكثير المجد والسناء الساطع الإشراق والبهاء ذو القدرة والعزة تنازل إلى أن اتحد بالناسوت وعلمنا الضعة والخمول، وبهذه السيرة والسياسة والوضاعة العليا اقتنص إبليس وصاده

وخلص عباده من أسره، ونحن الترابيين الحقيرين ننتفخ عظمة ونتبجح أبهة..؟

أما تعلمون أن من طلب المجد والكرامة أتته الإهانة والحقارة؟؟ أقول لكم قولاً صدقاً إذ كان المانع عن القتل منع عن الكذب، أن في حال قيامي لديه واستماعي منه انتفعت منفعة كبرى، وذلك أن الله لقادر أن يعطي المنفعة بلسان أي من كان، وقد قال السليح متى استعلن لأحد الجلوس قول فليصمت المتكلم الأول ويقوم هذا ويخطب ما بدا له من الوحي وأنتم فقد كان من الأوفق لكم الاستماع منه بإيمان وطول أناة وانشراح صدر وتمسكن، ولقد كان بمصر من هو أكبر من يوسف الشاب الطاهر الحدث السن لكنه من أجل روح الله الساكن فيه فاق الكل قاطبة وزاد عن العائشين إلى أبعد شيخوخة بتوان وإهمال، حقاً أقول لكم أنني كنت قائماً لديه بإفراز. قد عدم الإفراز من لا يميز يمينه من شماله لخوف الله تعالى وأنا الآن أقول لكم أن تتوبوا توبة خالصة عن فارطة التيه والصلف وإلا ستهلكون.

انتداب تادرس أقنوماً على الدير الأول

ومن بعد ذلك انتدب أبونا الكبير تادرس أقنوماً على الدير الأول الذي أنشاه في طبانسين لما تحقق أنه كفؤاً، وكان عمر

تادرس وقتئذ على ما مر القول أربعة وعشرون سنة، وصار مقام الأب في الدير الأكبر المسمى بافو بحيث كانت ترفـــع ســـائر استخراجات الأديرة.

كيفية عمل تادرس في الأقنومية

فأما تادرس فكان باتضاع لبه كأنه لم يرتب أقنوماً، بل كان على ما كان أولاً خادماً في أعمال الدير بمشورة الإخوة وأخـــذ رأيهم فيما يعمل من حيث لم ينفرد برأي نفسه ويعمل مـــشيئته ومع ذلك فقد كان الروح الساكن فيه قد أشعله وألهـــب قلبـــه وأيده لافتعال العلويات وكان حرصه أجمع محبة الله بكل قلبـــه وقوته حسب الوصية وبمقدار نجاحه كان لإخوته نافعاً وكـــان على كلامه نعمة وحلاوة.

آخرون فضلاء من أولاد القديس باخوميوس

ولقد خرج من تحت هـــذا الأب الكـــبير أنـــاس أفاضـــل وقديسون أماثل، منهم بطرونيـــوس وأورســـيوس وقرنيليـــوس وبسنتاسيوس وسورس وباكيسيوس وباصويس وباخوم آخـــر ويوحنا (أخو الأب) وبفنوتيوس (أخو تادرس)، وغيرهـــم كثيرون لا يتسع لنا الآن أن نكتب اسم الواحد فالواحد منهم.

كل هؤلاء كانوا أقوياء بالروح وظهروا مجاهدي المسيح، ولعلم أبونا الكبير بسمو سيرتهم ومكين فضلهم وحميد تصرفهم رتب أكثرهم رؤساء على أديرة وأوائل ومقدمين، ومن كان بعد هؤلاء من الآباء فكانوا في الرتبة الثانية منهم وأحبوا الله جداً وخافوه، وكان من جملتهم الأب (تيتوس) هذا رتب أباً للعذارى بعد الشيخ الفاضل بطرس السالف ذكره رجل قديس فائق الصلاح مملوء من رأفات الله وحنانه كمن شحم ودسم.

وكانت هذه الزمرة السعيدة والرفقة الرشيدة يتمارون في عمل الفضيلة وينافس الواحد الآخر في النسك والضبط والتقشف عارفين ومتحققين أن بمقدار ما ضعف البراني يتأيد الجواني، فأما الخمر فما كانوا يذوقونه لا في حال الصحة ولا في حال المرض البتة.

وكان عدد هؤلاء المجاهدين الملائكة الأرضيين والناس السمائيين السائرين في السبيل الضاغطة جداً سبعين راهباً والباقون فقد كانوا يقتفون آثارهم ويقتدون بهم، لأن النار الروحانية إذا سكنت في الإنسان هي تحركه على افتعال الفضائل العلياء والمناقب السنية.

وكان متى مرض أحدهم يستلقي على الأرض طريحاً، إما على حشيش وإما على حصير، لا شيء آخر من الوطاء، وكان إذا سأله أحد الإخوة أن يطلع على سرير إلى أن يعافى ثم يعود إلى نسكه، فما كان يجيب إلى ذلك قائلاً الأوفق لنفسي أن يجدني الموت ملقى على الأرض شقياً من أن يجدني على سرير مستريحاً، ولولا خيفتي بتطويل المقال ضجر السامعين وإلا كنت أشرح جهادات آخرين وأصنف مناسك كثيرين.

عن الأب قرنيليوس

وقرنيليوس هذا الذي تقدم ذكره كان ناسكاً جداً وكان يطلب إلى الرب أن يطيب قلبه ليثق بهذا الأمر، أن دفوعاً كثيرة تظهر لأبينا باخوميوس أعمال بعض الناس لكونه غير مصدق بهذا، ولما كان يوم فتح الرب عيني قرنيليوس مقدار ساعة صغيرة، وإذ كل أخ اجتمع به ظهرت أعماله قدامه. ومن ذلك اليوم صار أبونا باخوميوس عنده مثل ملاك الله حتى أنه كان يقول للإخوة في هذا الرجل: ومتى قال لي عش فأنا أعيش ومتى قال لي مت فأنا أموت. من أجل هذا الإعلان الذي كشف لي من الله لأجله. وكان يقول في وسط الإخوة، أعني قرنيليوس، ببساطة وقلب طاهر، أنني أجاهد بنسك كثير لكي يعطيني الرب

سلطاناً أن أكون بجانب أبينا بـــاخوميوس في الـــدهر الآتي ولا يكون أحد بيني وبينه.

عن الأب تادرس

ومن بعد زمان رأى قرنيليوس نمو تادرس واتضاعه الكـــثير وأعماله العالية التي يفعلها لإصلاح نفوس إخوة مثل ما يعمـــل أبونا باخوميوس، فقال: أنا كنت أقول إلى اليوم إني أجاهـــد أن أكون بجانب أبينا باخوميوس في الدهر الآتي، وهـــوذا أرى أن أعمال تادرس مرتفعة أفضل من أعمالنا. والآن أقول لكم أني لا أفتر من الجهاد حتى أكون بجانب تـــادرس في موضـــع النيـــاح الكائن.

وفي أحد الأيام مضى قرنيليوس إلى مجمع طبانـــسين ومعـــه إخوة لأجل شغل ولما سلم على تادرس سجد له للوقت علـــى قدميه على الأرض، فصعب هذا الأمر على تادرس واستحى جداً حتى أنه انعزل إلى جانب من أجل الحشمة ووجع القلب، فلمـــا خلا به قرنيليوس وحده قال له لا يصعب عليك يا تادرس لأني ليس من ذاتي فعلت هذا بل في الرؤيا قيـــل لي إذا مـــضيت إلى تادرس اسجد له على الأرض على وجهك، فلم أفعل هذا بجهل ولا بكلفة بل بإرادتي لكون الرب أعلمني المقدر الذي أنا فيه.

ولما كان زمان كان أخ في تجربة يجرب من جان في دوناسة، فحمله تادرس على حمار وأتى به إلى مجمع بافو، وفيما هو داخل نظره أبونا باخوميوس من بعيد وكان يتكلم كلام الله مع نساك، فتركهم ومضى إليه، فتقمقم بعضهم قائلين إن تادرس صبي ونحن أكبر منه سناً تركنا ومضى إليه يلقاه، والذين تقمقموا هم الذين كانت الغيرة حركتهم في الوقت الذي أقامه ليعظ الإخوة، وبعد أن سلم عليه أمره أن يجلب الأخ المريض إلى المجمع فصليا عليه معاً فسمع الرب صلاهما وشفي المريض.

تدبير الأنبا باخوميوس

وكان إنسان ما قسيساً كان معترفاً وقد بقي من الشهداء اسمه دينوسيوس رجلاً ورعاً متقياً لله جداً أقنوماً لبيعة تنترين كان صديقاً للأب باخوميوس، هذا لما سمع عن الأب أنه لا يفسح للرهبان الزوار ديره الطالبين الصلاة فيه وأخذ بركته أن يجلسوا على المائدة مع الرهبان بل يضيفهم في موضع مفرد مخصوص هم قريباً من باب الدير، حزن لذلك جداً وتوجع قلبه وجاء إلى عنده، بحكم ما بينهما من المحبة الروحية والألفة المسيحية، وفند رأيه في ذلك. فأجابه الكبير بطول أناة وتؤدة قائلاً الله هو العارف بقصد مسكنتي في ذلك ومحبة أبوتك لا

تجهل ما أقول أنني ما قصدت في وقت من الأوقات حزن أحـــد ولا أن أوجع نفساً جزافاً وكيف اتفق لأنني إذا وجعت إنـــساناً أوجع الرب نفسه القائل بفمه القدوس مهما صـــنعتم بأحـــد إخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتم. وأنا فلست أعـــزل الرهبـــان الزائرين كمستحقرين ومرذولين، لا كان ذلك أبداً، وأنت تعلم أن في الشركة طائفة كثيرة غروس جدد ولا يعرفون مـــا هـــي الرهبانية والنسك والزهادة وحالهم كحال صـــبيان لا يعرفـــون اليمين من الشمال، فقلت من أجل الإخوة الطراق خير لنـــا أن ندخل بهم وقت الصلاة إلى المجمع وبعد ذلك نجعلهم في موضع لائق بهم في سكون يأكلون فيه الخبز وأنا أخدمهم بذاتي خدمة سيدي إبراهيم لضيوفه تحت البلوطة خارج الخباء حتى لا يختلطوا بالرهبان ويروا بعض الغروس الجدد فيعثروا من أجل هذا الأمـــر فعلت ذلك. فلما سمع دينوسيوس هذه الأقوال طاب قلبه وتحقق أن جميع ما يعمله بقصد إلهي وإفراز.

الأب باخوميوس وعمل المعجزات وشفاء المرضى

وكانت امرأة من المتصرفات هناك بها نزف دم فلما سمعت ما هو عليه هذا الأب من الطهارة والقداسة ودماثة الأخـــلاق ونسيم الأعراف، أضمرت في قلبها إن أنا لمست بيدي شيئاً من

ملابس هذا الأب القديس أشفى من مرضـــي وأنهـــا قــصدت الكاهن دينوسيوس المقدم ذكره وعرفته بالأمر ورغبت إليـــه أن تستدعيه إليه لحال ضرورية واجبة يريد التشاور فيهان لعلمها أنه صديقه وأنه رق لها لعلمه ما بها من الوجع واستدعى الأب إلى عنده ولما وفد جلس كلاهما في الكنيسة يتفاوضان فأما المـــرأة السالف ذكرها فإنها وثقت بقوة إيمان وتقدمت سراً من خلـــف الأب وهو لا يعلم بها ولمست بيدها (القوقوليون) الذي علـــى رأسه بإيمان حار، وفي الحال عوفيت من مرضها وانقطع عنـــها نزف دمها وعادت إلى ذويها وأهلها معافاة تمجد الله العجيـــب بقديسيه وتشكر الأب باخوميوس صفيه ووليه.

وفي أحد الأيام أحضر إليه إنسان ابنته العذراء بها مس مـــن شيطان ليصلي عليها ويشفيها فأعلمه البواب أن الكبير لا يكلم امرأة فتوسل إليه أن يأتي في أمرها حسب ما ترى سياسته، فقال له أنفذ إليَّ ثوب من ثيابها لم تكن لبسته منذ صـــرعها الجـــن لأصلي عليه، فمضى وأحضر إليه أحد ثيابها لم تكن لبسته منـــذ صرعها الجن، فلما نظره قال ما هذا ثوب بتول، ولما حقق له أنه ثوبها قال أنا أعلم أنه ثوبها، بل ليس هو ثوب بتول، قد أضاعت عذريتها، والآن هي إن أعطت لله عهداً أنها تحفظ العفة فإن الله

يشفيها، فحزن أبوها لما سمع هذه الأقوال وخرج إلى عندها وهي على باب الدير وقررها على هذه الأفعال فاعترفت بالأمر وأعطت لله عهداً أنها لا تعود إلى حال منكر مدة حياتها، فرجع أبوها إلى عند الأب وسجد بين يديه وتاب نائباً عن ابنته وقال له قولاً كأنه منها: الإله الذي كشف لك أيها الأب فعل جهالتي هو يقنعك الآن بما عولت عليه من حفظ عفتي. عند ذلك صلى على زيت وأرسل إليها ومع ما دهنت به جسمها عوفيت لوقتها وانطرد الشيطان عنها ومجدت الله مع أبيها.

وإنسان آخر وفد إلى عند القديس من بلدة بعيدة وعرفه أن له ابناً وحيداً به مس من شيطان مارد يغته في كل وقت غتاً شديداً وأنه لأجله في عيش نكد، فأخذ الأب كسرة خبز وبارك عليها وأعطاه إياها قائلاً إذا وصلت بيتك فاطعم ابنك هذه الخبز وأنا أؤمن بالرب أنه يشفيه، فأخذها أبو المريض بإيمان حار، ولما وصل إلى مترله وحان وقت الغذاء وقدموا المائدة وجلس الصبي فوضعوا بين يديه تلك الخبزة مع غيرها من الخبز فصار الصبي بفعل الشيطان يبعد تلك الكسرة فتحفظ بها أبوه إلى أن جاع الصبي وطلب مأكولاً فقدم له جبناً طرياً وثمراً كان قد طمر فيهما شيئاً من فتات تلك الكسرة فصار الصبي ينقي الفتات

ويرميه ويأكل الجبن والثمر وحده، عند ذلك تركه أبوه بلا غذاء يومين حتى اشتد عليه الجوع جداً وعمل له حريرة وفت تلك الخبزة المباركة فيها وقدمها له، وإذ كان الجوع قد أجهده أكلها كلها، وفي الحال هرب إبليس عنه وعوفي بصلاة القديس، فعاد الإنسان والد الصبي إلى عند القديس وعرفه بما كان وقدم مجداً وأوفى للأب شكراً.

وكان في مجمع أخ دائماً في مرض كل ثلاثة أيام يأتيه، فتقدم إلى أبينا باخوميوس وهو يبكي وسأله قائلاً هوذا أنت تشفي كثيراً من العلمانيين وأنا معك في كل وقت ولم تصلي عليَّ لأشفى من هذا المرض التعب، قال له الأب: العلمانيون إيمانهم في الله يشفي أجسادهم والراحة التي يفعلها معهم في أمراضهم يميلون بالأكثر إلى فعل الخير، وأما نحن عبيد المسيح فإيماننا بالراحة التي لا تفسد التي يهبها الله لنا في الدهر العتيد وبغير مرض ولا وجع نحن نسلك في ضد الوصية، وقد كتب أن بأحزان كثيرة ينبغي لنا الدخول إلى ملك السما. فلما سمع الأخ هذا من رجل الله تسلى جداً.

إرادة الله هي الأفضل

ولقد صنع الرب على يدي هذا الكبير ولي الله أشفية كثيرة غير ما ذكرنا، جسدية ونفسية وإذا التمس من الرب شفاء قوم وما كانت تقبل صلاته إما لضعف إيمان الطالب أو امتحاناً له، فما كان يستغرب ذلك ولا ينكره بل كان ينسبه إلى عدم استحقاقه، وقد كان في حين طلبته برد الأمر إلى إرادة الله ومشيئته وهو تبارك اسمه وتقدس ذكره عارف السرائر وما تكنه الضمائر كان يأتي في كل الأمور بما يوافق الجمهور لهذا القديس كان يرد الأمر إلى إرادة الله ومشيئته متذكراً قول الإله الكلمة " يا أبتاه لا تكون مشيئتي بل مشيئتك ".

الإفراز في النسكيات

وكان لما مرض أحد الإخوة جداً في أيام البصخة وكان ناسكاً لم يشأ أن يأكل شيئاً مطبوخاً قائلاً جيد لي أن أموت أفضل من أن أكل وأشرب في هذه الأيام، فمضى أبونا باخوميوس إليه وقال له الأيام كلها هي لله لأن الذي أمر أن يعمل الناس البصخة هو الذي أمر بالمرض عليك فالآن لا تخف ولا تحسب أنها خطية إذا أنت أكلت لحاجة المرض لأنه مكتوب في سفر العدد متى لم يلحق أحد أن يحمل قربانه للرب ويعمل

البصخة في الشهر الأول فليعمل بصخة الرب في الشهر الثـــاني، والآن فإذا لم تقدر تعمل البصخة من أجل المرض فمن بعـــد أن تستريح إذا شاء الرب فأنت تعملها عندما تعذب نفسك نحـــو عدد أيام البصخة.

وفيما جالس هو يكلم الإخوة قال لهم لا تظنوا من أجـــل الأشفية الجسدية أنها آيات وإنما الآيات الحقيقية هـــي الأشـــفية النفسية لأنها تدوم إلى الأبد، فإن أثرت أن تكون مجترح آيـــات فأنا أريك السبيل الموصلة إلى هذا الاجتراح العجيـــب، مثـــال ذلك: إذا كان إنسان بعيداً عن معرفة الله ساجداً للأصنام فقدمته إلى معرفة الله خالقه فها قد أحييت بالحقيقة ميتـــاً، وإن أنـــت استرجعت إنساناً من ذوي البدع في الدين إلى معرفـــة المـــسيح الحقيقية فها قد أضأت مكفوفاً، وإن أنت استرجعت إنساناً من السعي في الرذائل إلى الفضيلة فها قد شفيت أعرجاً، وإن أنـــت صيرت يد محب الفضة رحومة فها قد لينت يداً يابسة ومددتها، وإن أنت صيرت الزاني عفيفاً فها قد أطفأت ناراً وأخمدت لهيباً وأبطلت حمى صالبة وأزلتها، وإن أنت أرشـــدت الجاهـــل إلى معرفة الكتب فها قد عافيت أصماً، وإن أنت جعلت الكسلان

نشيطاً فها قد أنهضت مخلعاً، وإن أنت جعلت السخوط وديعـــاً فها قد أخرجت شيطاناً، فعن غير هذه المعجزات لا تسأل.

عدم طلب اجتراح العجائب والمعجزات

وحدثنا هذا الأب الكبير وقال لنا أن بعض الإخوة سألني في وقت من الأوقات قائلاً قل لنا منظراً مما ننظر لنستفيد منه تخشعاً وإيقاظاً، فأجبته أنا قائلاً: من كان مثلي سقيماً وخاطياً أثيماً لن يعطى المناظر الروحية والاستعلانات الإلهية ولا يتجاسر هو على التماس ذلك من الله إذ كان مخالفاً لمراده سبحانه ومضاداً لمشيئته ومن توقح وطلب ذلك فهو من الناس الجهال، والآنام الضلال. بل إن شئت أن تنظر منظراً إلهياً وتشاهد أمراً بهياً يفيـــدك مـــن المنافع أكبرها ومن المكاسب أكثرها فأنا أدلك: وهو متى رأيت إنساناً ورعاً متضع اللب متواطياً وطاهراً، فهذا أعظم من ســـائر المناظر الروحية وأجل من كل الإعلانات الإلهية لكونك تشاهد الله تعالى الذي لا يرى في هذا الإنسان المرئي فعن أفضل من هذا المنظر لا تسأل. فأما المناظر والاستعلانات التي تـــصير مـــن الله لقديسيه الأطهار وسابق المعرفة فهي متى ما أعلن لأحد أحبائـــه الأفاضل أمراً من الأمور وقتئذ ذوو سابق نظر، ومتى كتم عنهم ذلك فهم عديمو العلم أسوة بسائر البشر، فالمالكون الرب فيهم

دائماً هم الذين لا يؤثرون عليه شيئاً على رأي القائل " تقدمت فرأيت الرب أمامي في كل حين كائناً عن يميني لكيلا أتزعزع ".

لا يدان أحدنا إذ ليس له استعلانات وعلم المغيبات بل يدان إذا سها عن ذكر الإله مبدع البرايا وغفل عن افتعال الفروض والوصايا، ويجب على الإنسان من صغر سنه وليونة غصنه أن يمارس الخير والصلاح ويمتد فيه إلى قدام كما جرت حال صموئيل، لأن الأرض النقية مستعدة لقبول الغروس الإلهية، فأما الأرض البائرة العطلة فتحتاج إلى أتعاب كثيرة وأعراق ليست باليسيرة إلى أن تصلح لقبول البذار وإن هي أهملت بارت وأهلكت ما كان قد حصل فيها من صالح البذور والنصوب، فيجب علينا إذاً حراسة الشبان وملاحظة الصبيان بحرص شديد وتفقد مديد في ذات الله تعالى ولا تتجاسر على أضرار نفس واحدة ولا نزعج أفكارها لئلا نقابل من الله الذي هو ديان العدل وحاكم القسط مقابلة مقسطة، فأما كيف نحفظهم فلا نحتاج في ذلك إلى إسهاب وإطناب. الكلمة الواحدة تجزي وتكفي لأن الإنسان الذي ينظف فكره وينقي ضميره بخوف الله وصدقه ويحرر نفسه مما صغر فضلاً عما كبر هذا مع معونة الله يمكنه حفظ الأطفال، فبنا أمس حاجة إلى موازرة النعمة الإلهية.

القديس باخوميوس وبغضه النميمة

وكان الأب على الدوام يحرس قلبه ويصون عقله من الخواطر السقيمة والنتائج الذميمة ويزجر ويوبخ السعاة المغتابين ويطرد من بين يديه من يقع بأخيه سراً آمراً إياهم بالهرب من النمايم كالهرب من الأرقم ذي السم، وقال أن الرجل العاقل الساعي في السبيل المستقيم يتجنب كل قول وخيم. لا ننسى أيها الإخوة البرص الذي لحق مريم لما سعت بموسى أخيها. هكذا كان هذا الأب متحفظاً ورعاً ذا علم وعقل وفلسفة ونظر نافعاً بكلامه لكل سامعيه وبالنظر إلى هيئته وسكينته لكل متأمليه.

طول أناته

ولنأت بمناقب أخر من محاسن هذا الأب الكبير خصيص الله ووليه منفعة للسامعين، كان بالقرب من دوناسة دير صغير وكان أبو ذلك الدير قد جرت عادته بمواصلة زيارته، فالتمس أحد الإخوة القاطنين معه أن يقلده بعض الرتب فلم يجبه إلى ذلك لعلمه أنه غير مستحق لما طلب وذاك كان يلح عليه ويقلقه، فاحتج ضابط الدير عنده أن أبانا كلنا باخوميوس تقدم إليَّ ألا

أبلغك مرادك لأنك غير أهل لما تطلب بعد والتماس هذا الأمر يعود ضرره عليك.

فلما سمع الأخ ذلك حرَّكه الشيطان إلى غضب زائد واستشاط حنقاً وجره قائلاً هلم معي عند باخوميوس وحقق عنده ما قاله فيَّ وخلني وإياه، فتبعه ذاك شاء أم أبى بحزن كثير مفكراً فيما تؤول إليه الحال لأن الأب لم يكن يعرف من ذلك شيئاً، وتبعهما أخ آخر.

ولما وصلوا عند الأب لقوه يبني حائط للدير مع قوم من الإخوة، فصَوَّت نحوه ذلك الأخ بغضب وقال انحدر يا أبا كذوبا وثبت على ذنبي. وأن رجل الله طَوّل روحه ولم يجبه بكلمة واحدة، فعاد ذاك وقال له ما الذي كلفك أن تكذب وتقول أنك تبصر ونورك مظلم، فعلم رجل الله أنها تجربة من فعل إبليس، فقال لقد أخطأت اغفر لي ألم تخطئ أنت قط.

فهدأ غضبه للوقت، ثم انحدر الكبير من على الحائط وقعد مقدم ذاك الدير واستخبره عن الحال فأجابه قائلاً: أيها الأب القديس هذا الأخ التمس مني أن أوليه أمراً يفوق استحقاقه وكرر عليَّ في طلبه، وإذ لم أجد سبيلاً إلى إقناعه عرضت باسمك في الوسط واحتججت بك ليقلع عن طلبه لعلمي أن لذكرك

عندنا كلنا موقعاً عظيماً ومحلاً جسيماً، فلم يرتدع بل قد زاد شره فقال له الكبير فلم لم تعلمني وتأخذ مشيئة الله فيه مني والآن امتثل ما أقول لك وأعطه طلبته فإن أمره عتيد أن يؤول إلى إحدى هاتين الحالتين، إما أن يفترس الشيطان نفسه لأجل خطيته ويتخلى من الرهبنة، وإما أن يحس بالإحسان الصائر إليه في غير موضعه ويقلع عن جهله، وهذه هي محبة الله وإرادته أن نحتمل بعضنا بعضاً في أوان الامتحان، ثم التفت إلى الأخ بوجه باش وقال له هوذا قد أمرته أن يعطيك طلبتك فاغفر لي.

عند ذلك فرح الأخ واستغفر وعاد مع رئيسه إلى ديره ولما تسلم الطقس وقتاً ما عاد إلى ذاته موبخاً من فطنته وعرف أنه غير مستحق لتلك الخدمة، ومضى إلى عند الأب الكبير وهو خجل وسجد على قدميه قائلاً له لقد تعاليت زائداً يا رجل الله أكثر مما يسمع عنك، لأنني قد شاهدت عياناً غلبتك للشر، الرب يعرف أنك لو لم تطول روحك عليَّ أنا الجاهل الأثيم في وقت سكري لكنت قد تخليت عن الرهبنة وصرت علمانياً، إلا أن صلاحك غلب شري. لمبارك أنت يا رجل الله لأن بطول روحك وحسن صبرك وتأنيك عليَّ وهبت لي نفسي الشقية وها حياتي الآن بواسطتك هي لي.

طول روحه وحلمه

وكان في دير بافو قوم من الرهبان الأوائل ممن تقدم لهم سنون في الدير أما بالجسد فأنقياء أطهار لكنهم كانوا يتبرمون بأقوال الأب وما يقبلونها بإيمان بل كان الشيطان قد خيل لهم أنه يقولها بعُجب وعلى سبيل المباهاة، وإذ كان هذا الأب الكبير طويل الروح حليماً شديد المحبة للكل مؤثراً خلاص النفوس لا سيما من قد تعب في ردعهم ووعظهم وتثقيفهم، كثيراً ما كان يستجيز إهمالهم ولا يرى اطراحهم والغفلة عنهم، وأنه سلم نفسه للنوح عليهم وأخذ في ندبهم حزناً على هلاك أنفسهم ورفع ذلك إلى الرب وذلل نفسه بالصوم والصلاة وابتهل إلى الله أن يفتقدهم برحمته كما يشاء ويعرف هو، وانحل جسمه وأضعف قواه من كثرة التعب، فلما رأى الرب إفراط محبته لإخوته وكثرة تعبه لأجلهم ونصبه استمع طلبته ولم يهمل وسيلته وألقى إلى أولئك الإخوة إحساساً بغلطهم وتندموا على ما فرط منهم وتثقفوا فيما بعد وارتجعوا إلى رشدهم لما أقلعوا عن غيهم وعلى هذه الصفة استناحوا إلى ربهم بموازرة الأب إياهم.

الأخ بولس وصبره واحتماله

وكان في الدير أخ فاضل اسمه بولس يماري الأب في صبره وحساسة نفسه، فعرض له فيما كان منتصباً مصلياً في بعض الأوقات لسعته عقرب وأنه وضع رجله الملسوعة على العقرب واطئاً إياها وقائلاً إن لم يشفيني الله فمن يشفي، وعاود صلاته ممتحناً صبر نفسه وجلادتها في قوادح الأمور، وزاد الألم واحتوى على قلبه حتى كادت عن قليل تطفر روحه من شدة الضربان وهو صابر بنفس جلدة صارخاً إلى الله وقائلاً أنني لا أتخلى حتى تخرج مني روحي إن كنت تشاء لأنني إذا تخليت في هذا الأمر فبلا شك إذا عذبت من كافر فأنا أجحدك من أجل العذاب ووجع الجسد، ولم يزل منتصباً ومصلياً إلى حين اجتماع الإخوة في صلاة السحر حينئذ هدأ الألم ومضى إلى الصلاة الجامعة.

وأيضاً عن الأب باخوميوس وصبره واحتماله

ولما كان أيضاً عشية أحد الأيام وأبونا باخوميوس واقف في الحقل يكلم الإخوة والوقت قد بدأ يظلم، وإذا ثعبانان كبيران قد خرجا من الحلفا ولعبا بين رجليه وهو يكلم الإخوة فلم ينظر نحوهما إلى أسفل البتة ولا حرك رجليه من موضعهما بالجملة، لكنه كان يعلم أن شيئاً يلعب على رجليه، ولما فرغ من الكلام

صلوا فجثا بركبتيه ودق رجليه عليهما، ولما أكملوا الصلاة قال للإخوة أن يأتوا بسراج موقود، فلما نظروا الثعبانين قتلوهما وتعجب الإخوة من حفظ الرب له إذ لم يلمساه.

وكان يعلم الإخوة من أجل حية أو عقرب أو شيء من الوحوش المؤلمة أن لا يفكروا فيها بخوف وألم وقلة إيمان. وكان دفوعاً وهو يعمل مع الإخوة إذا لسعته عقرب وتألم لم يكن يبطل العمل بل كان يقبل الضربان كأحد الآلام التي يقبلها في جسده لأجل اسم الرب، فإذا لسعته عقرب عشية كان يقف يصلي حتى يستريح قائلاً ليس دواء آخر أفضل من الدعاء باسم الرب، ولم يكن في صلاته وهو في الضربان يسأل أن يكون له راحة بل يسأل مشيئة الرب أن يعطيه مثالاً صالحاً ليعمل كل حين مع كل من يحبه، وهكذا يدوم في الصلاة حتى ينسى الضربان.

عقاب المريض بالسبح الباطل

وفي بعض الأيام جلس الكبير مع أناس أفاضل من الإخوة والمشائخ في موضع مفرد من الدير للرياضة والحديث في أقوال الله، وكان مقابلهم أحد الإخوة ينسج حصر على باب قلايته، هذا الأخ لما أبصر الأب وجماعة المشائخ اعتراه نشاط السبح

الباطل وهز نفسه واجتهد في العمل ونسج ذلك اليوم حصيرين ظناً منه أن الأب يمدحه على ذلك، لأن الفرض كان على كل أخ أن يعمل في اليوم حصيراً واحدة، فأما الأب فلما رأى مرض الأخ بالسبح الباطل تنفس الصعداء وقال لمجالسيه ألا ترون هذا الشقي كيف أضاع تعب يومه ودفعه باختياره لإبليس عدوه من حيث لم يصر له ولا النذر اليسير. إذ أحب سبح الناس أكثر من سبح الله وكد جسده بالتعب وجعل نفسه عادمة ربح العمل وفائدته. ثم أنه استدعاه وزجره على فعله السيئ، ثم بعد ذلك تلطف به وقننه أن يحمل الحصيرين إذا اجتمع الإخوة في الكنيسة للصلاة ويدخل في وسطهم ويقول أيها الآباء والإخوة أنا أرغب إليكم أن تصلوا عن نفسي لكيما يرحمها الله أبو الكل رحمة ورأفة ويشفيها بصلواتكم لأنني آثرت هاتين الحصيرتين على ملك السماء. وإذا جلس الإخوة أيضاً على المائدة للطعام يحمل الحصيرتين ويقول ما سلف ذكره وهو قائم حامل الحصيرين إلى أن يقوموا عن المائدة.

ولما امتثل الأخ ما رسمه له أمره أيضاً أن يحبس نفسه في قلاية مدة ستة أشهر في قلاية منفردة ويعمل في كل يوم عوضاً من حصيرة الفرض على الإخوة حصيرين وأن يأكل خبزاً بملح لا

غير ولا يكلم أحد إلا الأخ الذي يحضر له الخبز، وعلى هـــذه الحال ثقف نفس الأخ واستغفر له من الله سيئته.

عظة من أجل حراسة النفس

وفي بعض الأوقات توجه الأب باخوميوس إلى دير طبانسين ولما حصل هناك تلقاه الإخوة وسلموا عليه وجلس كعادته فيما بينهم وكلمهم من أجل حراسة النفس وصونها من شر الأعداء الماكرين وتخابثهم على جنس البشر لا سيما الرهبـــان، وقـــال الخليق بالراهب ألا يكتفي بمناسك الجسد الظاهرة مثل الـــصوم والصلاة والسهر والخدمة فقط، بل ويضيف إلى هذا أن يجاهـــد في صيانة النفس من هواجسها وزهوها ومن الافتخارات الـــتي تشينها وتضويها أعني حب الرئاسة والخيلاء والبغض والشحناء والتيه والصلف والنميمة والقرف وما شاكل هـــذه الرذائـــل. والأولى به قبل كل شيء أن يقتني خوف الله وأن يراقبه في السر والعلانية وفي كل حين وأوان ويتصوره حاضراً في كل مكـــان حسبما هو جلّ اسمه وتقدس ذكره ناظر جميع الأعمال من خير وشر، فإذا فعل كذلك انكبح عن ارتكاب الخطيئة وإن هو أهمل الخوف والمراقبة الخلاصية وغفل عن العمل بالوصـــايا حينئـــذ

يوافقه الفصل المقول في كتاب الزبور " تتدنس في كـــل حـــين طرقه برفعك أحكامك عن وجهه ".

وكما أن النار تجلو من الحديد صداه، هكـــذا خـــوف الله يذيب من النفس كل رذيلة ويجعلها إناء للكرامة ومحلاً للسلامة، فأما ما يلقيه إبليس من التجديف الذي هـــو نتيجـــة الكبريـــاء المتولدة فينا من دينونتنا قريبنا الذي دواه مع رحمة الله الاعتراف به وإشهاره للآباء الروحيين ثم إهماله وتركه، فإن ترك الإنسان الاعتراف به وأخذ في إبعاده عنه بالصيام وبالصلوات وتواصـــل الركعات فهو يتعب في باطل ويجاهد في عاطل، بل الأولى بنا أن نهين هذا الفكر ونقول لزارعه اذهب ورائي يا شيطان فأنا لربي وحده أعبد وإياه أبارك وله أسجد وأما أنت فليرجعن وصـــبك وقولك على رأسك وينحدرن تجديفك على هامتك وهذا الداء النجس والمرض الرجس قد ألقى كثيرين من القليلي الخبرة به في الإياس وقوم شقوا أجوافهم بأيديهم بسكاكين وغيرهم طرحوا ذواتهم من علو إلى أسفل كفعل المجانين وهلكوا بأسوأ ميتـــات وبالجملة أقول أن غفل عن هذا المارد وأسى مـــع صـــاحبه ولا يحفل به قتله وأهلكه وسلب منه عمره وحياتـــه وشـــفاه بعـــد

الاعتراف به فهو موجود في الصلاة الربانية إذا قال " لا تلقنا في التجارب لكن نجنا من الشرير ".

فسبيلنا أن نعترف بالأمر للرجال الخبيرين بهذه الصناعة وبعد ذلك نقول الصلاة بإفراز روحاني، وننحو إزاء الجن المارد ونقول إن أنا انخدعت منكم أيها الأبالسة الأنجاس والشياطين الأرجاس وجنحت إلى تلفيقاتكم وقلت على خالقي ومبدعي من العـــدم إلى الوجود تجديفاً وسباً فكيف تكون حالي حينئذ مـــن لـــدغ فطنتي إياي فابتعدوا عني يا كافة فاعلي الإثم لأن الرب مؤازري وما أكف من لعنكم بما أنكم ملعونون من الرب وهذه الأقوال التي أنتم تصدرونها عني فليست مني لكنها منكم أنتم العتيدين أن تصلوا بالنار التي ليس لها خمود ولا سكون ولا رقود، وأنا أمجد إلهي وأسبحه وأقدم له الوقار والتهليل في هذا العـــالم وفي ذاك الدهر إلى دهر الأدهار.

سبب حضور الأب إلى طبانسين

وبعد فروغ الأب من هذه الأقوال قال: أما سبب مجيء الآن إلى عندكم فذاك كائن في إناء خزفي. فلم يفهموا قـــوة القـــول وصار الواحد منهم ينظر إلى الآخر جاهلين الأمر، وكـــان أخ صالح اسمه إيلياس ساذجاً، فطغى وصار يجني تيناً سراً ويخفيه في

وعاء خزفي ليأكله بعد إفطاره من صومه، هذا الأخ لما سمع قول الأب عرف الأمر فمضى في الحال وجلب الوعاء الذي فيه التين إلى وسط الجماعة وقال للكبير أيها الأب أنا فعلت هذا بجهلي فاغفر لي، ثم استغفر من الكل وقال عوداً للكبير المنة إذاً في مجيئك إلى ها هنا وتعليمك لنا وعظاتك إيانا لهذا الوعاء الذي جاء بك إلينا.

عند ذلك ذهل الإخوة من معجز الأمور ومجدوا الله، فقال لهم الأب أننا نحن لا نرى الخفيات متى شئنا لكن متى شاءت عناية الله كشف لنا لا كاستحقاقنا بل عناية منه جلّ اسمه بخلاص النفوس، وأما على التين هذا فكشفه الله لي حتى لا تستولى شهوة الأطعمة على هذا الأخ ويملكه الشيطان بها، وكان الأب مسرعاً أن يعود إلى دير بافو، فنهض وصلى مع الإخوة صلاة المساء وسار من حيث لم يستعمل عندهم غدا.

غارات البربر

ولما كان في الأيام التي غلب البربر الروم فيها في الحرب، هربوا من قدامهم الناس الذين في ديار بحري وكان أبونا باخوميوس يطلب إلى الرب من أجل رباط الشركة واجتماع الإخوة لئلا يكون لهم تشتيت، فلم يكشف له الرب شيئاً عن

هذا الأمر، فلما نظر أن الرب لم يكشف له شيئاً عمل كـــالعلم الذي فيه، أرسل أكثر الإخوة إلى مواضع الشركة التي يجري منها المحسوبة للشركة الكبيرة، وأقام هو ومن له قدرة من الإخوة في المجامع التي هم فيها.

وكان دائماً يطلب إلى الرب أن يعلمه كيف يجب أن يعمل، وبعد ذلك دعا تادرس وأعطى له الكتب التي يقرأ فيها الإخـــوة ليمضي بها إلى موضع الإخوة الذين بحري منهم الذي مضوا إليه الإخوة. قال له تادرس: فما علمت من الرب من أجل هذا الأمر وكماله لكيلا نكون في عنا فقال له هل نحن خير من داود الملك والنبي الذي شهد من أجله الكتب أن الرب كان معه في كل ما كان يعمل لما طرده ابنه أرسل حوشي لكي يدبر رأياً قائلاً امض إلى أبيشالوم لكي تبطل مشورة أخيتوفل، وأي مشورة كانـــت أرسلها على يد يوناثان واثناس ابني الكهنة. وأيضاً كان يقـــول أبطل لي يا ربي وإلهي مشورة أخيتوفل. أترى لا يجد الرب ملاكاً يرسله إليه لكي يعرفه كمال الشيء حتى أرسل حوشي يبطـــل رأيه، وهذا إنما قلته لك لكي تعرف كيفية عمل الرب مع عبيده في كل حين أنه دفوعاً يكشف لهم للوقت مـــا يـــسألون عنـــه ودفوعاً يخفي عنهم ولا يعلمهم. وبعـــد ذلـــك صـــلى أبونـــا

باخوميوس، وإذا ملاك الرب ظهر قائلاً له ماذا تنذر أن تعطي رحمة إذا هدأ الرب الغضب ومنع البربر. قال أنا أرسل إلى كنيسة المدينة التي نُهبت مائة أردب قمح وكتباً وأشياءً أخر مما يحتاج إليه. ولما سمع هذا من ملاك الله أخبر الإخوة لما قد استعلن قبل أن يكون، وهكذا انهزم البربر في الغد ورجعوا إلى خلف كما قال له الملاك.

اتضاع الأب والمناظر الإلهية والاستعلانات الروحية

وفي بعض الأيام أتى الأب باخوميوس إلى دير طبانسين من بعد أن أمر تادرس الإخوة أن يلحموا حبال المسدية خلاف العادة السالفة، ولما أتى الأب لوقته قدم حصيراً وجلس ينسج فيها على العادة القديمة، فاجتاز به شاب من إخوة الدير وقال له ليس العمل كذا أيها الأب لأن أبانا تادرس لطريقة أخرى قلدنا للعمل لا كما تعمل أنت، فأجابه الأب بعظم فرح قائلاً كيف يجب أن اعملها يا ابني، ثم نهض لوقته وقال له اجلس أرني المثال لكي أتعلمها فجلس الأخ وأراه إياها وقام وانصرف. فأما الأب فإنه عاد إلى العمل فرحاً مسروراً لكونه استحق تبكيت القوانين الموضوعة لأنه كان قد أمات الأفكار البشرية وطرد عنه روح الكبرياء واستأصله ولو كان فيه شيء يسير من روائحه لما كان

التفت إلى قول الشاب بل كان زجره لأنه تعدى طوره وجاز مقداره فيما عمل.

وتارة أخرى كان الأب ينسج حصر أيضاً فظهر له الشيطان يتجلى بصورة المسيح وقال له افرح يا باخوميوس لأني جئت لافتقادك، وإذ كان الأب ذا حنكة وتجربة روى في ذاته قائلاً من شأن المناظر الإلهية والاستعلانات الروحية أن تسبي إلى تخيلها ولذة بهجتها وحلاوة منظرها جملة أفكار مستحقيها ورؤياهم ولا تمكنهم يتخيلون شيئاً آخر غيرها وأنا أموري بالعكس لأن أفكاري مقيمة معي وها هي تري فنوناً وألواناً وهذا دليل على أن الظاهر لي من الروح النجس، فلما رآه الشيطان المتظاهر له مفكراً ساهياً أخذ في استئصال أفكاره وتشتيتها فقال الأب في نفسه إني إلى الآن كنت أفكر أفكاراً وليست هي موجودة، عند ذلك طفر بإيمان وثقة كلية للسيد المسيح ودنا منه وهو باسط يديه كأنه يريد أن يمسكه ونفخ في وجهه وفى الحال تلاشى كدخان في عاصف الهواء.

وكانت لتادرس عادة أن يجيء في عشية كل يوم من دير دوناسة الذي كان الأب قلده أقنمته بعد فراغه من أشغاله المنوطة به إلى الدير الكبير بافو بحيث كان الأب مقيماً ليعرض

عليه إما خطبة يكون قد صنفها ليقرأها على الإخوة الخصيصيين به قبل نومهم، وإما فصلاً من الكتب المقدسة السالف تدوينها ليستفهم منه ما لعله يكون فيه من رمز القول وغامض معانيه، وكان هذا دأبه وديدنه على الدوام لأنه لم يكن بين الديرين بعداً شاسعاً.

فعرض في بعض العشيات أنه جاء إلى قلاية الأب على الرسم الجاري ولم يجده فيها بل كان في الكنيسة مصلياً، فصعد إلى سطح الكنيسة وهو يتلو في حفظه ولم يكن يعلم أن أبانا باخوميوس داخل الكنيسة، وفي عروض ذلك تزلزل السطح الذي كان قائماً عليه، وأنه انفجع للحادث وانحدر من هناك ومضى إلى الكنيسة وصلى من أجل المخافة التي كان فيها، ولما بسط يديه لم يقدر يقف من أجل المخافة التي في ذلك الموضع، ولما جلس أيضاً تألم وخاف من أجل ضيق الخوف والزلزلة، فلما رأى إفراط ما اعتراه من الرعب والجزع طفر خارجاً من الباب وهو حائر بالكائن.

ومن بعد فراغ الصلاة صادف الأب باخوميوس بمعزل وفي مكان مفرد وعنده قليل من الآباء القدماء والمشائخ الفضلاء وهو يعيد عليهم الحال قائلاً أن في حال قيامي في الصلاة حسست

كأن الأرض ماجت بي واعتراني شخصة ورأيت رؤيا مذهلة ومن كثرة فزعي كادت ألا قليلاً أن تفارقني نفسي، وصرت كأني في العدم لا في الوجود وحصل فيَّ خشية الله وخوفه الذي إياه جلّ اسمه أسأل أن يثبته فيَّ وفي كافة الإخوة إلى النهاية، لأنه أول الفلسفة وقد أشار بذكره الروح القدس على لسان المزمر إذ قال بدوء الحكمة مخافة الله، وذاك إني عاينت موسى الكبير كليم الله بطور سينا وجماعة الأنبياء الذين كانوا وقتئذ مطيفين بذيل الجبل، وأبصرت تلك النار والظلام والأمور المريعة الظاهرة لهم، وفيما أنا في هذه الشخصة الهائلة دخل أحد الإخوة إلى الكنيسة وهو رعب ذعر جبن وحظى برحمة وعاد خارجاً وشيكاً.

فأجاب تادرس وقال أنا يا أبي كنت ذلك، لأنني لما جئت عشية كجاري عادتي إلى قلايتك ولم أجدك طلعت إلى السطح انتظر قدومك وأنا أهذ في حفظي، ولما تزلزل الموضع بي رعبت وانحدرت ومضيت إلى الكنيسة وإذ زاد هلعي عليَّ أكثر ولم أقدر على الثبات عدت فاراً إلى خارج، فلما سمع الآباء ذلك مجدوا الله مجداً متصلاً المعلن هذه المناظر لمن يشاء. ومتى كان الأب يرى شيئاً من هذه الاستعلانات الخفية ما كان يكشفه للكل، إذ ليس يسعونه بل كان يعلنه لذوي الخبرة والحنكة

الأكيدة إيمانهم ليبني بعضهم بعضاً، لأن القديسين وإن كانوا على الأرض إلا أن تصرفهم في السماء على رأي القديس بولس الرسول.

حادث تقمقم الخبازين

وكان الأب قد حد حدوداً نافعة للأنفس في سائر أديرته، من جملتها أن لا يلفظوا في الكنيسة ولا الخبازين في مباشرتهم أعمال الخبز كلمة بطالة البتة فضلاً عما سواها، بل يدرسوا معلوماتهم، واحد مزموراً، وآخر صلاة وطلبة، وغيره تمجيد الله وشكره.

وفي بعض الأيام تحدث خبازو طبانسين في حال معاناتهم الشغل، ليس حديثاً باطلاً فقط بل وضاراً، فعلم الأب بذلك وفي الحال استدعى تادرس أباهم وقال له انهض في وقتك هذا وامض إلى ديرك واستكشف من الإخوة الخبازين عن الذين خالفوا الوصية البارح في موضع العجين وتكلموا مع بعضهم بعض. فلما سأل وبحث وجد ثمانية عشر رجلاً ولم يكن علم بتحقيق من هو الذي كان أول من أتت المعصية على يده ومن جهته، ومن بعد ذلك رجل إلى الأب وأعلمه بما كان، فقال له الكبير اعلم أن حفظ الوصية هو أول السيرة ورأس الفضائل والإله جلّ

اسمه هو أول من شرعها لأبينا آدم وصارت فريضة على الكل لا سيما الرهبان الذين تجردوا لهذا العمل الحميد وحفظ الوصـــايا وإن كان لأجل أمر صغير وشيء حقير له من الأجر أوفره ومن الثواب أغزره، وتلك الخلائق الكثيرة الذين احتاطوا بمدينة أريحا لما أمروا من مقدمهم يشوع بن نون بالصمت مدة الستة أيام التي داروا بها ولما هتفوا في اليوم السابع تساقطت أسوارها، امتثلـــوا كلهم كبيرهم وصغيرهم وصية رئيسهم بالإذعان والطاعة وكان الناظر يشاهد عجباً عجيباً ألوفاً من النـــاس وربـــوات عـــسرة الإحصاء كأنهم خرس لا يبدون منهم كلمة ولا نطقاً ولما أُمروا بالكلام امتثلوا وتكلموا فتتموا بتوسط الوصي إياهم في الحالين رضاء بالروح ومسرته، وهؤلاء الإخوة فتقدم إليهم أن يتحفظوا في المستأنف ليصفح الله لهم السالف وتحفـــظ مـــن الآن أن لا تتهاون لئلا يكون في الناس مخافة وتكون أنت أيضاً المطلوب عند الرب بخطاياهم.

القدوة الحسنة للرئيس

وفي إحدي السنوات كان الإخوة في حصاد مزارع الـــدير التي في الجزيرة وتادرس معهم مهتماً بالموائد والطعام. فقـــدم في بعض العشيات أبونا باخوميوس من العمل وهو موعوك الجسم

متغلت جداً والنافض عليه تخبطه وتقلقله، فقال لتادرس ابسط لي على الأرض حصيراً لأنطرح عليه، فبسط له حصيراً وطرح تحته مسحاً، فلم يؤثر ذلك بل قال له خذ المسح وخل الحصير وحدها مثل جميع الإخوة، فأخذ المسح وترك الحصير. وجعل يده في وعاء مملوء ثمراً وملأها ومدها إليه لكي يأكل فلم يأخذ ولا قال له أيضاً ضم يدك بل كانت دموعه تجري، فلما نظره تادرس وعيناه تدمع بكى هو أيضاً وقال أنك مريض و لم تشاء أن ترقد على مسح شعر وحتى إلى كف ثمر لم تشاء أن تأخذه أيضاً؟ فقال نعم، لأني خفت من حكم المسيح لئلا أدان له بهذا السبب لأنه يتفق من هو مريض أكثر مني ولم نعلم به، ونكون نحن الذي تحتاجه الإخوة تحت أيدينا ننال نياحاً أكثر منهم، .. لا يكون ذلك .. لأن مقدم الرهبان هو قدوة لهم ومثال عنه يأخذون وبه يتشبهون فيجب أن يكون الرئيس المعلم إشارة صالحة للكل يتصرف بجميع أموره الجسمية والروحية بإفراز كثير من حيث لا يصير لإخوته حجر عثرة في شيء من الأشياء البتة ويكون تعليمه لهم من سيرته وتصرفه ونسكه وهيئته ومن سائر أموره أكثر من تعليمه لهم بأقواله وعظاته، ويتفقدهم في حال الصحة والمرض وذلك أنه قد يكون مرضاً جسمياً من الشيطان

اللعين بإطلاق من الله على سبيل الامتحان فها هنا نحتاج إلى إفراز كثير الذي يمنحنا الله جل اسمه لئلا نستلقي كالفشلين وننهزم من الهجاء كالغير المجربين ونصير مضحكة للشياطين أعدائنا، بل الأولى بنا في مثل هذا أن نتشجع عليه بمؤازرة الله ومعونته بحماسة كثيرة وجلادة نجاهد بإزائه ولا نمل، حينئذ إلهنا الناظر إلينا يزيله عنا وشيكاً فأما إن كان المرض قد حدث عن عارض معروف طبيعي فما سبيلنا أن نعاند الجسد ونزيده آلاماً.

ومتى كان يبصر أحد الإخوة قد عرض له مرض كان يؤيده بالوصايا لئلا تتلاعب به الأعداء ويضحكون عليه، ومتى كان يمرض بعض الفضلا كان هو يتألم معه بما أنه بشر وكان يحرص في شفائه وزوال ألمه.

وعرض أن بعض الإخوة مرض وانطرح على الأرض وطال مرضه ونهك جسمه واستحالت هيئته وبلغ إلى حد الموت، وأنه التمس من أقنوم المائدة قليل لحم لترجع إليه قوته لأنه كان قد ضنى وذاب جسمه ولم يبق فيه إلا العظام، فغفل عنه الأقنوم، وأنه توسل إلى من حمله وطرحه بحضرة الأب مسجي على الأرض، فعرفه بإساءة حاله وانحلال قوته وأنه طلب من الأقنوم يسير لحم يأكله لترجع إليه قوته فلم يجبه إلى ذلك. فلما رآه

الأب أنه أهل لما طلب حزن بسببه وقال للأقنوم أين هو التحنن؟ فإذ أبصرت الأخ دنفاً ضاوياً فلم لم تصرف عنايتك إليه وتهتم به بحسب الفرض الواجب عليك؟ لما استحقرته ورذلته وما قضيت شهوته؟ أما هو عضو من أعضائك؟ هكذا أنت عديم الإفراز؟ .. عند ذلك تاب الأقنوم إليه واستغفر منه وصار يغذي الأخ لحماً مدة ما ولما تماثل عاد إلى أكل السليق والحبوب أسوة بالإخوة.

الإفراز والنسك

ولما كان في يوم من الأيام أخذ الأب معه أخين وركب في مركب صغير ليمضي لافتقاد الإخوة الذين بدير منخوسين، ولما كان المساء وهم البعد في السفينة صلوا على مألوفهم وجلسوا على المائدة وقدم الأخان ما كانا جاباه معهم خبز وجبناً وزيتوناً وتيناً وغير ذلك وصارا يأكلان بغير إفراز والأب فكان يأكل خبزاً ساذجاً فقط وعيناه تدمعان. فلما تأملاه باكياً قالا له: ما الأمر يا أبانا ؟ قال لا شيء. فلما لحا عليه بالسؤال قال لهما بكاي أنا هو لأجلكما لأنكما لا تمسكان شهوتكما وذلك لأن خوف الله ليس هو فيكما ولذلك تأكلان بغير شفقة من كل شيء قدامكما، لأن سبيل من كانت همته معروفة إلى العلويات أن يتنسك في كل شيء من الحاضرات مثل كلمة الرسول. فقالا

له: أفأكلنا الآن مما هو حاضر لدينا خطية؟ فقال لهما لا .. ما في المأكول خطية لا سيما ما كان متيسراً، بل الأكل بعدم الفضيلة التي تحصل لمن تركه وأهمله وقمع نفسه كقول مخلصنا أن ملك السماء للمغتصبين هو، وقال أيضاً أن الطريق التي تؤدي إلى الحياة ضاغطة. وقد قال الرسول أن كل الأشياء تحل لي لكن ليس كلها توافقني، وقال أيضاً كل الأشياء تحل لي لكني أنا ما أدع شيئاً منها يتسلط عليَّ ويستعبدني. وقال أيضاً من يجاهد يمسك من كل شيء. أما تعلم أن الكتب المقدسة دونت لمنفعتنا، فإذا سمعناها وخالفناها تكون موبخة لنا. أما أنا فإنسان خاطئ أقتنع بالخبز والماء لاسيما وأنا خارج بيتي، فإذا عدت إلى ديري تساويت بإخوتي.

وقال لهم إن الأكل بقدر ليس هو خطية وإنما هزيمة الرهبان هي أن تسود عليهم الحنجرة ويتعبدوا للشهوة. وقال أيضاً سبيل الراهب أن لا يكتفي على نسك الجسد والتعب الظاهر وحده، بل أن يحصل خوف الله ساكناً فيه لأنه هو الذي يحرق الأفكار الرديئة ويفنيها كمثل النار التي تحرق الصدأ وتنظف الحديد من الأوساخ، كذلك خوف الله يطرد كل رذيلة من الإنسان ويجعله

إناء للكرامة يصلح لعمل الله. فلما سمع الأخان منه هذه الخطوب تخشعا وانتفعا جداً وأخذا في مماراته.

تعاليم للقديس باخوميوس

وكان الأب على الدوام يعلم الإخوة ويقول لهم: لا تجهلوا حيل العدو ودقائقه بل قاوموه بقوة الرب على رأي القائل بإلهنا نصطنع القوة وهو يهين محزنينا.

وكان يلخص لهم الرموز النبوية الدالة على تأنس الإله الكلمة ربنا يسوع المسيح وصلبه وقيامته وارتقائه إلى السماء كقول إشعياء النبي أن صبياً ولد لنا وابناً رفع إلينا والكبش المشدد بقرنيه في شجرة (شابيق)، وإسحق الضحية، قد كان ذلك رسوماً رمزية تنحو إلى الأمور الخفية، وإبراهيم قال في هذا المعنى أن الرب ظهر في الجبل. وحبقوق قال أن قروناً في يديه وفروسيته تكون خلاصاً ويسلكون في نور بروق سلاحك، والإنجيل المقدس يقول أن الكلمة صار جسداً وسكن فينا ومن أجل قيامته قد قال الرسول بولس السعيد فإذ قد قام المسيح وانبعث من بين الأموات وصار أول المنضجعين. وأما عن قيامة سائر الخلائق فبما أننا جسم للرب القائم من بين الأموات فسنقوم لا محالة إذ كان مقدم عجنتنا قد انبعث من الموت،

والرب نفسه يقول ستأتي ساعة يسمع فيها كل من في القبور صوت ابن الله والذين يسمعونه يقومون أما الذين عملوا الحسنات فإلى قيامة الحياة، وأما الذين عملوا السيئات فإلى قيامة الدينونة. فإذ عرفنا هذا أيها الإخوة فلنجتهد في العمل الذي يقربنا من ربنا.

تعاليم وقوانين القديس باخوميوس

وكان الإخوة على الدوام يتذكرون أقواله ويقصونها كبيرهم لصغيرهم من حيث لم يكن مطلقاً لهم أن يلفظوا فيما بينهم كلمة باطلة من أقوال هذا العالم إلا كل حديثهم كان في التعاليم الإلهية نصاً وتفسيراً، وبهذه المعاني الجيدة والمخاطبات الرشيدة كانت مفاوضتهم على الدوام وذكر الموت لا يخلو من قلوبهم الذي هو أس الصالحات وعنصر كل الخيرات، وبهذه السيرة الحسنة جازوا أعمالهم في مرضاة خالقهم، وما كان أحد منهم يقدر أن يزور أخاه ويدخل إلى قلايته ولا أن يعمل شيئاً من الأمور كبر أم صغر دون استئذان الأقنوم المقدم عليهم.

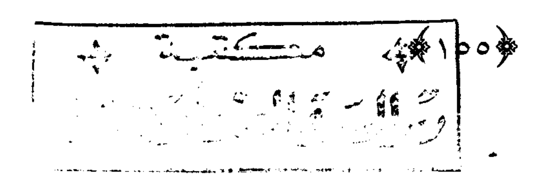
وكان أبونا باخوميوس دائماً في كلام وعلم القديسين وكان يصلح نفوس الإخوة مثل كرم جيد يفلحه بستاني مجتهد، وكان قد سلم إليهم نواميس وحدوداً بعضها مكتوب في مصاحف

ويعضها مرسومة في مواضع الاجتماع للأشغال، وإن خـــالف أحدهم شيئاً فيها يأخذ قانون عقوبة عن مخالفتـــه كاســـتحقاق الأمر الذي يخالف فيه لكي يكون له غفران من عنـــد الـــرب ويكون الخوف للبقية لكيلا يخالفوا قوانين البنيان الموضوعة لكي يكون اجتماع الشركة ثابتاً بغير اضطراب.

وكان أيضاً قد أمر الإخوة الخدام في أشغال الدير البرانية أن لا يدخلوا شيئاً من الأخبار إلى المجمع البتة بل إذا قال واحد من البرانيين لواحد منهم من أجل واحد من الرهبان يناسبه بالجسد أو أعطي له إليه رسالة يمضي إلى أب المجمع يعلمه بـــالأمر أولاً ويعطي له الرسالة فيمتحن الأمر إن كان ينفع الأخ المرسول له وإلا يخفي ذلك عنه، وكل خبر كانوا يسمعونه عن كان هـــو نافعاً وإلا فليس يخبرون به أحداً من الإخوة بل كانوا يقولونـــه لأبينا باخوميوس أو لأقنوم ذلك الدير. وكان الأب يوصيهم إذا اجتمعوا أن لا يميلوا إلى أخبار غريبة ولا يأتي إلى مسامعهم شي من الكلام البراني .. وهكذا كانوا مثل أناس قد انتقلـــوا مـــن الأرض إلى السماء لأنه لم يكن لهم هم غير اتفاقهم مع بعضهم بعض في كلام الله وأخبار القديسين.

وإذا كانوا ماضيين في طريق إلى موضع أو ماشيين في المجمع كانوا يتلون في قلوبهم ما يحفظونه حتى لا يجد إبليس قلوبهم بطالة فيبذر فيها ضمائره الردية، وإذا كانت الحاجة أن يركب أحدهم دابة كان يسوقها بترتيب لأجل مخافة الرب. حتى أن كل من يراهم كان يمجد الله وكانوا أيضاً إذا التقى أحدهم برئيس أو جندي وهو راكب دابة يحيد عن الطريق أو يترل لكي يمجد الرب، وكانوا إذا لقيتهم امرأة في طريق وتريد أن تكلمهم من أجل أمر ما فكان الكبير منهم يتقدم يكلمها بدعة من حيث لا يرفع نظره إليها خائفاً من المكتوب أن من نظر امرأة واشتهاها فقد زنى بها في قلبه، وكانوا إذا ركبوا سفينة يهتمون بجميع خدمتهم ويكملوها وهم يتلون فيما يحفظون حتى لا يكونوا ناقصين عن الإخوة الذين في المجمع في شيء من الأمور.

وكان الأب إذا سمع أحد الإخوة القليلي المعرفة يتكلم كلاماً ليس فيه منفعة كان يدعوه في خلوة ويعلمه الكتب بأناة وطول روح قائلاً يجب على الرجل المؤمن أن يعلم الكلمة التي يريد يقولها إن كان يكون لنفسه فيها منفعة وللذي سمعه أيضاً أم لا، مثل الكلمة المكتوبة أن الحكيم يعلم ما يخرج فيه، وكان إذا



أبصر واحداً ليس هو قليل المعرفة بل يتكلم باطراح وقلة مخافة كان يوبخه قدام كل أحد لكي يكون للبقية خوف.

الإفراز في الكلام

وفي أحد الأيام سمع أحد الإخوة يتكلم مع صبيان وهو يقول هذا هو أوان العنب، فلما سمع هذا انتهره قائلاً: أجساد الأنبياء الكذبة ماتت، بل روحهم الآن تطوف أيضاً في الناس لكي تجد فيهم محلاً، وأنت الآن لماذا أعطيت للشيطان هكذا موضعاً لكي يتكلم فيك حتى يشك قوم قليلون المعرفة بسبب الكلمة التي قلتها لشهوة الثمرة الفانية التي سميتها من فيك بقلة إيمان قلبك التي تطغي وتغرب من الله .. أليس نفسك تؤخذ عوض نفسه لأنه مكتوب نفس بنفس .. أما سمعت الرسول قائلاً إن كل كلمة ردية لا تخرج من أفواهكم بل كل كلمة صالحة التي لبناء الحاجة لكي تعطي السامع نعمة .. أما تعرف أن الكلمة التي قلتها ليست تبني رفيقك بل تهدمه، ولماذا قلته؟ .. وأنا الآن أشهد لكم أن كل كلمة بطالة أو هزوء أو لعب أو كلمة جهل أو فرجة هذه هي زنا للنفس، وأعرفكم مقدار غضب الله الذي يكون على الإنسان الذي يتكلم بكلام الباطل والهزوء والضحك مثل رجل غني دعا أناساً إلى وليمة لكي يأكلوا ويشربوا

ويفرحوا، فلما اتكأ المدعوون قام بعضهم يلعب ويلهو وكسروا المواعين التي في بيت الرجل، أليس يغضب عليهم قائلاً يا غير شكورين دعوتكم لكي تأكلوا وتشربوا فبأي نوع لعبتم وكسرتم المواعين، كذلك يغضب الرب على الناس الذين دعاهم لدعوته قائلاً دعوتكم لتتوبوا عن خطاياكم وتخلصوا هدمتم نفوسكم ونفوس الذين جمعتهم لي أيخلصوا بالضحك والكلام الباطل ..؟؟

شيطان الحنجرة والنهم

وفي بعض الأوقات توجه الأب لزيارة الأديرة، ولما حصل في دير (منخوسين) وكان في وسط الدير شجرة جميز هائلة كبرى وشامخة عظيمة وقد جرت عادة بعض الشباب يصعد إليها سراً ويجني من ثمرها، فلما دنى الطوباوي منها عاين روحاً نجساً جالساً في وسطها فعلم بالروح القدس الساكن فيه أن ذلك الروح الخبيث هو شيطان الحنجرة والنهم وهو الذي يخدع الشباب من الإخوة ويحسن لهم ثمرها ويحثهم على الصعود إليها واجتناء ثمرها.

وأنه استدعى الجنائني وقال له اقطع هذه الجميزة واعقرها من ها هنا لأنها سجس للذين رأيهم غير مكين وسمح هو أن

تقف هذه في الدير، وأن البستاني حزن جداً وقال له لا تفعل أيها الأب لأن في كل عام يجنى منها برسم الإخوة ثمر وافر ويحصل لهم منها عزاء وافر فلما رآه الأب شفقاً لأجلها حزيناً عليها، ما أكرهه بسببها زائداً إذ كان لا يشاء غم إنسان من إخوته لا سيما خدمة الدير، فأجابه على تركها قائلاً مشيئة الله تتم فيها. ومن بعد أيام قلائل يبست الجميزة من أصلها.

عدم القنية

وقد كان أحد الرهبان متولياً ما عتق من ثياب الإخوة يرقع الثوب الذي فيه بعد قوة من خرق الثوب الخليع ويلم شعثها ويغسلها ويخبيها في بيت مفرد، ومتى كان يتسخ ثوب أحدهم ويشاء غسله يمضي ويأخذ له ثوباً من الثياب العتق المرقعة يلبسه إلى أن يغسل ثوبه وينشفه فيلبسه ويعيد الثوب العتيق إلى عند الراهب خازنه. لأنه ما كان يقتني أحدهم إلا ثوباً واحداً ووشاحاً من سلوخ الغنم أو المعزى لا غير، لأن دفأ المكان كان يعينهم على قلة الكسوة، فأما ذهب أو فضة أو شي من القنيان فلم يكن لأحدهم خاصة وكثيرون من الإخوة أجازوا أعمالهم وقضوا آجالهم وما مسكوا ديناراً بأيديهم ولا نظروا شخصه ولا الكتابة التي عليه، ولم يكن الدرهم ولا الفلس يظهر البتة بين

الإخوة وخدام الدير كانوا متى ما اتجه لهم دينار في الحال كانوا يرفعونه إلى الأقنوم الأول وذلك كان يصرفه في مهمات الدير عند الحاجة.

وكان الأب دائماً يقول: الرهبان لابسو الزي المقدس المقيمون بالأديرة لا يليق بهم أن يقولوا لي ولك ولذاك، الجماعة المشتركة ما سبيلهم أن يسموا شيئاً خاصاً لواحد منهم ولا يدور فيما بينهم لي ولك ولذاك وإلا فما يليق أن تدعى كنونية أي عيشة مشتركة بل مجمع لصوص ومغائر مملوءة رذيلة وسلب الأشياء المنذورة لله تعالى.

الطاعة

وفي بعض الأوقات كان قد اجتمع عند إسكاف الدير معمول فضلة عن حاجة الإخوة مثل مداسات وغير ذلك، فدفعه إلى خادم الوسط ورسم له أن يبيع ذلك في المدينة ويجلب له الثمن ليصرف في أسباب أخر وحدد له ثمن كل صنف منها وقننه بالثمن الراخي الرخيص حسبما يليق بالسيرة فتسلم الأخ خادم الوسط المعمول ومضى باعه وجلب الثمن ودفعه إلى الإسكاف. فلما عده وجده ينيف عن ضعفي ما حدّه ورسمه له، فأنكر ذلك وفي الحال مضى إلى عند الأب وقال له ما أصبت

أيها الأب انتدابك لهذا الأخ في مثل هذه الخدمة لأن الرأي البشري والمعقول الجسدي فيه بعد. وذلك أني دفعت إليه معمولاً كان قد فضل عندي مثل مداسات وغيره ليبيع ذلك وقننت له ثمناً معلوماً فجلب لي أزيد مما رسمته له بكثير، فأنكر الأب ذلك واستدعى الأخ إليه وقال له لما خالفت ما رسم لك وجنحت إلى الأكثر الأمر الغريب من سيرة الرهبان؟ فأجاب الأخ هكذا أقول لدى الله وأبوتك وما أكذب أن الثمن الذي رسمه لي إياه قلت للمبتاعين من حيث لم أزد من عندي شيئاً فكانوا يجاوبونني قائلين إن لم يكن سرقة وإلا أكثر مما ذكرت يساوي، فكنت أنا أخجل من جوابهم وأقول لهم ما هو سرقة بل كذا رسم لي من أعطاني إياه الآن أعطوني أنتم ما اخترتم، فصاروا يعطوني هم بحسب إيثارهم وأنا لم اعد ما أخذته منهم بل جمعته بمكان واحد وجبلته وسلمته إلى الأخ من حيث لم أعلم ما هو.

فلما سمع الأب اعتذاره قال له بئس ما عملت، لقد أخطات جداً إذ جلبت الأزيد، ثم قال للإسكاف أعد من الدراهم بإزاء الثمن الذي رسمته له وادفع الفضلة إليه، وقال لذاك رجع الفضلة إلى أصحابها كل واحد بقسطه بحسب ما يعلم هو، حينئذ هلم

إلى ديرك والزم قلايتك وتب عن ذنبك ومارس عمل يديك لأن هذه الخدمة لا توافقك بل أذية هي لنفسك، ففعل الأخ ما أمره رجل الله ثم انتدب آخر عوضه وسلم إليه خدمة الوسط.

وحدث في وقت ما جوع حتى لم يوجد في أرض مصر والإسكندرية وما يليهما من القمح شيء، وأعوز إخوة الدير من الحنطة أعوازاً كلياً، فدفع أبونا الكبير إلى الأخ المتولي خدمة الوسط مائة دينار عيناً ورسم له أن يطوف البلدان الشاسعة لعله يجد حنطة يبتاع بها ويعود إلى الدير. فتسلم الأخ الدنانير وتزود صلاة الأب وركب في سفينة وطاف مواضع بكثرة، وإذ لم يجد شيئاً قصد قرية جامعة تدعى أرموتيم (أرمنت) وبسياسة إلهية وجد هناك إنساناً مباركاً حسن السيرة متصرفاً تصرفاً حميداً، وكان هذا الإنسان قد سمع سماعاً صالحاً عن الأب باخوميوس والإخوة الذين معه. هذا الإنسان كان تولى بيع حنطة تختص بالكل لينصرف ثمنها إلى والي البلد عن (ديموس) كان عليهم، فتقدم الأخ إليه وعرفه خبره ومن أين هو وسأله أن يبيعه بمائة دينار حنطة، فأجابه ذلك الإنسان قائلاً: لو كانت هذه الحنطة تختص بي وكنت إليها محتاجاً لقطعتها من أفواه أولادي وأعطيتكها لأنني مشتاق لنظر الأب باخوميوس والإخوة الذين

معه لما يتصل بي من جميل أخلاقه ونسيم أعراقه، لكنها للوسط برسم أداء (الديموس) والوالي إلى الآن ما طلبها ولا يطلبها إلى أوان البيدر على ما قد صح معي، فإن شئت خل دنانيرك معك تتصرفوا بها في جهات أخرى من أسباب الدير وخذ على سبيل القرض مهما اخترت كيلاً بكيل وفي أوان البيدر وانفساح السنة اجلب لي حنطة عوض ما تأخذه - هذا تصل يدي أعمله - إكراماً لذلك الأب المبارك وجماعة الإخوة، ورغبة مني في صلواتكم قاطبة.

فأجابه الأخ بشكر وثناء غزير وقال له ما أشاء ذلك لأن حمل الحنطة في هذه المسافة الشاسعة يثقل علينا جداً، بل إن رأيت وسهل عليك فخذ مني هذه المائة دينار وأعطني بها حنطة ثم أعطني بمائة دينار أخرى صبراً إلى أوان البيدر إن كان ذلك ممكناً لك وأنا عند الأجل المحدود أجلبها لك لأن حمل الدنانير أسهل عندنا وأيسر جداً من حمل الحنطة.

فأجاب ذلك الإنسان قائلاً يمكنني ذلك ويسهل عليَّ وإن شئت خذ بأكثر مما طلبت وإن طلب الوالي مني المال قبل ما تجلبه أنت أعطيته من مالي واعتد لكم بالمنة مني في صلواتكم فتشكر له الأخ أيضاً وقال لا نحتاج أكثر من هذا.

عند ذلك أعطاه بمائتي دينار حنطة على سعر ثلاثة عشر أردب بدينار، وقبض المائة دينار وصبر عليه بالمائة الأخرى إلى البيدر ونقل الحنطة على بهائمه إلى المركب وامتلأ وسقاً وزود الأخ واصرفه بسلام.

وانكفى الأخ عائداً وهو فرح بهج، ووصل بفضل الله معافى سالماً وأرسل من المينا أحد النواتية يبشر الأب والإخوة بما كان، أما الإخوة فاستبشروا وسروا لأنهم كانوا معوزين وأما الأب فحزن جداً، فلما شاهده الإخوة الحاضرون عنده في ذلك الوقت حزنه وكآبته قالوا له ما سبب حزنك أيها الأب؟ فأجابهم الكبير: وكيف لا أحزن على نفس من تبع إرادته وهواه وخالف ما رسمناه له وجنح إلى الزيادة والاستغنام باختياره وجعل إحسان المعطي وحنوه ومحبته للبشر سبيلاً للشره والاستكثار وجلب لنا فضلة عن حاجتنا وجعل علينا ديناً لا سبيل لنا إلى وفاءه، وجملة الأمر أنه عمل مشيئته وخالف أوامر آبائه وإخوته. ثم أرسل إليه يقول بئس ما عملت وألف بئس .. الآن لا ترسل من الحنطة إلى الدير ولا حبة واحدة ولا ترني وجهك إلى أن تتم ما آمرك به وهو أن تبيع من الحنطة للعلمانيين أهل البلد بمائة دينار سوى وهي التي صارت معك لا بالسعر الغالي الذي هو

سعر اليوم بل سعر ما ابتعتها أنت ثم تأخذ باقي الحنطة وتعيدها إلى صاحبها وتجزيه خيراً وتخلص رقابنا من دين (الـــديموس) وتبتاع لنا من جديد حنطة بسعر ما تباع الحنطة بالمائة دينـــار الخصيصة بنا من غير زيادة ولا يكـــون علينـــا وزراً ولا ثقـــلاً فيكفينا ما لنا.

ففعل الأخ ما أمره به، ولما تقصى منه ذلك الإنـــسان عـــن السبب أعلمه بما كان، فلما سمع تعجب من عميق هـــذا الأب وإفرازه، وقبل حنطته بحزن وأخذ منه المائة دينار التي باع بهـــا الغلة المعطاة له صبراً، وما زاد على سعر خمس أرادب بـــدينار حسب ما كان سعرها في ذلك الوقت وأثر أن يعطيه بركة شيئاً آخر فلم يجب الأخ إلى أخذ ذلك، وهكـــذا عـــاد إلى ديـــره واعترف لدى الأب بغلطه فغفر له ووعظه كما يجب وعزله عن خدمة الوسط كمريض بحب الفضة ورتب غيره في الخدمـــة و لم يفسح له أن يخرج من الدير في خدمة ما لكنه ألزمـــه النـــسك والتفرد في قلايته.

عناية الله

ولما كان في وقت عازوا قمحاً لحاجة طعـــامهم و لم يكـــن بيدهم دراهم، فحزن الإخوة جداً من أجل المسكنة، فكلمهـــم

أبونا باخوميوس وعزاهم قائلاً أنا أؤمن أن الله لا يغفل عنا والآن هوذا ها هنا بساطان جيدان قد جاء بهما إنسان خير للإخوة نبيعهما بما يبلغ ثمنهما وننفقه حتى يعد الله لنا حاجتنا. ثم مكث الليل جميعه يصلي ويطلب من الله ببكاء من أجل تدبير الجماعة، فلما كان الصبح بتدبير من الله ومحبته الكثيرة للبشر، دق باب الدير رئيس المدينة فلما فتح له الخادم قال له الأب قل له أني قد برزت بقليل قمح للمحتاجين من أجل خلاصي، وفي هذه الليلة قد عرفت في الحلم أنكم محتاجون إليه فأرسلوا من يأخذه، فلما أوصل البواب الخبر لأبينا تعجب وقام خرج وكلمه قائلاً نحن محتاجون القمح بل أعطنا مهلاً حتى يسهل الرب بثمنه نعطيه لك. قال له الرجل لم آت به إليك من أجل ثمن ولا شيء بالجملة بل من أجل خلاصي وبخاصة لأنكم رجال الله، فأنفذ الأخوة ليحملوه. فأخرج له بركة بلسان وبقولات وخبز فأكل ثم بارك أبونا عليه وذهب من عنده فرحاً بإيمانه فيه، وان أبانا باخوميوس جلس وكلم الإخوة بكلام الله وعلى عطيته التي صنعها معهم سريعاً فتعجب الإخوة ومجدوا الله كثيراً.

سهر الليل

وفي بعض الأوقات ركب أبونا باخوميوس مع اثـــنين مـــن الإخوة في مركب قاصداً افتقاد الأديرة الخصيصة به، ولما صـــار المساء قال لهما أتؤثران أن نسهر في هذه الليلة ونصلي مشاعاً أو يصلي كل واحد منا بحسب اختياره. فقالا له الأوفق أن نشترك في السهر والصلاة. فقال لهما ثلاثة رسوم سهر تعلمتها من أبينا القديس بلامون: إما أن ننام ساعتين في أول الليل ثم نقـــوم في الصلاة إلى أن يبقى من الليل ساعة واحدة عند ذلك نختم الصلاة وننام إلى الصباح لراحة الجسد، وإما أن نسهر من أول الليل إلى أن يبقى ربعه عند ذلك نختم الصلاة وننام إلى الصباح، وإما أن ننام ربع الليل الأول ونسهر إلى الـــصباح. فاختـــاروا القـــسم الأخير، وناموا أول الليل ثم قاموا منتصبين في الصلاة وتمجيد الله فضجر أحدهم وغلبه النعاس فسجد ومضى رقد فأمـــا الآخـــر فثبت مع الأب بعد رفيقه وقت ما ونعس فسجد ومضى أنهض رفيقه وأرسله ورقد هو في خن المركب وذاك الذي أطال الرقاد وتعب مع أبينا في المقذاف إلى الصباح من حيث لم يسترح الأب ولا غفا. ولما حصلوا الشاطئ سمع قرنيليوس أقنوم الدير الـــذي كان الكبير قصده بقدومه، فخرج مع جماعة الإخوة إليه، ولمـــا

شاهدوه سجدوا له وسلموا عليه وتحدثوا أولاً بما عاد بخـــلاص النفوس ثم في ضروريات الأمور.

وبعد ذلك انفرد قرنيليوس الأقنوم مـــع أحـــد الأخـــوين الواصلين مع الأب وقال له سراً كيف كانت مصاحبتكما للأب في الصلاة والسهر في هذه الليلة؟ قال له: أما نحن فإننا ذبنا مـــن السهر وانغلبنا للنوم ورقدنا الواحد بعد الآخر والشيخ ما انقهر ولا رقد إلى وقتنا هذا. فتبسم قرنيليوس وقال له يا أقل النـــاس جهداً تخليان شيخاً لا قوة له يغلبكما وأنتما شابان .. وفي حال خطابهما سمعهما الأب باخوميوس وتظاهر كأنه لم يسمعهما.

وفي ذلك اليوم لم يمضي الأب إلى الدير بل بات في المركب وقرنيليوس معه، ولما كان بعد العشاء قال الأب لقرنيليوس أتشاء أن نعمل صلاة ثم نرقد قليلاً؟ فأجابه ذاك كما تشاء أنت أيهـــا الأب، ولما أخذا في الصلاة بدأ الشيخ يطول ويطنب مجرباً صبر قرنيليوس، وأما الأخوين اللذان كانا مع الأب فلما عاينا تقضي الليل سجدا وخرجا من المركب وانفردا بمعزل ورقدا.

وتخلف الأقنوم مع الأب ومد الصلاة إلى وقت باكر، حينئذ قال قرنيليوس للكبير ما الذي صنعت بك أيها الأب حتى عاقبتني هذا الليل جميعه و لم تدعني أشرب قليل ماء بعد خروجي مـــن

العشاء؟ فأجابه الأب قائلاً يا قرنيليوس .. تخل شيخاً لا قوة له يغلبك وأنت شاب؟ حينئذ علم الأقنوم أن الأب سمع خطابه مع الأخ فأجاب أخطأت أيها الأب اغفر لي لأنني لم أقل صواباً بالحقيقة أن الروح القدس الساكن فيك وأيدا وقوة من الله حالان عليك. حينئذ استراح قليلاً ولما أضاء النهار مضوا إلى الدير وتفقدا أحوال الإخوة وزودهم بركاته. وأخذ صلواتهم وعاد إلى ديره.

في تدابير القديس باخوميوس

وفي بعض الأيام كان أبونا باخوميوس سائراً في طريق وتادرس معه، فعبرا على قبور وعندها نسوة يندبن وينحن ويهملن الدموع من أعينهن كقطر المطر، فقال لتادرس ألا ترى هؤلاء كيف ينحن ويبكين على أموات لا سبيل لهن إلى إقامتهم، فكم بأكثر يجب علينا نحن المسمين رهباناً أن نندب ونبكي على أنفسنا المائتة بزلاتها التي نؤمل من رحمة إلهنا تعالى أن يقيمها ويحييها، لأن الكتاب يقول قم أيها الهاجع وهب من الأموات ويشرق لك المسيح ضياءه، وعل كل حال البكاء ممدوح هو إذا كان بقصد صالح وقد قال المزمر عييت من زفراتي أحم في كل ليلة مضجعي وأبل فراشي بعبراتي. وقال أيضاً البكاء يحل مساء

والابتهاج صباحاً، عنى بالمساء هذه الدار وبالصباح تلك. وقد بكى يوسف على إخوته وندب لأجل خلاصهم ليس دفعة بل دفعات، كذلك ناح إرميا النبي نادباً على سبي الشعب إذ كانت مترلتهم منه مترلة الأولاد وسائر الآباء القديسون بالبكاء فازوا.

وكان أبونا باخوميوس إذ رأى واحداً زواناً يريد ينجس صورة الله لم يكن يغفل عنه أن يقلعه من وسط الزرع الصالح لعلمه أن راحة واتساعاً يكونان للمستقيمين بفرقة هؤلاء، وإذا وجد صبياً قد طغى من بني البشر إن كان أحد لم يعلم بالأمر كان يداوي نفسه في الخفية وإذا وقع أيضاً في زلة ويرى أنه يقدر يداويه كان يجاهد ويحرص أن يخطفه من يد إبليس إذ يذكر قول الرسول إن كانت يد إنسان امتدت إلى زلة فأنتم يا معشر الروحانيين اعدلوا هذا هكذا بروح دعة والذين كانوا بحريتهم يصيرون بنين إبليس بهواهم كان يعريهم شكل الرهبنة ولبسهم ثياب العلمانيين ويخرجهم من الإخوة.

ولما كان أيضاً في بعض الأيام وجد حدثاً كائناً بنوع رديء نجس كما هو مكتوب من أجل قوم آخرين أن الذين يعملونه في الخفية قبيح أن يقال، فأخذ لباس ذلك الرجل وثيابه وفرشه

وقلصوته وحذاءه وشقته وجلده وأحرقهم بالنـــار في وســـط الإخوة وجعلهم طرحوا رمادهم بعيداً عن المجمع وأخرجه.

وكان لما مضى الإخوة إلى الإسكندرية دفعة من أجل حاجة عمل أيديهم وعندما عادوا إلى الصعيد أتوا معهم بثلاثة رجـــال يريدون أن يترهبوا ولما فحصهم وجد أحدهم زواناً من صغره، وأنه دعا أحد الإخوة ممن يثق به وقال له أن هذا الرجل قد صار في نجاسات كثيرة وعسر أن يبدل هذا هكذا شكله ويتغير عـــن حاله إلا أن يسلم نفسه وحده للموت حتى يخلص بنسك وتعب ويكون له واسطة رجل روحاني يدبره في كل شيء حتى يعرف نفسه وحده، وأنا لا أستطيع أن أحمل ثقل هؤلاء وحـــدي لأني غير متفرغ لهم لأجل أن الاهتمام بكل الإخوة ملقى على وهذه الطائفة هكذا عسر عليهم أن يخلصوا في الشركة بحكم أوجـــاع الخطايا التي ملكوها عليهم، وأخاف أن أكشف سيرتهم لـــبعض الإخوة ليساعدوهم في عمل الرب لئلا يكون واحد بقلة مخافـــة وقلة أمانة إذا سمع بالأنواع الشريرة التي كانوا فيها فيقع في فخ إبليس مع هؤلاء هكذا، وإذ قد جاء إلينا هذا مع هؤلاء الرجال فنحن نقبله معهم ونوصيه أن لا يعمل سيرته الردية فينا فإن هو استقام وتاب وإلا أخرجناه من عندنا لأن النـــاس الأشـــرار إذا

كثروا عند بعضهم بعض يأتي غضب الله على القوم الآخرين بسببهم لكي يكونوا في لعنة فلا ينمو كما هو مكتوب إن الخطية تجعل الأسباط تقل، وإذا طردوا الأشرار من شعب الرب يسوع المسيح تحل بركة الرب عليهم ويكونون مثمرين في البر وقد قلت أن عسر أن يبدلوا هؤلاء هكذا شكلهم، ليس لأنهم خلقوا هكذا بذات طبعهم بل لأجل العادة التي ملكوها عليهم بحريتهم وحدهم كما هو مكتوب أن الله خلق الإنسان على الاستقامة وهم طلبوا لهم أفكاراً كثيرة من أجل سلطان الحرية قد قال حزقيال النبي إذا ولد رجل لا ناموس له يهرق الدماء ولداً ورأى هذا جميع آثام أبيه فخاف ولا يمشي فيها بل يفعل البر فبره الذي يفعله يحيا به وليس يموت بآثام أبيه.

وليس لأجل أن ما لهم توبة نطردهم، بل لأننا لا نستطيع أن نتفرغ لهم ونترك الجهاد بغير افتقاد فينحلوا ويتنجسوا فنكون مثل فلاح يريد ينقي أرضاً خرساء كلها شوك ويترك الأرض الجيدة بغير تفليح فتنخرس هي أيضاً إذا نبت فيها الشوك والقرطب وأنت فقادر أن تؤازره حتى يعرف ذاته.

ثم أخذ الإسكندراني الذي تقدم ذكره كلمه في خفية، ولما دخل به إلى الإخوة أعطاه نسكاً وأتعاباً لكي يقبلها فيحيا إلى

الأبد لأنه أمره أن يصوم كل يوم إلى المساء وأن يأكل دون الشبع قليلاً وقال له بكل حفظ احفظ جسدك بطهارة من اليوم ولا توافق شيئاً من الأفكار الردية التي تخطر على قلبك واحرص أن تعمل ليالي سهر في الصلاة دفوعاً كثيرة لكي يتغرب منك بالكمال ذلك الروح الشرير الذي صرت له عبداً، وعندما تتنسك وتتعبد كن بكل اتضاع قلب قائلاً في نفسك أني قد أغضبت الله دفوعاً كثيرة فإذا أنا حفظت كل الذي أعطى لي بالحري أستحق الحياة وأخلص من النار التي لا تطفأ والدود الذي لا ينام ولا يموت، وإذا نظرك الإخوة تتنسك وأكرموك لكوهم غير عالمين بما عملت من الخطايا قل هكذا في قلبك يارب لو كان هؤلاء لا يعلمون الخطايا والآثام التي صنعت وأعمالي الردية ليس أهم لم يكونوا يكرمونني بالكلام فقط بل ولا كانوا ينظرون إلىّ بالجملة حتى لا يطلع على قلبك شيء من أفكار المجد الباطل لئلا تزيد خطايا على خطاياك، وإذا لعنك واحد في أمر احتمل بشكر قائلاً في قلبك أنني قد أغضبت الله دفوعاً كثيرة وشتمته بأعمالي الرديئة وكن أيضاً خاضعاً ومطيعاً للإخوة الذين أنت تحت طاعتهم مثل القوانين الموضوعة لنا لكي ينظر الله تواضعك وتعبك فيغفر لك جميع خطاياك كالمكتوب،

وكل شيء تصنعه تكون تصنعه بخوف الله، ولا تعمل شيئاً من الأعمال بسبب مجد الناس لئلا يكون تعبك باطلاً ويملك عليك إبليس دفعة أخرى.

ولما سمع ذاك الوصية تعبد جداً حتى أن جميع الإخوة تعجبوا من نسكه وأتعابه، ولم يكن أحد منهم يعلم أنه آخذاً أمــراً أن يتنسك هكذا إلا الأخ الذي تكلم معه لأجله فقد كان يعلم كل شيء، وذاك فقد كان حدثاً وقوياً في جسده فأقام تسع ســنين يتعبد جداً، بل ليس بخوف الله وأفكار الأوجاع لم يقطعها عنه.

فلما كان في السنة التاسعة بعد كل هذه الأتعاب مال قلبــه إلى عزيمة ردية ليصيد نفساً ويقتلها، فلما علم الأب بما كان منه استدعاه وفحصه، فاعترف بالفكر الذي طاب قلبــه ليفعلــه، فأخرجه للوقت من الإخوة.

الأخ سلوانس

وكان أخ اسمه سلوانس له من عمره ستة عشر سنة أو سبعة عشر، وكانت صناعته في العالم مغنياً مخيلاً، هذا أتى إلى الــدير يريد يترهب، ولما سأله الأب عن سيرته فعرفه الحدث كل مــا حل به في العالم وقرر أنه لا يعود إلى هذه الأعمال دفعة أخرى

بل يتدل ويصير إنساناً آخر بأعمال صالحة، حينئذ أوصاه كالأول وقبله.

فأقام في الدير عشرين سنة، هذا في مبادئ أمره أظهر سيرة حميدة، وسلك سبلاً رشيدة وقتاً ما، ثم فتر وفشل وأهمل خلاصه وعاد إلى قبيح مرساه من المزح والمجون والنوادر ذات الفنون والأقوال الفظيعة والأغاني الشنيعة ليلاً ونهاراً، وقدام الإخوة جهاراً.

فلما سمع الأب عنه هذه الأخبار الردية والشؤون السيئة استدعاه إليه وعاتبه ووعظه وأيقظه وعرفه ما يحتاج إلى معرفته مما يعود بخلاص نفسه وأصرفه من عنده مترجياً إفاقته فلم يفعل مما أوصاه الأب شيئاً، بل عاد إلى شره وسطا ونخا، فاستدعاه الأب أيضاً وفنده وردعه وغلظ له في القول وانتهره وتوعده بالضرب والإخراج والطرد من الدير إن لم يرتجع عما هو عليه ثم أصرفه من عنده. فأما ذلك فلم يؤثر فيه لا وعد ولا وعيد بل أصر على ما كان عليه من الأمور الذميمة والأحوال الوخيمة، وكان الأب يذكره في صلاته ويطيل أناته ويحضره إليه في خلواته ويوعيه من فنون عظاته ويردف ذلك بزجراته، ولقد مد الأب

يده إليه في بعض الأوقات وهو في جميع ذلك لا ينثني ولا يرعوي.

بعد ذلك أحضره الأب في وسط الإخوة وقال له: أنت تعلم أيها الأخ ما أوصيتك به في فاتحة الأمر لما قدمت إلى الرهبانية وقلت لك أن هذه السيرة عظيمة جداً، وعلياء حقاً ثم أني أوضحت لك سبلها وكشفت لك أمورها، وأبنت لك انساكها وتقشفها وخشونة طرقها، وقلت ما أنت داخل إلى راحة ونعيم، بل إلى معركة وجهاد فانظر لنفسك النظر المستقيم، واختر من الحالين السليم، فالأول منهما والأفضل سبيل الرهبانية، والثاني الأنزل اشتراع العلمانية، ولم أخف عنك شيئاً من سائر الأمور بل أوضحت لك كل شيء مشهور وأقررت أنت قدام الله أنك زاهد في العلمانية وراغب في الرهبانية وأنك تحفظ سننها وقوانينها وتسلك طرقها وسبلها أسوة بباقي الإخوة.

والآن على ما أرى قد نقضت عهدك وأهملت خلاص نفسك وعدت إلى غيك ورجعت إلى قيئك وإذا كان ذلك كذلك، وخوف الله ليس هو أمام عينيك فاذهب إلى أهلك وذويك بعد أن يؤخذ منك الإسكيم الذي عليك. ثم أمر أن

يترع عنه ثوب الرهبانية ويعطى ثياب العلمانية ويخرج خارج الدير.

عند ذلك لما أبصر سلوانس ما آلت إليه أموره ولذع من فطنته عاد إلى حقائق الأمور واعترف بزيغه لدى الحضور، وتقدم إلى الأب وصار يقبل رجليه ويبلهما بدموع عينيه وسأل قائلاً لقد أخطات يا أبتاه في السماء وقدامك فإن أنت أيها الأب الفائق صلاحه أقلتني من عثرتي وصفحت عن زلتي وعفوت أيضاً وأيضاً عن خطيئتي ووهبت لي ذنبي وسيئتي وطولت روحك عليَّ، وأغزرت إحسانك إليَّ، ولا تخرجني من الدير، وتعدمني هذا الخير، فستجدني من الآن تائباً نادماً على ما فرط مني ونادباً، وتسر نفسك بنقلتي وتبتهج بعودتي.

فأجابه الأب قائلاً: أنت تعلم كم حملت من أثقالك، وكم تعبت في تثقيفاتك وعظاتك ومرادعك ومزاجرك وتنبيهاتك، حتى أني مددت يدي إليك وهذا فما يحسن بي والله فقد علم مني قصدي إلا أنك أحوجتني إليه وبعثتني بسوء فعلك عليه وفعلت ما فعلته رجاء خلاص نفسك، وأنت لم تستيقظ من نومك ولا فقت من سكرك بل أقمت على جهلك وبقيت متورطاً في غيك فكيف أستجيز الآن مسامحتك؟

فقال سلوانس: هاأنذا أقول قولاً بتجاسر أذكر ما قال الإله الآمر بالمغفرة للتائب في اليوم الواحد سبعة في سبعين فاغفر أنت أيضاً لي أنا البائس.

عند ذلك رق له الأب الصالح الحنين والتمس منه كفيلاً وضميناً أنه لا يعود إلى سالف أعماله وقبيح أفعاله، فتقدم الأب الفاضل بطرونيوس وضمن للكبير أنه يقوم بجميع ما أشرط عليه الله ولقدسه وأنه يقوم بجميع الواجبات من دون عقوق ولا مروق. عند ذلك عفا عنه الطوباوي وغفر له بعد أن أوصاه بطاعة الشيخ كفيله في كل ما يأمره وينهاه، ثم انفرد الكبير بالشيخ بطرونيوس وأوصاه أن يتعب معه ويلاحظه في سائر حالاته وقنن له أوقات صلواته العمومية والانفرادية والليلية والنهارية وحدد له الأسهار التي تيقظ العقل وقدر له الصوم وأوان الأكل وأمره قبل كل شيء يعلمه الاتضاع الذي هو زمام السيرة وأولها وقال له موجزاً: احرص أن تفيد مهلاً مهلاً سيرتك المستقيمة ومناهجك القويمة لتخلص نفسه مع معونة الله وتأخذ منه سبحانه جوائز أتعابك لأنك تعلم أني كثير الأشغال والاهتمام في أمور الأديرة وسائر الإخوة ولا أتمكن على التفرغ لمثل هذا ومراعاة أموره والاشتمال على ما عاد بمصالح شأنه،

وأنت قادر على ذلك. فقال له بطرونيوس يتمم الله ما ذكرت بمعونة صلواتك.

وتسلم الأخ وأخذه إلى قلايته وكانا يعملان الحصر معاً ويكملان صومهما وصلواتهما على ما يجب، وكان الشاب قد أضمر في قلبه وهو يصلي قدام الله قائلاً يارب إذا أعطيتني السبيل ليس أحفظ ما أمرتني به على يد عبدك أنبا باخوميوس فقط بل وأطيع الأب الذي قد سلمني إياه، بل واحسب نفسي أنني من اليوم قد فرغت أن أموت من أعمالي الشريرة التي قد صنعتها من هذا الوقت وكل تعب وكل شدة تأتي عليَّ أنا احتملها بفرح وشكر مؤمناً أن ليس شيء يحل بي بغير أمرك لكي أخلص من العذاب العتيد هذا الذي أنا مستوجبه بالأعمال الشريرة التي صنعتها واستحق الحياة. والآن أيها الرب إله الكل أنا كائن في هذه الطريق الآن بنعمتك وتحننك على عبدك ولا فقد فرغت أن ألقي في الدينونة بالأعمال الشريرة لكي أطرد من وسط هؤلاء الرجال القديسين وأعذب في وسط النار إلى الأبد، فمن بعد ما صنعت معي هذه العطية العظيمة على يد عبدك الذي يعمل إرادتك، والآن أيها الرب إله أبينا أعطني السبيل لكي أستيقظ حتى أستطيع أن أحفظ كل كلمة خرجت من فمي بين يديك،

والوصايا التي أمرني عبدك واكشف لي مشيئتك ومرضاتك في قلبي لأعملها لكي أجد رحمة قدامك بصلوات عبدك الذي أرضاك أمامك.

وبعد ذلك صار يتنسك كما يرى الأب معلمه ويمشي بشبهه ويطيع أمره ولا يشرب الماء إلا بإذنه وأخذ صلاته، وبهذه الطاعة تولدت فيه الوداعة وصار متضع القلب وما كان يفتح فمه إلا في صلاته ولا يرفع عينيه إلى أحد وكان يسهر الليل بقلب متيقظ، وإذا أكمل صلاته يجلس وسط القلاية يضفر الخوص باكياً، وإذا أراد راحة الجسد يخطف من النوم قليلاً وهو جالس لحاجة الطبيعة التي لابد منها.

وكان يصنع طلبات كثيرة بتطحن قلب وانسحاق ولم يكن له قصد به سوى خلاصه من العذاب المعد لأنه كان على الدوام ذاكراً أعماله القبيحة التي مشى فيها بقلة مخافة نادباً من أجلها ولم يكن يرى قط عينيه نقيتين من الدموع حتى أن جميع الإخوة محدقين إليه من عظم ندامته وصار أنموذجاً للفضيلة وإشارة صالحة موضوعة قدام الجميع، وكثيرون من الإخوة كانوا إذا شاهدوه يكتئبون لأنه كان يقول نادباً أنه ليحق لي البكاء الطويل والندب والعويل لأنني لم أهتم بخلاصي حتى آلت حالتي

إلى العطب الكلي والطرد من الدير بالخزي الكثير والعار الغزير حتى احتجت إلى ضمناء وكفلاء وأُخذت عليَّ العهود الوكيدة والإيمان الشديدة بأن لا أعوذ إلى سوء حالي وقبح أفعالي، وهكذا جاهد هذا القديس وأحكم كل المآثر الجليلة والمراهض السنية، فأما أبونا باخوميوس فكان إذا سمع الإخوة يتواصفون هذه الأمور يمتلئ قلبه فرحاً وسروراً ويمجد الله كثيراً.

وفي بعض الأيام أنذر الأب الكبير في الملأ عند الإخوة قائلاً: أشاء أن أقول لكم قولاً خلاصياً ومن كل تيه وتبذخ عرياً، إن من حين أُسس هذا الكنونيون المبارك الذي سار بأمر الله لم يماثلني في طريقتي من كل الإخوة قاطبة إلا واحد فقط. وكما أن الصفوف النقية إذا ما صبغت بالبرفير الثمين لا يستحيل صبغها ولا تكمد نضارتها ولا يتغير لونها، هكذا هي نفس هذا الأخ قد صبغت بالروح القدس.

فظن قوم من الإخوة السامعين أنه يعني بهذا الواحد تادرس، وغير هؤلاء ظنوا أنه بطرونيوس، وآخرون اعتقدوا أنه أورسيوس لأن هؤلاء كانوا آباء أفاضل، ورجال أماثل. عند ذلك سأل تادرس الكبير عمن نحا بهذا الواحد. فلم يشاء الافصاح باسمه، فلما أصر تادرس وبقية المشائخ والمتقدمون على سؤال الأب

ليعرفهم من هو هذا الواحد، فأجابهم قائلاً لو علمت أن العظمة والخيلاء يحتويان عليه من إشهاري اسمه لكم لما أسميته ولا أشهرته لكنني أعلم يقيناً أنه متى مدح حينئذ يواضع نفسه ويحقرها ويلومها أكثر وأكثر.

فأنت يا تادرس وكل مساهميك من ساكني هذا الدير المبارك أما بالسن والنسك فإنكم آباء له، فأما في غاية إحكام الاتضاع ونقاء الضمير وصفاء اليقين وتمسكن اللب، فذاك أعلى منكم كلكم، وذاك أنكم قد قيدتم عدوكم كعصفور وطرحتموه على الأرض تحت أرجلكم وتطونه كتربة مداسة بأقدامكم إلا أنكم وثقتم وأهملتم أموركم يقوم الطريح تحت أرجلكم بما أنه حي بعد ويعود يصافقكم ويجيش عليكم.

فأما الشاب سلوانس، الذي قد كان من زمان قريب شارف على أن يطرد من الدير لأجل قبيح سيرته وذميم طريقته فإنه بزيادة اتضاعه وتمسكن لبه وتذلل قلبه والطلبات التي يصنعها في الليل والنهار والخفي والعلانية، قد استأصل إبليس المحال وأباد قوته وسحق سطوته وكسر شوكته وأبطل قدرته، وأقول بإيجاز الكلام ما بقى له بعد عنده مقام.

فأنتم معشر الذين تريدون الخلاص من عدوكم ماثلوا هـــذا الأخ في انحطاط فطنته وانسحاق سريرته وخمول رؤيته، لأنـــه كلما جاهد بإزاء الفضيلة وسعى وراءها اعتد نفسه أدنى من كل شيء وأحقرها، وأذل من كل أنفس الناس وأكسلها، ولـــذلك رقي شأنه وعلا مكانه وذرت دموعه وتزايد خشوعه، أنا أشهد لكم بشجاعة العزم والنية والصبر على الجهادات الطوعية ولذاك بانسحاق القلب وخمول الروية التي هي المنقبة العليا والمرهـــضة السنية التي بها علا عليكم وجازكم، لأن ليس يهدم قوة إبلـــيس شيء مثل تواضع اللب وتمسكن القلب من كل النفس والمشيئة، ولذلك قال الإله الطوبى للمساكين بالروح فإن ملك السموات هو لهم.

ولما عانى سلوانس هذه المجاهدة الحميدة وســـلك المنـــاهج الرشيدة مدة ثماني سنين نال النهاية السعيدة، ورقد بسلام الرب أحسن رقود. لأن خادم المسيح الأب باخوميوس شهد قائلاً: أنه عاين بصفاء عقله عند خروج نفسه الكريمة كثرة كـــثيرة مـــن الملائكة القديسين قد استقبلوها بفرح عظيم وترتيل وقدموها لله كضحية نقية ووجدت في السموات نسيماً زكياً أمام منبر السيد المسيح.

التعليم عن طريق الموت

وفي بعض الأوقات كان الأب سائراً إلى بعض أديرته ليفتقد الإخوة المقيمين فيه، ولما قرب من الدير اتفق أن أحد الإخوة كان قد مات وكان الرهبان خارجين في جنازة الأخ حاملين الشمع بأيديهم يشيعونه بالصلوات إلى ناحية الجبل حيث كانت مقابرهم على الرسم الجاري.

فلما وصل الأب إلى عندهم وسلموا عليه وأخذوا بركته قال لهم من هو هذا الأخ المتوفى قالوا له فلان، وكان والد الأخ المتوفى وإخوته وجماعة من أهله علمانيون حاضرين في الجنازة فلما عرف الأب من هو الأخ المتوفى قال لحاملي النعش حطوه إلى الأرض، ثم أمر أن يعروه ويحرقوا ثيابه ويطفوا الشمع ويبطلوا الصلوات ويحملوه في النعش عرياناً إلى الجبل ويرموه بلا دفن ويعودوا إلى ديرهم، فامتثلوا لأمره، وعروه وحرقوا الأكفان بالشمعة وحملوه عرياناً ورموه بلا دفن ورجعوا إلى ديرهم.

فأما والد المتوفى وإخوته وبقية العلمانيين فمضهم ذلك جداً وجسروا على مخاطبة الأب ولومه وقالوا له: أيها الأب .. ما هذا الحكم الغريب الذي أبدعته أنت في العالم دون غيرك الخارج عن تقليد المسيحيين الذي لا يفعله حتى ولا الوثنيون، وألصقت

بجنسنا مثل هذا الهوان وجعلتنا هزءاً بين القبائل والأمم الذين لا شريعة لهم، وظهرت بربرياً لا رحمة فيك ولا حنان، فيا ليت هذا الولد لم يكن لنا لأنه قد ورث جنس المسيحيين عاراً مؤبداً .. أي بربري يرى جسم عدوه طريحاً على الأرض قد عدم التنفس والحركة أفلا يترأف عليه ويرق له ويرحمه، وأنت المسيحي والمعلم قد عملت بالعكس وبلغ من قساوة قلبك الفاقد الحنية بالكلية إلى أن أمرت بأن لا يؤهل ولا للدفن.

فقال لهم الطوباوي: صدقوني أيها الإخوة أنني أحب الأخ أكثر منكم، واهتمامي به اهتمام الأب الشفوق إلى ولده ولذلك أمرت بإحراق ثيابه وترك الترتيل قدامه وأن لا يؤهل للدفن كل هذا الذل والإهانة فعلتها لحبي إياه وحرصي على خلاصه، وذلك أن اهتمامي ليس بالظاهر بل بالخفي، لأن ما هي الفائدة التي تصير للنفس الغير المائتة من الكرامة التي نوصلها للجسم المايت العتيد أن يبلى ويندثر ويعود على الأرض التي منها أبدع ولا يعترف لكم بمنة ولا يعتد بيد وخدمة، ولو أني حتى أطلق لكم أن تشيعوه إلى قبره بالصلوات والشموع الزاهرة والبخور لكنتم تزيدونه بهذه التمجيدات الظاهرة عذاباً وعقوبة لأن ما انصرف أهلاً لبركة وصلاة لكنه استسار بئس السيرة خادماً شهواته

ومائلاً مع أوطاره اللحمية ومنصباً إلى أمور العالم ومكملاً هواجسه الردية، وبهذه الأحوال الذميمة أذخر لنفسه النار الدهرية وقد كنت أكثر من عظاته وزجره وتنبيهاته مترجياً أن يرتدع ويفيق من سكره ويأتي إلى التحرز والتصون وينقاد إلى التحفظ، فأما هو فلم ينتفع من أقوالي بل كان على الأكثر يزداد غياً وأكثر من مجيء إلى ها هنا بسببه.

فلما عاينت وفاته على تلك الأحوال الذميمة، آلمني ذلك وأنكاني، وأحزن قلبي وبكاني ولعلمي وتحققي أن الله جلّ اسمه وتقدس ذكره ينبوع كل الخيرات وعنصر الصالحات وأصل الحنان والرأفات يطلب منا لخلاصنا سبباً وعلة يسيرة ليدفق بها علينا أمواج رأفاته وغزير تحننه، فلهذا من الشأن رأيت كطبيب خبير أن أوجد رحمة الله حجة بإحراقي ثيابه وإهانتي جسمه، أؤمل بها من فيض جوده وكرمه أن يلاحظ نفسه بعين الرأفة ويخلصها من لهيب النار الفاقدة الخمود، وهذه تجارة مفيدة من غير خسارة، لأن ماذا يلحق الجسم المائت من الجلالة والكرامة أو المذلة والحقارة.

وأن نحن المؤهلين من الله أن ندعى من الناس أطباء روحانيين ومعلمين خبيرين أهملنا أن نسقي كل واحد دواء ملائماً لمرضه

فنكون قد استهنا حينئذ بالواجبات وسنتكبد بعدله أليم العقوبات ويتم فينا ما قاله الإله: " متى قاد ضرير ضريراً سقط كلاهما في بئر ".

فلما سمعوا من الأب هذه الاقناعات الكافية عرفوا أن جميع أعماله بإفراز صائب وقد ردع هذا الفعل الذين كانوا لخلاصهم مهملين وعن أنفسهم غافلين.

وأقام الكبير في ذلك الدير أياماً قلائل واعظاً ومعلماً كل واحد من الإخوة مخافة الله وكيف يجب عليه أن يجاهد بإزاء التجارب والامتحانات الشيطانية ويصبر بجلادة على الأحزان الناجمة عن القريب بنفس متأيدة بالله ذاكرة قرب الأجل واثقة بالرجاء والأمل فلا يقدر الشيطان على إضرارنا بقوة الرب.

ونحن أيها الخلان فما سبيلنا أن نجهل المعنى المملوء نفعاً المستكن فيما فعله الأب باخوميوس بإهانة جسد هذا الأخ المتوفى المقدم ذكره الذي أحرق ثيابه، ولا نقرأه ونسمعه، جزافاً وكيفما اتفق، بل لنقطف منه الفائدة الحاصلة فيه، وذلك أنه إذا كان الله جلّت آلاؤه وتقدست أسماؤه يقتبل منا لخلاصنا حريق ثياب ساذجة وإهانة جسم ميت قد عدم نفسه وحركته ويقابلنا عن ذلك بكثرة جوده وغزير رحمته محص آثامنا وصفح سيآتنا ..

فكم ترى بإكثار يفوت العدد يكون ثواب من يحتمل بجسم حساس الضربات الواصلة إليه من رفيقه والمظالم والتقول واللعنات والفريات وسائر المحزنات الناكية بشجاعة وحماسة إلا أن ثواب ذلك لجسيم وأجره لعظيم.

نياحة أخ قديس

ولما انتهى الأب من وعظ إخوة الدير الذي قدم إليه زائراً لتفقد أحوالهم وفد إليه بعض إخوة الدير المعروف (بشينيفكون) وأخبروه أن فلاناً مريض مدنف ويشاء النظر إليك والحديث معك قبل وفاته، فلما سمع هذا الخبر صفي الله ووليه نهض ومضى معهم، ولما انتزح من الدير الذي كان فيه مسافة ميلين وقف قائماً ورافعاً طرفه إلى السماء ناصتاً، فسمع في الجو صوتاً لذيذاً نغماً بادياً من روح الأخ الذي كان قد استدعى إليه وهي مترنمة مع الملائكة الذين قبضوها وهم متوجهون بها إلى الحياة السعيدة التي لا نهاية لها بحيث الإله تعالى، هذا المنظر عاينه بصراً محسوساً على ما حكاه هو للإخوة الذين كانوا معه حين قالوا له أسرع يا أبانا في المسير لكي نلحق الأخ حياً، فأجابهم قائلاً أما أنا من الآن فأسير إلى ديري وأنتم فامضوا إلى ديركم بسلام ولا تلحقون الأخ حياً بل تجدونه قد قضى لأنني عاينت نفسه

المباركة مزفوفة إلى السماء، وأنهم لحوا عليه في السؤال أن يوضح لهم حقيقة ما قال، فحكى لهم الأمر على جليته من أوله إلى آخره، ثم صلى عليهم وانفصل منهم، ولما حصل الإخوة في الدير وجدوا الأخ قد تنيح في ذلك الوقت نفسه الذي ذكره الأب لهم كما عرفهم الإخوة الحاضرون وفاته فمجد الكل الإله الممجد ممجد ممجديه.

حروب الشياطين

فأما الأب ففي حال مسيره إلى ديره الخصيص بسكناه واجتيازه في البرية المعروفة (بأمنون) مثل لديه كراديس من الأبالسة وصاروا يمشون قدامه ووراءه ومن يمنه ويساره ويبجلونه بكل إعظام ووقار قائلين بعضهم لبعض بمسمعه ها رجل الله وخادمه الخصيص به، وأخذوا في مديحه وتقريظه وتفخيمه وقصدهم بذلك يلقونه في مرض الكبرياء، فلما عرف الأب بالروح الساكن فيه من هم وعاين مكرهم وسوء فعلهم، صار بمقدار ما كان أولئك يمدحونه ويعظمونه ويشيدون باسمه ويرفعونه بذلك المقدار، كان هو معترفاً لدى الله بآثامه ومعدداً في سريرته جرائم كثيرة على نفسه قائلاً لقد علت آثامي على رأسي وقد يجب عليَّ البكاء الطويل، والندب والعويل، فحسبي

مصابي ولا أحتاج إلى تلفيق كذبكم وخديعة هرجتكم الناجم عنها هلاك النفوس، فاذهبوا عني إلى النار المعدة لكم، أما هم فلم يزالوا تابعيه بقحة حتى دنا من ديره، عند ذلك انصرفوا عنه انصرافاً مهيناً.

عن النسك الاختياري

ولما اتصل خبر قدومه بإخوة الدير، خرجوا لاستقباله والسلام عليه وكان في جملتهم شاب، فصاح نحو الأب قائلاً أيها الأب من حين مضيت من عندنا وإلى اليوم ما أطعمنا شيئاً من الحبوب طبيخاً، حتى ولا شيئاً من الخضر سليقاً، فأجابه الكبير بخلق وديع قائلاً لا تحزن يا ولدي فأني من الآن بذاتي أتكلف أموركم واهتم بطبيخكم.

وبعد أن دخل الدير وصلى في الكنيسة مضى إلى المطبخ فوجد الطباخين ينسجون حصر، فقال لمقدمهم كم لك ما سلقت للإخوة سليقاً؟ فأجابه ذاك قائلاً مدة شهرين. فقال له الكبير ولم فعلت ذلك؟ إذ كانت قوانين الآباء القديسين تأمرنا بأكل السليق في أيام السبوت والآحاد. فأجابه قائلاً صدقني يا أبي أنني قد فعلت ذلك ولم أهمله جزافاً بل لما رأيت الإخوة لا دفعة بل دفعات لا يأكلون طبيخاً ولا سليقاً ويقتنعون بالدون

مثل بقول وزيتون ضبطاً منهم ونسكاً وتقشفاً، وكان الطبيخ والسليق يبقى وبحكم الضرورة أرميه خارجاً، واقتنع مني أيها الأب أني في كل طبخة كنا نستعمل أربعين كيل زيت، فلما رأيت جميع ذلك مع تعبنا صائراً إلى الضيعان والهلاك من حيث لا يحصل منه منفعة، أهملته وتخلفت عنه بعد أن رتبنا أحد الإخوة يهتم بحاجة المائدة وإصلاح ما تيسر لمن يأكل منهم مثل (لبسانية بخل وزيتون وما يستخرج من زوم التوم) وما سهل وجوده من الخضر والبقول، وأنا وبقية الإخوة الذين معي اشتغلنا في عمل الحصر ولا نبقى بطالين.

فلما سمع الكبير اعتذار مقدمي الطباخين قال انتهيت من اعتذارك أو بقى عندك شيء آخر تورده؟ قال له ما بقى لي قول. فأجابه الكبير وكم حصيراً عملتم منذ تخلفتم عن خدمتكم المنوطة بكم؟ قال له خمسمائة حصير. فقال له الأب أحضرهن لدي حتى أبصرهن، فلما أحضرت الحصر بجملتها أمر بإحراقها وإبادتها، ثم قال لجماعة الطباخين: لأجل أنكم تجاوزتم القانون المسلم إليكم من خدمة إخوتكم بوسوسة الشيطان لكم وعملتم بسبح بطال مشيئتكم وتبعتم هواكم، أحرقت أنا بغير إشفاق عمل يديكم كي تعلموا مقدار تهاونكم بسنة افترضها آباؤنا

القديسون وسنوها لخلاص النفوس وارتأوها .. أما تعرفون كم من الفضائل أعدمتم الإخوة بسوء تدبيركم إذ خيل لكم الشيطان أن في ذلك غرامة وخسارة مع أن في ذلك فائدة كبرى للنفوس ومنفعة عظمى.

أما تعلمون أن أجر الممتنع عن الأمور عنوة واقتساراً دون أجر المبتعد عنها إيثاراً واختياراً أما تفهمون أنه إذا قدم على المائدة طبيخ ومأكول وضبط الإخوة أنفسهم عن أكله ومذاقته من أجل الله تطوعاً لا جبراً واضطراراً فإن ثوابهم يزداد عند الله ويتكاثر وأجرهم يتوافر ...

ومتى لا يحضر لديهم طبيخ ولا مأكول فمن أي جهة يظهر قطع الهوى ويحسب لهم نسكاً وضبطاً؟ وأنتم لأجل أربعين كيلاً من الزيت أعدمتم الإخوة أن يثمروا مثل هذه الأثمار الحسنة النضار، ألا تعلمون أن جميع هيولي هذا العالم ومواده فانية زائلة وأن الفضيلة باقية راهنة، أفيليق عند ذوي العقول أن نقايض الدائم الذي لا يحول بالفاني، أما أنا فقد كنت أشاء أن أطبخ من الطعام ألواناً وأعد من الفاكهة أنواعاً وأقدم ذلك لدى الإخوة كيما إذا قطعوا هواهم وامتنعوا تقشفاً ونسكاً عن الأكل باختيارهم يزدادون في الفضيلة زيادة بينة، ويثمرون أثماراً

واضحة، ومع ذلك لو عرض لأحد الناقهين من أمراضهم شهوة لمأكل وجاء إلى المائدة ليتناول منها ليعيد إليه قوته فإذا لا يجد عليها حاجته أما كانت تتبلبل فطنته وتنعكس فكرته ويعود إلى سقمه، أو لا تعلمون أن المهارة الصغار لا يمكنها المسير مع الخيل الكبار، كذلك والشبان لا يمكنهم إحكام الفضيلة من مبادئ الأمور ولا يستسيرون أسوة بذوي الحنكة من الجمهور بل مهلاً مهلاً وبتدرج وحسن نظام، يصلون إلى إتقان الفضائل الجسام، وإلا أن نحن كبحناهم عن السلوة اليسيرة وأعدمناهم أكل الحبوب والسلاميق في أيام السبوت والآحاد والمواسم الكبيرة آل بهم الأمر إلى الضجرَ والملل وقادهم إلى الكسل والفشل ونوجد نحن لذلك الأسباب والعلل، فيجب عليكم لأجل هذه الفارطة توبة صادقة إلى الإله تقدس اسمه وتعالى ذكره، والتماس الإقالة عما هفوتم.

عدم طلب شيء في غير أوانه

كان أخ ما متوحداً وناسكاً، فلما اتصل به محاسن الأب باخوميوس وسيرته الملائكية أهمل توحده وقصده، وتوسل إليه أن يقبله في ديره ويحميه من باقي تلاميذه ولما قبل الأب أقام مع الإخوة وقتاً ما مستسيراً حسناً، ثم اعترته شهوة ضدية وهي أن

تصير شهيداً وكان العالم وقتئذ في هدوء وطمأنينة والبيعة في حال نمو ونجاح، وقسطنطين الشائع الصيت الفاخر المظفر القاهر وقتئذ ملك.

عند ذلك جاء إلى الأب وقال له صلي عليَّ يا أبي فإن نفسي تنازعني أن أصير شهيداً وأنا معد لذلك، فأما الأب فزجره قائلاً أهمل هذا الفكر واخلعه عنك ولا تسمع وسوسة قائلة لأنه شيطان، ثم وعظه قائلاً اصطبر يا أخي على جهاد النسك الصادق وأدخل بحماسة نفس وشهامة قلب في الباب الحرج وأسلك في المنهج الضغط وسيكون لك في السموات الشركة مع الشهداء الفاتكين وجند الله الظافرين.

فأما الأخ فلم يقنع بل كان هذا الفكر الشيطاني يزعجه وهو يميل معه ويكثر التردد إلى الأب ويقلقه ويرغب إليه أن يصلي عليه لكي ينال شهوته وتتم أمنيته، فقال له الأب أنا أصلي وأطلب من الله أن يسهل لك هذا الأمر وآمل أنك تبلغه وشيكاً فاحرس ذاتك وتثقف نفسك وكن معداً عند وفود الأمر توجد للمسيح جاحداً عوضاً من شاهد لأنك تريد شيئاً في غير وقته وجهل هو أن يلقي أحد نفسه في الامتحان باختياره لا سيما هذا الامتحان الصعب.

ومن بعد أيام قلائل حان أوان قطع البردي، فتجهز لذلك بعض الإخوة وساروا بصلاة الأب إلى قرية خربة موقعها صقب غاب البردي، وصاروا يقطعون البردي من الآجام نهاراً ويبيتون في القرية ليلاً، وكانت هذه القرية تجاور البربر المسمون (فلماس).

وطال مقام الإخوة في قطع البردي، فاختار الأب افتقادهم وأخذ خبرهم وأن يرسل لهم حاجة لكيلا يعوزهم شيء، ورسم لضابط الوسط أن يبصر واحداً من الإخوة يمضي إلى عندهم.

فمضى ضابط الوسط وجلب هذا الأخ الذي كان يشتهي الشهادة، فلما أبصره الأب أوصاه بما يجب أن يعمل وتأكد عليه في حراسة نفسه وأردفه بأن قال له (على سبيل الأنباء) من الكتب المقدسة: ها وقت حسن قبوله، ها يوم الخلاص، لا تسلم رجلك للزلل فلا ينعس حافظك لا تعط في شيء من الأشياء عثرة ما لئلا تتدنس الخدمة، ثم بارك عليه وسرحه، فتسلم الأخ حماراً محملاً حوائج برسم الإخوة وتوجه سائراً صوبهم.

فلما صار بالقرب منهم في البرية، اتفق أن البربر نزلوا من الجبل لاستقاء ماء فصادفوه وكتفوه وأخذوه وساقوا الحمار بحمله ومضوا به إلى عند أصحابهم، فلما رأى البربر أنه راهب جاروه القول في أمر الاعتقاد والدين، وكانوا مزمعين أن يقدموا

في ذلك اليوم لآلهتهم ضحية فذبحوا ذبائح واستدعوا الراهب وكلفوه أن ينضح لآلهتهم معهم، وإذ لم يجب إلى ذلك جردوا سيوفهم وهددوه قائلين وحق الآلهة علينا إن لم تضح وتنضح وتسجد للآلهة معنا وتتساو بنا وتشاركنا فيما نعمل وإلا في الحال قتلناك. فلما أبصر ذعارة أخلاقهم البربرية وقساوة قلوبهم الفاقدة الحنية، فزع وجبن وأخذ النبيذ بيده ونضح للأصنام وأكل معهم من الضحايا وجحد ربه وخالقه، ومن بعد أكله وصيرورته كواحد منهم راموا التمسك به عندهم وإذ رأوه لذلك غير مؤثر سرحوا سبيله.

ولما انحدر من الجبل رجع إلى ذاته وعاوده عقله موبخاً إياه عما جناه ولذعته فطنته أشد لذعاً عما أتاه من الحال الفظيع والكفر الشنيع وأنه مزق ثيابه ولطم وجهه ونتف شعره وعاد إلى الدير على هذه الصفة الناكية والحال الباكية.

فأما الطوباوي فإنه علم بالروح بما عرض له، فخرج للقائه وهو باك وحزين عليه. فلما أبصره الأخ قادماً إليه خر على وجهه إلى الأرض وهتف قائلاً بنحيب وهطل دموع أخطأت أيها الأب لدى الله ولديك خالفت مشورتك الصالحة ولو كنت أطعتها ما كان حل بي. فأجابه الطوباوي قائلاً: أيها الشقي

(اللقي) .. لقد حجزت على نفسك الخيرات المعدة كانت لك لقد حان التاج أن يوضع على رأسك فدفعتـــه بكلتـــا يـــديك ورميته، لقد أشرفت على أن تحصى مع الـــشهداء القديـــسين والرجال الفائزين، فأبعدت ذاتك وحدك عـــن مـــشاركتهم في الملك الجسيم المعد لك (لهم)، السيد المسيح حضر ملائكتـــه القديسين عندك مريداً أن يضع على هامتك إكليل الغلبة فأمـــا أنت فأنكرته وجحفته خوفاً من ألم لحظة وطرفة عين وبخوفـــك من موت أنت عتيد أن تتكبده لا محالة سقطت مـــن وجـــه الله وأضعت ملك السماء الدهري والحياة التي لا نهاية لها .. أيـــن أقاويلك الأولى وشهوتك التي في غير وقتها ..

وفي حال خطاب الأب إياه بما هذا فحواه، هتف ببكاء كثير قائلاً أخطأت أيها الأب وأسأت وليس لي فسحة أن أرفع طرفي إلى السماء ولا أن أتأمل وجهك، لقد هلكت أيها الأب وانقطع رجائي ولا لي وجه إلى توبة ولا فسحة إلى إنابة وما كان ظـــني هذا الظن بنفسي. فلما أبصر الأب منه هذه الندامة وأنه قد أتى إلى إحساس مشترك بيسير من إياس قال له تخـــشع ولا تجـــزع وتهلع لأن الإله صالح ولا يشاء موت الخاطئ في سقطته بل يؤثر رجعته ويقتبل توبته بعد الاعتراف بغلطته والإقلاع عـــن غيـــه

وفارطته، لا تيأس من إحسان الله فإنه لا يسخط أبداً ولا يحقد سرمداً لا يعاملنا كخطايانا ولا يجازينا بإزاء آثامنا فهو عظيم الرحمة والمترآف وقد قال في نبي آخر انهض أيها الطريح وقم أيها الجريح، (العمل قلفونية ليس بجلعاد) لا تنس القول السائر أن محبة الله أكثر من محبة الآباء لأبنائهم، وأن محبة الآباء لأولادهم بالإضافة (بالنسبة) إلى محبة الله للبشر مقتاً تدعى.

وإن كان ذلك كذلك، فلا تيأس من نفسك لأن الموسم بعد قائم، ورجاء الخلاص دائم والشجرة متى قطعت أغصانها وهي راسخة في مكانها فستعود (شحونها) طرية غضة، والآن إن أنت أذعنت إلى قولي فستحظ بالصفح من الله الغفور الرحيم. فأجابه الأخ قائلاً سأرضخ من الآن لسائر مراسمك وامتثل طائعاً نواهيك وأوامرك وأقبل جميع ما تسنه لي. فرسم له حينئذ أن يحصر ذاته في قلاية من حيث لا يزور ولا يزار ولا يكلم أحداً إلى الممات ويكون أكله في عشية كل يوم خبزاً يابساً وشرابه ماءً ساذجاً مدة حياته وينسج في نهاره حصيرين ويسهر جهده وطاقته، ويصلي بمقدار استطاعته، ولا يكف من البكاء والنحيب والهذيذ في ملابسة العمل.

فامتثل أمرة الأب، وعمل بها و لم يبصر وجه أحد غير الأب الكبير وتادرس تلميذه وقليلين من المشائخ الروحانيين، وهذا لأجل مؤازرتهم إياه فيما هو بسبيله ومكث على هذه الحال اثنتي عشر سنة، وجاهد بإزاء اغتصاب الطبيعة، ورقد بنعمة المسيح على هذه الطريقة الحميدة والحال السديدة.

عن حروب الشياطين

وفيما كان هذا الطوباوي باخوميوس وتادرس تلميذه ماشيين في بعض الليالي وهما يرتلان وتارة يتفاوضان أقوال الله ويسيران، تراءى لهما على بعد نازح خيال عظيم مملوء من كل خديعة وضلالة وكان الظاهر لهما شكل امرأة حسنها فائق ولونها رايق لا يمكن لسان إنسان أن ينعت ذلك البهاء والجمال ولا أن يصف عظم المنظر الشهي الحاوي الدلال، وكانت تلك الصورة من الحسن على غاية الكمال، يتقدمها خلق كثير وجمع كبير حاملين بأيديهم مصابيح تقد متكاثرة ومن إشراق تلك الأضواء انقشع ظلام الليل عن ذاك الفضاء وهم يزفونها بكل حشمة ووقار.

فأما تادرس فلما رأى هذا الخيال استوعب قلبه قلقاً، واضطرب فؤاده فرقاً، فلما عرف الكبير بالنعمة الساكنة فيه ما

نال تادرس من الذعر والجبانة قال تشجع يا تادرس ولا تهلع وتجزع وتأيد بالرب ولا تفزع، ثم أخذا كلاهما يصليان ويركعان أمام الله ويطلبان أن ينظر برحمته نحوهما وأن يشتت هذا الخيال المذهل عنهما وأن لا يُمَكِّن الخديعة منهما، وفي عروض ذلك اقترب الظاهر لهما ودنا حتى صار لديهما، متهجماً بقحة عليهما بعدم حشمة وقلة عناية بهما، من حيث لم تنجع صلاتهما ولا استجيبت طلبتهما.

ثم أومأت تلك الصورة النساوية بيدها إلى جنها المحدقين بها آمرة إياهم بالسكوت، عند ذلك قالت لهما لا تصليا وتتعبا في باطل ولا تجتهدا في أمر عاطل لأنكما من الآن لا تقدران على قهري ولا أن تبطلا أيضاً شرفي وفخري، إذ كنت قد أخذت من الله ضابط الكل سلطة عليكما لامتحنكما حسبما أشاء وأجربكما من غير صد ولا منع، ولقد عبرت زماناً مديداً طالبة منه هذا الأمر إلى أن نلته ومنحته. فقال لها فأنت من أنت، ومن أين قدمت، ولمن ناجيت مجربة فأجابته قائلة أنا هي نتيجة الشيطان وابنته وأنا الحاوية جميع بأسه وقوته وكل طغوم الجن لي تتعبد أنا التي أهبطت إلى أسفل الأرض جماعة من القديسين الأفاضل والرجال الأعيان الأماثل وأهبط أيضاً، أنا هي التي

سلبت من يوداس منزلته الرسولية، أنا إذ لم أحتمل استطالتك عليَّ وعلى أصحابي وتعييرهم إياي بسببك ونكثي إذ كان ليس أحد قبلك من الناس استضعفني ولهم وطيناً منذ قط مثلك، أخذت عليك إطلاقاً لمحاربتك لأنك قد جمعت شباباً وشيوخاً وملأت منهم البراري والقفار، وأسكنتهم في مهمتنا والأماكن الخصيصة بنا وأحدقت بهم سوراً منيعاً وكهفاً حصيناً اللذان هما: خوف الله، والاتضاع، حتى أنه لم يستطع أحد من حزبنا وذوينا وخدامنا المنوطين بنا على الدنو إلى واحد منهم.

وكل هذا تم لكم بالرب المتأنس الذي أعطاكم يا معشر البشر سلطة علينا ومنحكم بقوة صليبه قوة عظمى تطأون بها قوانا.

فأجابها القديس قائلاً قولي لي يا ابنة الكذب ومأواه، ويا نجسة الفم والشفاه، إياي وحدي جئتِ تمتحني أو لأناس غيري؟ فأجابته قائلة إياك ولكافة من والاك وضاهاك واقتفاك. قال له الكبير فإذاً وتادرس هذا في الجملة هو، فأجابته قائلة وبإزاء تادرس هذا وأشباهه وأشكاله قد أوترت قوسي وفوقت سهامي وأخذت على الكل سلطاناً لمقارعتكم كلكم وامتحانكم بالحرب الخصيصة بي، لكني لا أرى الدنو منكما أنتما الحاضران لدي

دون غيركما. فقال لها ولم لا تقدرين على الاقتراب منا وقد أخذت على زعمك إطلاقاً علينا؟ فقالت له لأني خائفة أن تؤول تجربتي إياكما ومقارعتي نحوكما وبالاً عليَّ وخزياً واصلاً إليَّ، لهذا من الشأن أرى أن الأوفق لي الإحجام عنكما دون مباشرة الإقدام إليكما، بما أني خبيرة بدهائكما، عليمة بمكركما وخداعكما لا سيما أنت يا باخوميوس إذ كنت قد أُوهلت لمجد الله. لكنكما لا تعيشان إلى الدهر لهؤلاء الذين هاهم يطئوني الآن بحفظ وصاياكما ويستهينونني بمؤازرة صلواتكما، بل أترجى أن أزف فيهم وأرقص بينهم ويصير لي حظ وافر وقسم متكاثر بعد وفاتكما وتقضي حياتكما.

قال لها الكبير: ومن أين لك حقيقة هذا الرجاء الخائب أن الذين يتعبدون الآن للإله لا يخدمونه بعدنا خدمة مرضية؟ أجابته قائلة: أتحقق ذلك يقيناً وأيقنه إيقاناً شافياً من أن حرارتهم الآن ستبرد بعدكما وشوقهم المتوقد الآن سيخمد وسيملكهم الفشل والكسل ويحتوي عليهم الملل والكلل، حينئذ أجد وقتي وبغيتي ويصيرون أداة لصناعتي ومهنتي. قال لها الكبير تكذبين عليهم أيتها النجسة اللقية وكذبك عائد على هامتك لأن معرفة العتيدات تختص بالله وحده وأنت عنصر الكذب ومبدأه وينبوعه

ومنشأه. فأجابته قائلة ليس لنا علم المعرفة، لكننا نحدس على ذلك ونخمن عليه تخميناً، وقد أخذنا حنكة في هذا العمل، نقايس ونصيب من غير زلل ولا خلل، نحدس على العتيدات من السالفات.

فأجابها الطوباوي كيف يمكن على ما لم يخطر ببال ولا سنح في خلد، فأجابته قائلة اعلم أن فاتحة كل أمر يعمل بشوق شديد وحرص مديد، لا سيما في الأمور الإلهية، إنما يكون دوامه بالمشيئة والمشيئة تتأكد وتوقى بالآيات والمعجزات، وبهذه الأحوال تشتد منه الفعل فإذا هرمت الفاتحة وشاخت البداية حينئذ تعدم الزيادة والنمو، وعند ذلك إما تفسد بمرور الزمان أو تذبل وتقمع بالأمراض أو تذهب بالتهاون والإهمال. فقال لها القديس أنت على قولك جئتي ممتحنة للكبراء من الإخوة وفعلك هلاك النفوس وشرك يفوق على جميع الأبالسة بما أنك رأس عليهم وظنك في ذاتك ذو قدرة واستطاعة فما معنى توقفك، فأجابته قائلة قد قلت لك متقدماً أنه من حين ظهرت على الأرض علامة المخلص وقوته الضابطة الكل ضعفت قوانا نحن الجن حتى أنكم صرتم تتلاعبون بنا وتطئونا كعصفور حقير، لكن على كل حال فلا نكف عن حربكم ولا نرتجع عن قتالكم لأن

طبيعتنا لا ترقد ولا تسأم ونزرع على الدائم شرنا ونبذر رذيلتنا ونعرض بضاعتنا، لا سيما عند من يؤثر محاربتنا، فإن انعطف إلينا يسيراً وجنح إلى الابتياع منا قليلاً، حينئذ نلهيه بالشهوات ونشعل فؤاده بحب اللذات والامتلاء من المأكولات التي هي مؤازرة لنا فيما نريد، ومن بعد ذلك نهج عليه كشجعان قادرين وإن هو لا يشاء قبول بذارنا ولا يؤثر الابتياع منا ولا يصغي إلى وسوستنا بلذة وشهوة معولاً على إيمانه بالله ومستمداً منه رحمته ومؤازرته بعقل مستيقظ ولب ساهر، حينئذ نصير عنده كدخان منحل في الهواء، لذلك يا باخوميوس لا يمكنني محاربة الكل قاطبة ولو أمكن ذلك لقد كنت خدعت كثيرين من المعتضدين بك، لكن الكمال ليس للكل. وأنا أخبرك بقول وجيز وهو أن كل أمورنا مردودة إلى السلطة والاختيار اللذين لكم يا معشر البشر، فمن شاء قبلنا ومن شاء طردنا.

عند ذلك زجرها الطوباوي قائلاً: الله يبيدك إبادة كلية، وأمرها بالانصراف، وأن لا نقترب إلى أديرته. ولما لاح الصباح استدعى بمشيخة الدير وأفاضل الإخوة وعرفهم بما رأى وأصدر كتباً إلى سائر أديرته يعرفهم بما كان على حليته وجلبته، ويحثهم

على خوف الله ويتأكد عليهم في الاحتراس والتصون من حيل وخدائع الشيطان.

رؤيا أخرى

ولما كان أيضاً في أحد الأيام كشف لأبينا باخوميوس رؤيا تطلع فرأى وإذا مثال جحيم مظلم مدلهم وهو ممتلئ أعمدة قائمة وكانت فيه أصوات كثيرة تصيح من كل ناحية هكذا هوذا النور ها هنا عندنا، وجميع الناس الذين في تلك الظلمة إذا سمعوا هذه الأصوات هوذا النور ههنا عندنا كانوا يمشون دابرين مع العمد وهم يظنون أنهم قطعوا مسافة بعيدة وقصدهم أن يجدوا الضياء ومن مواضعهم لم يبرحوا، لأن أصواتاً كثيرة من سائر جهات المترل آتية إلى مسامعهم قائلة ها هوذا الضوء ههنا، وكانوا يترددون ساعتين إلى هنا وهناك ليروا الضوء وما كانوا يجدونه وكان هناك شقاء كثير ونصب غزير.

ونظر هناك مصباحاً يتقدم أمام كثيرين وأربعة رجال فقط كانوا ينظرونه، فأما الباقون فكانوا يتبعوهم مقتفين وقد وضع الواحد منهم يده على كتف الساعي صاحبه السائر قدامه لئلا يضل في الظلام الدامس، ومتى أخلى واحد يده عن كتف الساعي قدامه كان يضل وكل من يتبعه ورأى واحداً عظيماً قد

ترك إتباع السائر أمامه فضل ومعه جماعة عظيمة تابعة له فكان الكبير يصيح عليهم في الرؤيا اتبعوا السائرين أمامكم لئلا تتوهوا فتهلكوا، والذين كانوا يتبعون مرشديهم صعدوا معهم من الطاقات إلى الضياء.

وكان رجل منير واقفاً أمامه وهو عرفه تفسير الرؤيا وقال له: أما مثال الجحيم الذي رأيته فهو هذا العالم والظلمة التي فيه هي الضلالة والجهل والأصوات الكثيرة الصارخة هوذا النور عندنا هي الانشقاقات والاختلافات والمصباح المنير هو الإيمان المحق الذي يولج المتمسكين به إلى ملك السماء، والأربعة المرشدون إليه هم التابعون الإنجيل المتمسكون به، والأعمدة هم رؤساء الضلالة الذين أضلوا السذج بقولهم أنهم المخلصون، والذين تركوا إتباع السائرين أمامهم وضلوا هم ومن اقتفاهم هم الأساقفة الذين يشاركون الانشقاقات ويضلون الذين يعلمونهم لكي يهلكوا وإياهم كالمكتوب أنهم يطوفون البر والبحر ليصطنعوا غريباً واحداً فإذا صار صيروه ابناً لجهنم مضاعفاً عليهم، ومن أجلهم (ويل) المسيح العالم قائلاً: الويل للعالم من الشكوك والويل لذلك الإنسان الذي من قبله تأتي الشكوك.

موقفه من المبتدعين والهراطقة

وفد في بعض الأوقات إلى دير باخوميوس الطوباوي أناس لباسهم الشعر على زي الرهبان وهم ذو بدعة في الاعتقاد والدين، لما سمعوا طيب أخباره السائرة في ألسن الآنام وسمعوا تعاليمه الروحانية الفائقة في النظام، وقالوا للإخوة أن أبانا ومقدمنا أرسل بنا نعيد على الأب باخوميوس رسالة منه بأفواهنا، وهي: إن كان ما أسمعه عنك صحيحاً وأنك ولي لله وخادمه يتم مرادك ويستمع طلباتك، فهلم بنا لنعبر أنا وأنت معاً النهر المجاور لنا بأرجلنا، حينئذ يعلم الجمهور من نفس الأمور مَنْ منا له دالة ووجاهة عند الله.

وأن الإخوة طالعوا الأب باخوميوس بذلك، فتذمر عليهم قائلاً لهم كيف استجزتم قبول هذه الرسالة الشيطانية في مسامعكم؟ أين إفرازكم ومعرفتكم؟ ألا تعلمون أن هذه المعارضات الباطلة غريبة هي من الله وأجنبية بالكلية من إيماننا الصادق القويم ومخالفة لسيرتنا المستقيمة لأن أي ناموس من نواميس الله يطلق لنا هذا العمل الرديء والفعل الكفري، والإله نفسه يأمرنا في الإنجيل المقدس بما يضاد هذا، إذ قال لا تعلم شمالك ما تعمل يمينك، وليس يوجد شيء أشد شقوة وأنكى

لائمة من ارتكاب هذا الجهل الفظيع أن يهمل الإنسان الندب على خطاياه والطلب من الله أن يقيله من عثراته ويصفح له سيآته ليخلص من العذاب الدهري والعقاب الأبدي ويصبوا مائلاً إلى هذه الخرافات.

فأجابوه: أفيجوز لهراطيقي مخالف بعيد من الله تعالى أن يستدعيك لمثل هذا الأمر ويتجاسر عليه؟

فأجابهم الطوباوي قائلاً: قد يمكن لهراطيقي أن يعبر على سطح الماء ماشياً كمثل على يبس وذلك بتسامح من الله ومؤازرة الشيطان له لكي يثبت على سوء اعتقاده ولا يقلع عن كفره وإلحاده، وبهذا المكر والدهاء من الشيطان اللعين يقنع كثيرين من الناس القليلي الحنكة والمعرفة ويستجرهم إلى سوء الاعتقاد.

الآن امضوا وقولوا لهؤلاء المخدوعين، هكذا قال عبد الله باخوميوس أن حرصي واجتهادي ليس هو لكي أعبر سطح ماء النهر ماشياً، بل هو كيف يمكنني أن أفلت من حكم الله وقصاصه.

وبعد هذا الجواب أوصاهم ألا يستكبروا بمناقبهم ولا يفتخروا بفضائلهم ولا يتوقوا إلى نظر الآيات المحققة فضلاً عن

هذه الخدع الشيطانية ولا يجربوا الله بهذه الطلبات الباطلات لأن الكتاب يقول لا تجرب الرب إلهك.

موهبة التكلم بألسنة للقديس باخوميوس

وفيما السعيد باخوميوس يطوف على قلالي إخوة الدير مفتقداً إياهم ومثقفاً زيغان أناس منهم جاء إلى قلاية أخ رومي كان في عالمه ذا رتبة جليلة ومنزلة جسيمة قد أحكم اللغة اليونانية إحكاماً بليغاً فتقصى الأب منه عن أخباره وحاله باللغة القبطية فما فهم الأخ عنه بل جاوبه باللغة اليونانية فلم يفهم الأب عنه أيضاً ولا أمكنه أن يهمله بلا افتقاد.

وأنه استدعى أحد الإخوة ممن يحسن اللغتين ليعبر القول بينهما، فلما حضر الترجمان قال له الأخ الرومي قل للكبير عني أيها الأب لا أشاء أن أبوح بأسرار نفسي وهواجس صدري ورويات قلبي وفرطاتي وغلطاتي إليك بلسان غيري بل أشاء أن ألقيه إليك بلساني.

فلما سمع الأب مقاله، أصرف الترجمان ثم أومأ إليه بيده أن يتصبر إلى أن يمضي ويعود وانصرف من عنده إلى قلايته وانتصب في صلاته بثقة وكيدة وبسط يديه إلى السماء وقال أيها الرب ضابط الكل إذ كنت لا أقدر على منفعة الإخوة الذين

ترسلهم إليَّ من أفاق الدنيا بجهلي بألسنتهم وعدم معرفتي بلغاهم، فما الفائدة في مجيئهم إلى ههنا، فأنا أرغب إلى فيض إنعامك وتدفق إحسانك، ودرور امتنانك أن تمن عليَّ أيها الإله الصالح الرحيم بمعرفة ألسنتهم لكي أعظهم وأنفع أنفسهم.

ولم يزل يواصل الرغبة والابتهال مدة ثلاث ساعات مع ركعات متواترة ودموع منهملة، وفيما هو يلج على الله تعالى بهذه الطلبة، بغتة انحدر من السماء شبه برسالة وحصلت في يده اليمنى فلما قرأها وعرف فحواها للوقت تعلم الكلام بسائر اللغات عليماً بليغاً وأعطي لساناً دربا محكماً في إصابة الكلام.

عند ذلك مجد الله وشكره وعاد إلى قلاية ذلك الأخ الرومي وفاتحه الكلام يونانياً ورومياً بقول صحيح ولفظ فصيح. فلما سمع ذلك الأخ الرومي خطابه البديع قال له: لقد فقت الكل بجودة الكلام وقيام العبارة، ثم اعترف إليه مع دموع، فعمل الأب الكبير كفارة عن آثام الأخ وابتهل إلى الله طالباً له العفو والصفح وحد له حدوداً بالتوبة اللائقة واستودعه الرب وفصل عنه.

يونان الطوباوي البستاني

وقد رأيت أن أصف شيئاً قليلاً من سيرة الجَنّان (الجنايني) الطوباوي الذي كان اسمه يونان، هذا أقام في الرهبنة خمسة وثمانين سنة قد نسك نسكاً في الغاية وجاهد جهاداً إلى حد النهاية، وكانت جميع أشجار البستان نصبه وغرسه، والأثمار الكثيرة الأنواع كان هو يجمعها بيديه وكانت تحت حكمه وأمره، ولم يكن يذوقها ولا يدري ما هو طعمها مدة هذه السنين كلها، وكانت جماعة الإخوة والطارقين لهم يتملون من الأثمار التي يجمعها ولا يأكل منها.

وكان لباسه ثلثة مزار منتظمة إحداهن بالأخرى سترة لجسده وما كان يعرف شيئاً من نياح الجسد البتة ولا يريح جسمه من كثرة الأتعاب، ما أكل قط طبيخاً ولا سليقاً ولا شيئاً على نار بل كان أكله الخبز والخل ومهما كان من الخضر النية عند غروب الشمس مرة واحدة وذلك دون الشبع بقليل مدة حياته. ما دخل قط في مرضه بيمارستانا ولا عرف شيئاً مما يستعمله المرضى ولا استلقى على الأرض البتة في حال نومه لكنه طول نهاره يعمل في البستان صائماً، وعند غروب الشمس يتناول غذاء ثم يلج إلى قلايته ويجلس في وسطها على كرسي

يفتل حبالاً إلى أن يدق ناقوس نصف الليل، وفمه وقلبه يمجد الله، حينئذ ينام يسيراً لأجل ضرورة الطبيعة وهو جالس على الكرسي والحبال بيديه، ثم يقوم أيضاً للصلاة والعمل.

ولم يَقدْ عليه سراجاً، بل في الظلمة كان يفتل ويصلي لأنه للمزامير كان حافظاً. وكان قد اقتنى ثوباً من الصوف الحسن لا غير يلبسه عند تناوله الأسرار المقدسة وفي الحال يخلعه عنه ويرفعه، وهذا الثوب خدمه مدة عمره على هذه الصفة. وأشياء أخر كثيرة مستحقة للتعجب منها ما ألفتها في كتابي هذا، لئلا يطول شرحها.

هذا الطوباوي يونان شاهدته أنا حياً، وأوردت اليسير من سيرته لمنفعة السامعين، ولقد فارق العالم ورقد بالمسيح على صفة عجيبة جداً، لأنه في حال جلوسه على كرسيه وفتله الحبال قضى نحبه وأسلم نفسه في يدي ربه من حيث لم تكن وفاته بغتة على ما جاء في القول، بل بسياسة عليه كانت رقدته.

نياحته

وذلك أنه مرض وشكا مثل سائر الناس، ولم يطع أن يمضي إلى بيمارستان لامتناعه من أن يخدمه غيره أو يلزم بأكل شيء قد جرت عادة المرضى باستعماله ولا استلقى في أوان مرضه على

ظهره في قلايته ولا فارق جلوسه على الكرسي الذي كان برسم عمله ولا وضع تحته شيئاً يريح به جسمه، ولا خلى أحد الإخوة يخدمه ويراعي أسبابه إلى آخر نسمة.

وبمثل هذا الجهاد الحميد والنسك الشديد عبر عمره وانصرف إلى ربه والحبال مضفورة بيده وأنا أبصرته على هذا الحال.

دفنه

ولمّا رمنا دفنه لم نقدر أن نمد ساقيه ونبسطه بل كانت مجموعة كخشب يابس، كذلك ويديه لم نقدر أن نلصقهما بجسده ولا أن نخلع عن جسده الثوب الجلد الذي كان لابسه ونلبسه الثوب الصوف المقدم ذكره، ولأجل هذه الموانع درجناه بملفة من شعر كما يلف شيء من الجماد ووضعناه في مغارة.

خبر عن القديس أبيتوصورة

والضرورة تدعونا أن نشرح لكم خبر آخر قديس مبارك وصل إلى ذروة الفضيلة يسمى (أبيتوصورة) كان مبتلياً بداء الجذام ....

ونصف يسيراً من أخباره لمنفعة السامعين .. هذا الطوباوي المستحق الذكر الجميل كانت قلايته بمعزل عن قلالي الإخوة،

أكله الخبز والملح لا شيء، وذلك في كل يومين دفعة واحدة، ويعمل في كل يوم حصيراً أسوة بباقي الإخوة، وكانت يداه تدمي من مباشرة البردي، والحصير كانت تتبقع بالدم، وهو لا يتخلف عن العمل ولا يدع غيره يسبقه، ويشكر الله ويمجده بطيبة نفس.

ولم ينم بالنهار البتة إلى وفاته، وكان يحفظ شيئاً من الكتب المقدسة يصلي به قبل النوم وقتاً من الليل ثم يرقد إلى دق ناقوس نصف الليل ثم ينهض ويشترك مع الإخوة في الصلاة إلى الصباح.

وكان الأب يعجب من صبره على ألم المرض ومواظبة العمل بجلادة نفس ويفرح به جداً متحققاً أنه عَمَّال الفضيلة، ولأجل ذلك كان يجهز به إلى أديرته على الدائم في رسائل ومهمات تعرض له وقصده في ذلك منفعة أولئك الإخوة بنظرهم إليه لأنه كان مثالاً صالحاً للفضيلة وأساً مكيناً لكل منقبة جليلة، لأن أي نفس قاسية مخزية كانت تنتظر رجلاً قد استحالت صورته وتغيرت هيئته واضمحلت محاسن خلقته ولحمه سائلاً ودمه جارياً وهو بطيبة قلب يخدم ويعمل ويشكر الله، أفلا ترتدع وتلين قساوتها ويتوفر نشاطها وتقدم شكراً لله على عافيتها؟..

هذا الطوباوي لما كان يعمل في قلايته، دخل عليه بعض الإخوة، فلما أبصر يديه مخضبتين بالدم من مباشرة البردي وعمل الحصر تحنن عليه وقال له أيها الأخ ما بالك تجاهد وتتعب في العمل وأنت مبتلي بهذا المرض الصعب، أترى إن كنت أنت تركت العمل يلومك الله؟ .. لا البتة لأنه قد زكن ذلك، وعرف تعبك، وما رأينا أحداً ابتلى بهذا المرض فباشر عملاً، وأنت فما لك من يضطرك على العمل وضغطك، بل ذلك مردود إلى اختيارك ونحن نعول مساكين ونقوم بالغرباء الطارقين من أجل الله، أفما سبيلنا أن نخدمك ونهتم بك ونحمل عنك أنت أخانا الخصيص بنا ونقصد عزاؤك ونياحك بفرح وبشاشة أكثر من غيرك؟

فأجابه الطوباوي قائلاً غير ممكن يا أبي أن أبطل ولا أعمل لأن القديس بولس الرسول يقول من لا يعمل لا يأكل، والرب نفسه يقول في الإنجيل المقدس اعملوا لا العمل الهالك بل العمل الثابت للحياة الدهرية، ونحن نؤمل من رحمة الله أن أعمالنا كلنا ليست من الأعمال الفانية بل من الأعمال الباقية.

فقال له الأخ فادهن ولو يدك بزيت عند المساء لتلين عليك ولا تقشف ويشتد ألمها وودعه وانفصل عنه، فسمع من الأخ

ودهن يديه بزيت، فانضر أكثر وأكثر لأنها لانت ونعمت وصار البردي يؤذيهما أذية أكثر من أذيته إياهما في حال خشونتهما.

وفي عروض ذلك جاء الأب الكبير مفتقداً إياه، وبادره قائلاً يا (أبيتوصورة) أتظن الزيت ينفعك من الذي يضطرك إلى العمل الذي بسببه ها أنت ترد آمالك إلى منفعة الزيت وأهملت رجاء إلهك القادر على شفائك وعافيتك، هل لا يستطيع الله أن يشفيك ويعافيك، لكنه بسياسة منه جلّ اسمه ورغبة في منفعة نفسك تسامح للمرض وأمكنه منك. فأجاب قائلاً أخطأت أيها الأب أخطأت وأسأت فاغفر لي وصلي عليَّ ليصفح الله عن سيئتي هذه.

وعلى ما حقق قوم من الآباء العارفين أحوال هذا الفاضل، أنه مكث حولاً مكملاً نادباً نفسه من أجل هذه الجريرة وبهذه المحامد السنية استحق المنازل العليا وانصرف إلى ربه وإلى من كان يحبه.

الجهاد ضد شيطان الزنا

وما سبيلي أن أنسى مجاهد المسيح ومناصب الخطية إلى الدم الأب (تيتويس) الأب المختص بخدمة بيمارستان الدير الكبير بافو، هذا الفاضل في حال معاناته خدمة المرضى، وفد إليه في

بعض الأوقات روح خبيث ممتحناً له بنشوة الزنا ولم يرى أن يفاجئه بها أولاً ظاهراً لعلمه أنه لا يقبل ذلك منه لأنه عمال الفضيلة.

فلما كان في حين مرض صبي جميل المنظر في جسده، فأتوا به إلى موضع المرضى لينال قليل طعام، فحسن له ذلك الروح الممتحن أن يعد للصبي جيداً بنشاط، فلما نظر أن قلبه ينشطه لكي يخدم الصبي باجتهاد حسن ويعد له جيداً، جعل يفرز في ذاته قائلاً يارب ما هو هذا النشاط الذي في قلبي أن أعد لهذا الأخ جيداً، هل هو مصطفى أفضل من جميع الإخوة أو هو مريض أكثر منهم؟ لا .. أسالك أن تكشف لي هذا الأمر يارب فإني أعمى لأن هذا النشاط الذي صار في قلبي ليس هو قدامي مستقيماً كالتعليم الذي علمنا عبدك الذي هو أبونا.

فلما كان المساء لم يأكل ذلك اليوم مع أنه كان ثاني يوم صومه، وكان الأوان صيفاً، بل لما فرغ من خدمة المرضى انعزل إلى موضع وحده وصلى الليل جميعه بتضرع قائلاً أسألك يا ربي يسوع المسيح اكشف لي الأمر لكي أعلم ما هو.

فلما اقترب الصباح رأى ذلك الروح الخبيث قائماً أمامه بشبه امرأة جميلة في حسنها وغوايتها وقال له ما بالك دائماً

تصلي حتى ألزمت بالمجيء إليك قهراً، والآن أنا هو روح الزنـــا وأنا الذي بذرت في قلبك هذا الضمير أن تخدم الـــصبي جيـــداً وهذا هو العمل الذي أكمله بغير فتـــور أن أزرع في النـــساك العظام ضمير محبة البشر أولاً، إما في امرأة أو في صبي، فإذ رضوا بالضمير لكونهم يظنون أنه خير، حينئذ أجتذبهم قليلاً قليلاً بلذة الشهوة الردية حتى أطرحهم وأجعلهم غير مفلحين.

ولما قال هذا اختفى من قدامه، وأنه تعجب وبارك الله الذي كشف له ضمير فخ الشيطان وخلصه. وهذا الأخ اختبر وجرب بالفكر، وبالفكر فتك وغلب وحصل وغلب وحصل على رأسه إكليل الظفر في لحظة من الزمان، وبهذه الحمية الحميـــدة والآراء السديدة أمات قوى النفس البشرية ذات الأوطـــار الـــشهوانية، وصار تلميذاً صادقاً ووليّاً لله محقاً، ورقد بسلام.

تحذير من الأب باخوميوس

وفي أحد الأيام جمع أبونا باخوميوس الإخوة وقال لهم: أريد الآن أن أقول لكم وصايا لكي تحفظوها كلكم خلاصاً وثباتـــاً لأنفسكم لكي الذين لم يقووا بعد في الإيمان والأعمال لا يقعون في فخ إبليس، بل احذروا أن يشك أحد في الكلام الذي أقولـــه لكم. أذكروا الكلمة المكتوبة أنكم إذ لا تؤمنون لا تفهمـــون،

وهذا هو الكلام الذي أريدكم أن تحفظوه: لا يختل واحد منكم مع رفيقه في موضع واحد بغير ضرورة عمل .. لا يمسك أحد منكم يد رفيقه أو يلمس شيئاً من جسده من غير أمر ضروري إلا رجل مريض أو واحد وقع فيساعده آخر حتى يقوم فيحتاج ضرورة أن يمسكه ويلمسه من أجل المرض أو من أجل الوقعة، وهذا أيضاً يكون بحرص وتحرز .. لا يجلس أحد منكم في متكأ مع رفيقه في عزلة ليتكلم معه بل تكونون بعيدين بعضكم من بعض ... لا يرقد أحدكم على مرقد ليس هو له .. لا يدخل أحد منكم إلى موضع رفيقه بغير رسالة أو حاجة ويسأل ما يجب أن يسأل منه لكيلا يجد العدو له فينا موضعاً البتة.

فلما سمع هذا بعض الإخوة كانوا متفردين أولاً قبل أن يدخلوا إلى الشركة تألمت قلوبهم قائلين بعضهم لبعض ما هذا الكلام، جعلنا كارهين نافرين بعضنا من بعض .. هل فينا امرأة؟ أليس نحن جميعاً صورة واحدة وطبيعة واحدة، وإن كان أحد من أهل العالم كائناً في هذه الأعمال الشريرة فحاشا لنا نحن أن نقع في هذه النجاسة هكذا من بعد معرفة الله.

وأقاموا جميع تلك الليلة وجعين القلب لأجل الكلام الذي سمعوه. وفي الغد لما مضى الإخوة إلى العمل لم يمضوا هم معهم لأجل وجع قلوبهم.

وفي وقت الساعة الرابعة من النهار جاء رهبان يريدون الاجتماع بأبينا باخوميوس وعلى يديهم رسالة أتوا بها من أسقف المدينة وأحد أولئك الرهبان كان طويلاً في القامة له لحية كبيرة وهو لابس ثوب شعر من داخله، وكان تادرس هو الذي يهيئ للإخوة.

فلما جاء أولئك قبلهم وقال لهم امكثوا ها هنا حتى يفرغ الإخوة من الشغل وتلتقوا به، وأن واحد من الإخوة المتقمقمين الذين تخلفوا عن العمل، ساذج القلب اسمه (مايوس) لما نظر أولئك الرهبان، جاء إلى تادرس وقال له اهتم بهؤلاء الإخوة جيداً لأن الرجل أنا أرى شخص ملاك، أجاب تادرس وقال الناس ينظرون في الوجه والله ينظر إلى القلوب.

فلما جاء أبونا باخوميوس اجتمعوا به وأعطوه الرسالة، فلما قرأها وجدها مكتوبة هكذا (أن هذا الأخ الذي أرسلته إليك اللابس مسح الشعر هو قسيس ومدبر مجمع تحت سلطاني، وقد وجد طالب نصيب شرير يريد ينجس صبياً، فلما وصل إليَّ الخبر

وتحققته لم أرد احكم عليه لأنه راهب بل أرسلته إليك لأنــك رجل الله وأنا أعلم أن الحكم الذي تحكم به عليه هو من عنده، فإذا أنت أعطيته توبة فأنا أيضاً أعطيه، وإذا أنت أخرجته فالرب قد أخرجه.

وأنه تكلم مع الرجل وفتشه، ثم حكم عليه قائلاً لكونــه لم يتمم نجاسته فلينف من رئاسته ومن قسيسيته ويخرج من المجمــع الذي هو فيه وينفرد في موضع آخر سنة كاملة ولا يصلي معــه أحد ولا يأكل معه، وينوح بصوم ونسك حتى يغفر له الرب ما قد أضمره). وسرح سبيلهم.

فلما سمع (مايوس) الرسالة قال أنا كنت أظن بهذا الرجل أنه ملاك فإذ هو إبليس ولم أعلم ثم أراد أن يجري خلفه لكــي يفضحه، فمنعه الإخوة.

وفي ذلك اليوم وقت الصلاة أتى أولئك الإخوة الذين كانوا تقمقموا من أجل الكلام وسجدوا للأب علــى وجــوههم إلى الأرض قائلين صلِّ عنا يا أبانا لكي يغفر لنا الرب خطايانا لأن الذي رأيناه اليوم قد نزع قلة إيماننا في الذي يطلــب خــلاص أنفسنا.

بعض تدبيرات الأنبا باخوميوس

وكان أبونا باخوميوس يصلي دائماً بنسك ولا يريح نفسه البتة في أكل ولا في شرب، وإذا أراد أن يرقد لم يكن يرقد ممتداً ولا على مصطبة بل كان يجلس مستنداً للحائط ويرقد هكذا وكان إذا احتاج أن يبني له مصطبة لم يكن يبنيها جيدة وإذا بناها لآخر كان يدعهم يبنونها جيدة وبعد بنائها يمسحونها لأنه كان في كل شيء يهتم لرفيقه أفضل منه حتى إلى أحقر الأمور.

وكان أيضاً إذا مضى إلى موضع خارج المجمع مع الإخوة ويحتاج أن يبيت هناك، كان يأمرهم أن يحفروا كل واحد لنفسه حفرة في الأرض مثل مراقدهم في المجمع قائلاً أنه يجب على الرجل المؤمن أن يتعب نفسه في مرقده لكون روح الزنا يقفز على الرجل ليجربه زائداً إذا هو رقد منفرشاً ممتد براحة.

وقال لهم جميع المواهب بطول الروح وثبات القلب تُعطى وجميع القديسين لما ثبتوا قلوبهم نالت أيديهم المواعيد، فخر القديسين هو طول الروح في كل شيء وبهذا حسبوا قديسين.

وقال أيضاً: هذه هي الأعمال الفاضلة، إن قاتلك فكر ضجر من أجل أخيك تكون تحتمله بطول روح حتى ينيحك الله فيه. صوم بدوام، تصبر عليهن صلاة بغير فتور في مخادع قلبك بينك

وبين الله، وصية صالحة لأخيك، بتولية بتحفظ في أعضائك طهارة وقدس في قلبك عنق منحني وضرب ميطانية مع قولك اغفر لي، دعة في أوان الغضب.

وقال أيضاً: احفظ نفسك من هذا الفكر الذي يجلب لك تزكية ذاتك وازدراء أخيك لأنه مبغوض جداً قدام الله الذي يكرم نفسه ويرذل أخاه.

وقال أيضاً: لست تشارك القديسين في مواهبهم إن لم تتعب جسدك أولاً في مشاركة أعمالهم، ولا تدخل الحياة إن لم تضيق على نفسك أولاً حتى الموت كما ضيقوا هم على أنفسهم.

وقال أيضاً: اسمع يا ولدي وكن مطيعاً كحمل ساذج القلب وتشبه بعفة يوسف وحلمه وصبره واحسد سيرته، كن عمّالاً ولا تكسل وتمم نذرك الذي قررته مع الله خالقك وربك، كن صبوراً وتجلد لأن القديسين صبروا فنالوا المواعيد، كن واسع القلب لتكلل مع عساكر الغالبين واصبر للبلايا حتى يرفعها الرب عنك، اجعل لك سلامة مع إخوتك فيسكن الرب في قلبك، الزم البكورية في أعضاءك والطهارة في قلبك، رأسك تكون منكسة ونظرك إلى أسفل واتضع بعقلك واهزم الكبرياء وابتعد من الغلب والتصدق بمخافة الله، وكن متواضعاً لتكون فرحاً لأن

الفرح يمشي مع الاتضاع كن متضعاً ليحرسك الرب ويقويك لأنه يقول أنه ينظر على المتواضعين، كن وديعاً ليحكمك الرب ويملأك معرفة وفهماً لأنه مكتوب أنه يهدي الودعاء بالحكم ويعلم المتواضعين طرقه، وحينئذ يثبتك أمامه ويصنع لك السلامة في جميع سبلك.

لا تعط لعينيك نوماً ولا لجفونك نعاساً لتنجو من الفخ مثل الطائر، كن قوي القلب واقتني لك شجاعة منذ الابتداء لتقدر على الوقوف قبالة غضب التنين لأنه يصعب قتالك منذ الابتداء سيما إذا نظرك غير مستعد لمقاومته ليجعلك من أول الطريق جزعاً فلا تستطيع الوصول إلى وسطها، لا تحقر أحداً من الناس ولا تدينه لو رأيته ساقطاً في خطية لأن الدينونة تأتي من تعظم القلب لأن المتضع ينظر كل الناس أفضل منه، وكيف تدين عبداً ما هو لك فإن سقط لربه وربه قادر أن يقيمه. إن كنت غريباً فانضم ولا تدخل عند أحد ولا تختلط بصنائع الدنيا، وإن كنت بائساً فلا تمل من العمل وحب الذي يؤدبك بخوف الله، واجعل جميع الناس يربحون منك وابنيهم بفاضل الأعمال والكلام الصالح.

وقال أيضاً: يا ابني إذا جعلت توكلك على الله فهو يصير لك ملجأ ويخلصك من جميع شدائدك، إن سلمت كل أمورك إلى الله فآمن به فإنه قادر أن يعمل العجائب في قديسيه. جميع المعلمين والآباء والكتب المقدسة تأمر بالصبر الكثير وتحث عليه حتى أن الريق الذي يبس في فمك وأنت صائم لا ينساه الله بل تجد ذلك عند شدتك في وقت نقلتك.

اتضع في كل شيء وإذا كنت تعرف جميع الحكمة اجعل كلامك آخر الكل فإنك تكمل كل شيء.

اقبل إليك كل التجارب بفرح عارفاً المجد الذي يتبعهما فإنك إن تحققت ذلك لن تمل من احتمالها، بل وتصلي لله أن لا يصرفها عنك، جيد لك أن تتنهد وتبكي فتخلص لأن الراحة تضرك وتفرح أعداءك.

لا تطلق قلبك أن يسبي مع الغرباء لئلا يقال لك لأنك لم تثق بالرب فأقم الآن في أرض العبودية.

لا تخل قلبك من ذكر الله أبداً لئلا تغفل قليلاً فيتغلب عليك الأعداء لأنهم راصدون لأخذك، اغلبهم بترك الكبرياء واحذر من طلبها لئلا تفرح أعداءك، سر في طريق الاتضاع لأن الله لا يريد المتواضع خازياً بل يسقط المتكبر وتكون سقطته شنيعة.

إذا ضعفت عن أن تكون غنياً بالله فالتصق بمن يكون غنياً به لتسعد بسعادته وتتعلم أن تمشي في أوامر الإنجيل.

ما أكثر فخر الصابرين على التجارب فكن صبوراً وقاتل جميع أفكار الشيطان ليعطيك المسيح المواعيد التي أعطاها للقديسين.

احرص نفسك من الشهوة فهي أم جميع المناصب والمقتنص بها يضل عقله ولا يعود يعلم شيئاً من أسرار الله.

احرس نفسك من الامتلاء من الطعام لأن الطريق المؤدية إلى الحياة كربة والباب ضيق لئلا يجعلك الامتلاء خارج الفردوس.

إياك والنجس فإنه يفصل الإنسان من الله، احذر تكبر القلب لأنه أصل الأفعال السيئة كلها، استيقظ بكل قوتك لتكون أميناً على مال سيدك وتدخل إلى ملكوته بفرح له المجد.

وقال أيضاً: يا ابني في كل شيء أطلب الله بطول الروح مثل الزارع والحاصد فإنك تملأ أهراءك من نعم الله، ارفض جميع إرادتك وافلح لله بكل استطاعتك.

إذا جاءك فكر من أجل حب الأجسام أو بغضة أو غضب أو مهما كان من الفواحش كن قوي القلب وقاتل كجبار حتى

تكسرهم مثل عوج وسيحون وباقي ملوك الكنعانيين وحينئذ ترث جميع مدن أعدائك.

اطرح عنك ضعف القلب لئلا يملك عليك الكسل وقلة الإيمان فتطمع فيك أعداءك، اجعل قلبك كقلب سبع وأصرخ كبولس وقل من يقدر يفصلني من محبة الله ربي.

إن كنت في البرية قاتل بالصلوات والتنهد والصوم، وإن كنت في وسط الناس فكن وديعاً كالحمام وحكيماً كالحية.

إن افترى عليك أحد لا تفتري أنت عليه بل افرح واشكر الله، وإذا أكرمك إنسان لا يفرح قلبك بل احزن .. بولس وبرناباس لما أكرموهما شقا ثيابهما، وبطرس وباقي الرسل لما افتروا عليهم وجلدوهم فرحوا أنهم أهينوا من أجل الاسم العظيم.

يا ابني اهرب من مجد الناس وجميع لذات الدهر الحاضر لا تكسل ولا تدفع يوماً بيوم فيأتي خلفك المرسلون لأخذك وأنت غير مستعد فتلقي شدة شديدة وتعاين الوجوه الشنعة ويحوطون بك بقساوة وتمضي إلى المنازل المظلمة فزعاً ونيراناً.

لا تحزن إذا افترى عليك الناس بل احزن إذا أخطأت إلى الله.

حواء طلبت مجد الألوهية فتعرت من المجد الإنساني، وهكذا من يلتمس مجد الناس يعدم مجد الله، تلك لم تكتب لها كتب ولا نظرت مثالات فاختطفها التنين، وأما أنت فقد عرفت بهذه الأمور من الكتب المقدسة ومن كافة الذين تقدموك وليس تقدر تقول أني ما سمعت لأن أصواتهم خرجت على كل الأرض وكلامهم بلغ إلى أقاصي المسكونة.

لا تحزن إذا رذلك الناس وافتروا عليك لأن ربك دعى ضالاً وبعلزبول وبه شيطان ولم يتذمر فاقتن وداعة قلب واذكر أن ربك وإلهك سيق كخروف للذبح ولم يفتح فاه له المجد إلى الأبد.

وقال أيضاً

يا ابني لا تميز، موضعاً وموضعاً قائلاً أني أجد الله ههنا أو هناك، لأن في كل موضع هو الله لأنه يقول أنا أملأ السماء والأرض.

إن أحببت أن تعبر مياه كثيرة فانظر لئلا تغمرك، لا تفتش على الله خارجك لئلا تتلف حياتك. احفظ القدس فقط وهوذا الله داخلك، أبصر أين كان اللص فورث الفردوس وأين كان يهوذا فاستحق المشنقة، وكيف الزانية كسبت مع الأطهار،

وحواء في الفردوس تلاهى بها الشيطان، وإيلياس عرج به إلى السماء، والملائكة من هناك سقطوا، فاطلب ولا تكسل أطلب الله فتجده.

لا تجوز أيامك بالتواني كما مضى عام أول كذلك هذا العام، وكما مر أمس كذلك اليوم. فإلى متى تكسل، استيقظ وأقم قلبك قبل أن يقيموك كارهاً في الحكم وتعطي الجواب عن جميع ما صنعت.

إن وقفت في حرب الموت لا تجزع فينقذك روح الله، لأنه مكتوب أنني لا أخشى سوءاً لأنك كائن معي.

وقال أيضاً

يا ابني لا تسكن بحيث توجد امرأة لأن هوة الهلاك كائنة في شفاهها، وإن تملقك الجسد قائلاً بأننا من زمان كبير قد تحنكنا بالتجربة أو أني صرت ضعيفاً أو عجوزاً أو أن الصوم والحزن أذلني وما بقيت أخالف أمرك، فلا تلتفت إلى اعترافه لأن الأعداء داخله يكمنون لك لئلا يحلق شعر رأسك، أي أفكار عقلك فتمضي عنك روح الله وتضعف قوتك فيربطوك الغرباء ويمضوا بك إلى موضع الطحن فتكون ضحكة وملعبة ويقلعون عينيك ويصيرونك أعمى لا تعرف طريق الخلاص، ولا تنفك من

وهقتك فتموت عند الغرباء بحزن عظيم مثل شمشون، فالآن يا ابني استيقظ واعرف مواعيدك واهرب من القاسي القلب الغاش لئلا يقلع عيني عقلك.

احتفظ من الزنا واذكر العذاب المعد للدنسين، اهرب من مصر ولا تشرب مياهاً من جيحون التي هي الأفكار العهرة.

إن أحببت الأطهار فهم يكونون لك أصدقاء ومعهم تصل إلى مدينة الله المملوءة أنواراً.

وقال أيضاً

يا ابني جرب كل شيء واختر لنفسك الفاضل، لا تكن متعظم العين بل متواضعاً، اجتهد في شبابك لتفرح في كبرك، احرس على القدس لئلا تفتضح في موضع الحكم ويبصرك معارفك فيعيروك قائلين كنا نراك حملاً فوجدناك ذئباً، أين تستر وجهك وكيف تفتح فاك وبماذا تنفلت من عملك الملتصق بك كالصبغة بالثوب، وماذا تصنع حينئذ تبكي ولا ينفع البكاء، تسأل ولا تسمع منك، الآن يا ابني ارفض هذا العالم وأرذله وامش مستقيماً.

لا تصادق صبياً، ولا تحادث امرأة، ولا تدخل عندها لأن الحديد إذا وقع على الحجر قدح ناراً.

احرص طهارة جسدك وسلامة قلبك فإذا كمل لك هاتان بتحقيق، أبصرت الله ربك.

لا تحقد على الناس لئلا تُبغَض من الله. اجعل لك سلاماً مع أخيك لتُحَب من ربك، إذا صرت طاهراً في كل شيء وبينـــك وبين أخيك عداوة فأنت غريب من الله لأنه مكتـــوب اتبعـــوا السلامة والقدس الذي لا يعاين أحد الله خلواً منها وقـــد قـــال الرب اغفروا يغفر لكم فإن لم تغفر لأخيك لا يغفر هو لك لأنه يقول هكذا يصنع بكم أبي الذي في الـــسموات إن لم تغفـــروا لإخوتكم من كل قلوبكم، فإن حقدت على أخيك فهيئ نفسك للعذاب لأنه يقول أنه أسلمه للمعذبين.

الآن قد صرنا مسكناً للإله الصالح بالعماد فلا نجعله ينفر منا بأعمالنا السيئة لأن كل الذين جازوا في البحر الأحمر تبددوا في القفر لأنهم انصدوا عن إرادة الله وتبعوا أغراض قلوبهم.

الرهبنة هي الصوم بمقدار والصلاة (الدائمة) بمداومة، وعفة الجسد وطهارة القلب وسكوت اللسان وحفظ النظر والتعـــب قدر الإمكان والزهد في كل شيء.

جميع آبائنا بجوع وعطش وحزن كثير كملوا سعيهم ونالوا المواعيد ..

إن كنت نذرت لله بكورية بمحبة واشتياق فاطلبه من كل قلبك وسر في وصاياه وحينئذ يجعلك له ابناً ويبارك فيك وتصير بركتك نهراً ونهرك بحراً ويجعلك كبركة نار وسراجه يضيء عليك وتمتلئ نوراً من الإشراق الإلهي ويعطيك الله مثل مجد القديسين فتضع ثقلاً على أراكنة الظلمة وترى قوة الله في عينيك وتغرق فرعون وجنوده في بحر الملح وتخلص شعبك من تعبد الغرباء وتورثهم أرض الخيرات الفائضة لبناً وعسلاً التي هي كمال سعيك وخروجك من هذا العالم بسلام.

وقال أيضاً

ليس لنا عذر نقوله قدام الله إذا وقفنا بين يديه .. هل نقول إننا لم نسمع ولم نعرف أو أنهم لم يعلمونا لأن بالكتب موجود معرفة كل شيء.

وقال أيضاً

يا ابني لا تخل قلبك لئلا تفرح أعداءك، لأن الإنسان إذا تخلى يقع في الشرك ..

لا تكسل أن تتعلم خوف الله وتنمو مثل الغرس الجديد وترضي الله كطفل لا يعرف شراً ..

كن قوياً جباراً في جميع تدبيرك ولا تفسد يوماً واحداً من عمرك واعرف ما تقدم لله الحقيقي ..

كل يوم اجلس وحدك مثل وال حكيم ودن أفكارك وما كان نافعاً موافقاً أبقه واحفظه، وما كان ضاراً أبعده عنك ..

الآن يا بني اجعل ناموس الله في قلبك والزم البكاء واجعله لك صديقاً ويكون جسدك قبراً لك حتى يقيمك الله ويعطيك تاج الغلبة، له المجد.

وقال أيضاً

إن أخذ أحدنا ذكر من أحزنه وخسره وحقد، فقد اغتالت الشياطين على نفسه، ولا أقول هذا فقط، بل وإن لم تتحققه كمثل طبيب معافي فقد ظلمت نفسك، لأنه ماذا تقول إن قد لحقك، أو ما تعلم أنه قد نظف أوساخك؟ فسبيلك أن تعترف أنه طبيب قد أرسله المسيح إليك، فإن كنت أنت تحب المرض، فالرب لا حجة عليه.

وهذا الوجع الذي ظهر لك فهو دليل على ضعف نفسك، ولولا ذلك لما كنت تحزن من الدواء.

ينبغي أن تعترف بالمنة للأخ، لأنك به قد عرفت مرضك القاتل وتقبله مثل دواء شاف مرسل من عند يسوع، فإذا كنت

لم تقتصر على عدم شكره فقط بل وتتظلم عليه أفكاراً، فمن شأنك أن تقول ليسوع المسيح ليس أريد أن تشفيني ولا أشاء أن أقبل من أدويتك.

فالأحزان هي مكاوي يسوع، فمن يشاء أن يبرأ من أسقامه يلزمه اضطراراً أن يصبر على ما يورده عليه الطبيب. ولعمري أن المريض ليس من شأنه أن يستلذ الكي والبتر أو شرب الدواء المنقي، بل في طباعه أن يكره الأدوية، إلا أنه لإيقانه أنه بلا مداواة لا يتحمل على الصحة يدفع ذاته للطبيب عالماً أنه بالأدوية المرة يتخلص من الأخلاط الردية، فمكوى يسوع هو من يهينك لأنه يشتمك إلا أنه يريحك من السبح الباطل ودواء يسوع المنقي هو من يرذلك ويخسرك لأنه يريحك من الكبرياء، فإن لم تحتمل شرب الأدوية ظلمت نفسك وحدك وليس الأخ سبب لك المضرة.

البعد عن ملذات الحياة في الرهبنة

وكان يتأكد في وصية الإخوة قائلاً: أنا أرغب إليكم ألا تستفرغوا وسعكم وتبدلوا حرصكم في تنميق قلاليكم وزخرفتها وتحسين عمارتها، لأن في ذلك مضرة لأنفسكم، لأن العقل ينصب إلى ما كان من الأمور والأعمال حسناً، وينسرق بنظره

إليها تيهاً وعجباً، ويصير للشيطان صيداً وقنصاً، وذلك أنه غريب منا وخارج عن مذهبنا أن نصغى إلى جمال العالم وبهائه ونشغف بحسن أعماله.

بل الأليق لنا أن نرد ألحاظنا عن النظر إلى مهما كان من المهن المحكمة، ونسد سماعنا عن الأخبار المطربة، وأنوفنا عن استنشاق الروائح المعطرة، وأن نكبح المذاق عن سائر الملذات.

وأن نربط أيدينا عن افتعال شيء من المنكر، ونقيد أرجلنا عن السعي في سبيل السيئات، وأفكارنا عن المرح في مروج الشهوات، وأن نكلف أنفسنا ونقودها قسراً إلى الامتناع من الطعام اللذيذ الشهي، ومن اللباس الصقيل البهي، وأن لا نقتني من سائر الأشياء إلا الضروريات وأنا آخذ القول بالاقتصار، وأهمل الأسباب والاكثار .. جميع ما هو عند أهل العالم مستحسن كريم فليكن عندنا نحن الرهبان مطروحاً مهيناً متحققين أن شرف العالم باطل، وجماله عاطل وإنما شرف المؤمن وجمال نقاء لبه واجتهاده في حفظ وصايا ربه.

وفي بعض الأيام سُئل القديس باخوميوس من أحد الإخوة قائلاً: أيها الأب ما بالنا في حال سكون الأعراض التي فينا ورقود آلامنا تكون أفكارنا عالية سامقة وعقولنا صحيحة

وتروي روايات حميدة، ونتفلسف فلسفة شديدة في معنى قمع القوة الشهوانية، وضبط الأهواء اللحمية والأوطار الجسدية وهجر سار الرذائل والتمسك بكل الفضائل، فإذا حان أوان العمل تتغير رؤيتي، وتبطل فلسفتي وأنقض عهدي وأنكث وعدي، فإن سبني أخ شتمته وإن ضاددني قاومته وإن جار عليَّ ماحكته، وإن تَقوَّل عليَّ وبخته .. وعلى هذا النص لا أكظم غيظي عند الحر ولا أصير حليماً عند الغضب ولا أقمع الشهوة عند حضور الأمر، وإن مدحني مادح تبجحت، وإن ذمني ذام غضبت وقلقت، فما هي مصيبتي وما هي محنتي؟ قل لي أيها الأب من أجل الله.

فأجابه الأب قائلاً لأنك لا تسلك الطريقة العملية من كل القلب بل تأتي إليها بانحلال وعزم منقسم، فلهذا ينتقض العهد، ويتخلف الوعد، وينعكس النظام، وقد كان سبيلنا نحن الذين نوينا هجر الأمور الذميمة والأفعال الوخيمة أن نقصد أصلنا فنستأصله منا الذي هو حب الدنيا وملاذها وسائر ما فيها، ومتى ما ارتأينا الأخذ في الأفعال الشريفة الإلهية فلنقصد عنصرها ونغرسه فينا ونسقيه ونربيه وننميه، وهو الزهد في الدنيا وليكن

فعلنا لذلك بريئاً من التمريض والنفاق، حينئذ بمعونة الله أبانـــا يضيء لنا ونقهر أعداءنا ونستولي على الأعراض التي فينا.

أما تعلم أيها الأخ أن من أصعب الأشياء وأشدها امتناعاً أن نعمل صناعة الصياغة بأداة الفلاحة؟. أو صنعة النجارة بـــأداة الخياطة؟ لأن لكل صنعة أداة لا تتم وتكمل إلا بهـــا لا بـــأداة غيرها. فإذاً الإنسان العارف كل الصنائع مـــتى أراد أن يعمـــل الصياغة يجب عليه أن يرمي من يده أداة الفلاحة ويأخذ للصياغة أداتها، وإن أراد أن يعمل الخياطة يرمي من يـــده أداة الـــصياغة ويأخذ للخياطة أداتها، كذلك ينبغي لمن أراد أن يـــدرك العـــالم وعمل الخيرات يرمي من يده أداة الجهل والشر واللذين هما حب الدنيا والرغبة إلى ما فيها ويأخذ أداة العلم والخيرات التي هـــي هجر الدنيا وأمورها، والانحلال من قيودها وشباكها والانفـــراد في المكان الوحدوي، والقنع بالقوت الكافي.

لأنك متى عاينت الصناعة بأداتها الخصيصة بها انعملت بمعونة الله وتيسر أمرها، وتمهرت بطول الزمان فيهـــا وحذقتـــها، وإن باشرتها بغير عدتها طال تعبك وشقاك ولا تدركها.

ألا تعلم أن الماء الصافي النقي يؤدي إلى البصر أسرار ما في ذاته، ومتى شابه الوسخ والكدر وحجب البـــصر عـــن إدراك

الأشياء المستكنة فيه، هكذا أيضاً نور الشمس متى أشرق على الأشياء كان البصر مدركاً لها بالحقيقة، فإن عارضته البخارات والدخان والقتام جعل بين البصر وبين إدراكه تلك الأشياء. هكذا هي أنوار العقل اللطيفة الشريفة متى امتزجت بالأشياء المظلمة الغليظة الكثيفة كدرتها وعاقتها عن إدراك ما في ذاتها من التصور العلوي والتمثل العقلي، فتبقى النفس حينئذ فقيرة من مقتنياتها، جاهلة معلوماتها، عادمة الهدى إلى طريق نجاتها، فغير ممكن هو يا أخي أن يجتمع للإنسان حب الدنيا وحب الآخرة معاً الذي لا يكون أبداً، وقد قال بعض الحكماء جامع الماء والنار في إناء واحد عادم العقل قد حواه الجنون، هكذا كل من ينعم جسمه ويروم الخشوع لا يكون، لأجل هذا الاشتراك المذموم قد عدمنا نقاء العقل الحميد والإفراز الشديد وتفويتنا حيل أعداءنا علينا.

فيجب علينا كل ساعة أن ندفق على الجزء العلمي من نفسنا دهن مخافة الله ومراقبته إذ هو الفلسفة العليا مبدأً.

بطرونيوس المدقق

وكان أخ اسمه بطرونيوس هذا كان في العالم ذا يسر جسيم، ووفر عظيم وقنايا متكاثرة، وحشمة وافرة، من جنس نسيب

وصحب حسيب ووالدين وإخوة والكل ذوو اقتدار وثروة وإيسار. فزهد في جميع ذلك وتركه لمؤثره وهو يومئذ ابن عشرين سنة وقصد دير الأب الكبير للسمعة الطيبة الصائرة عنه ومن يوم فارق مترل والديه ما عاد أبصره ولا دخل إليه.

هذا بطرونيوس البار توسل إلى الأب في مبادئ أمره أن يجعله يخدم مع الذين يسقون الإخوة الماء على المائدة، فأجاب سؤاله لعلمه أن له من ذلك الفائدة الكبرى والمنفعة العظمى، ورسمه في الخدمة.

وعند انصراف الإخوة من بيت المائدة كان يقف على الباب ويسجد لكل أخ ويسأله الصلاة عليه، وثبت على هذه الحال ثلاث سنين، ثم أمره الأب أن يجلس على المائدة مع الإخوة، ولأجل الطاعة أجاب وهو حزين على مفارقته خدمته، وصار يجلس في آخر المائدة أسفل الكل باختياره ويستعمل الخبز والبقل على أكثر الأمر، ويقشف ذاته ويجاهد في النسائك الخشنة ذاكراً قول المخلص أن الطريق التي تؤدي إلى الخلاص ضيقة هي وحرجة جداً.

وبسيرته الحميدة ومناهجه الرشيدة أقنع والده وذويه وكافة إخوته ومعارفه أن يأتوا إلى طريق الرهبانية.

وزهد والده الذي لا أصل إلى مديحه حسب استحقاقه في العالم كزهده، وأحضر إلى الدير جميع قنياته من صامت ومتحرك وغير متحرك، وقد كان في عالمه حسن السيرة فقبله الأب، ولعلمه بحميد تصرفه وأن فيه كفاية أن يسوس غيره سلم إليه ديراً لطيفاً من دياراته، وأظهر فيه جهاداً زائداً، وأضنى جسده وقمع شهوته وأمات معقول بشرته، وصار مثالاً حسناً لمن يشاء خلاص نفسه، وتاجر فغنم وفاز وقطع بحر العالم وجاز إلى حيث العيشة السعيدة والحياة المديدة.

وكان أسقف مدينة بانوس [1] رجلاً مستقيم الاعتقاد متشبهاً حسب الامكان بالسيرة الملائكية عبداً لله خالصاً اسمه أريوس، هذا استدعى الأب باخوميوس إلى عنده وسأله قائلاً إذ كان الله قد ألهمك طول الروح في عمارة الأديرة والنعمة قد منحتك حذاقة في ترتيبها ونظامها فأنا أرغب إلى أبوتك أن تهب لله ذاتك، حسبما قد وهبتها وتعتمر لي بجوار المدينة ديراً بمعونة الله كيما يسكنه ناس ويمجد فيه اسم الله.

---

(1) بانوس: غالباً أخميم.

فأجاب إلى ذلك ومضى واهتم بصناع واختار من الإخوة من فيه نهضة وكفاية في الشغل وأخذهم وعاد حدد لهم موضع الدير وقدره وشرعوا في عمل السور، وكانت قفة الطين محمولة عليه مثل جميع الإخوة.

وأن الشيطان حرك أناساً أشرار فصاروا يجيئون ليلاً ويخربون ما يصير من العمل نهاراً وكان الأب لا يقلق لذلك، بل بطول روح وحلم كثير كان يجدد ما أخرب ويعمر أيضاً، وأنه رأى في الرؤيا ملاك الله محيطاً بحصن الدير مثل سور، وعند ذلك عمل مع الإخوة بفرح وبمعونة الله إياه نشأ هذا الدير وتكامل، وتقلد الأب أمره وصار تحت حكمه مثل بقية أديرته وأسكن فيه رهباناً ورتب عليهم أقنوماً اسمه صموئيل رجلاً ضابطاً هواه ونعمة الله كانت شارقة فيه وجعل معه قوم تابعين أوامره ونهيه مطلعين ثقل الأمور بما أنهم بقرب مدينة وأقام الأب عندهم مطقساً أمورهم إلى أن عرفوا وتأيدوا وعاد إلى ديره الخصيص به المسمى بافو.

وكان في هذه المدينة بانوس جماعة من الفلاسفة محبي الحكمة، وفيما هم جلوس في دار العلم والمدرسة تذاكروا هذا الدير ورهبانه، فقال أحدهم أترى لهم من العلم والمعرفة فأجابه آخر أي علم يوجد عند أقوام مجمعة من فلاحين وسوقة. فقال

آخر أني أسمع عن أبيهم أنه رجل ذو فضيلة عالي السيرة له حكمة كبيرة ومعرفة جزيلة. فقال آخر أنا غداً أزورهم وأجرب أحوالهم وأمتحن أمورهم.

ولما كان الغد جاء ذلك الفيلسوف إلى الدير زائراً ثم قال للرهبان لي مسألة إليكم أشاء أقولها لمقدمكم ليجاوبني عنها بحضرتكم، وكان الأب باخوميوس ذلك الوقت حاضراً عندهم، فطالعوه بكلام الفيلسوف، فأرسل إليه قرنيليوس، فلما سلم عليه قال له ذاك نحن أيها الأب نتصور فيكم معشر الرهبان أنكم أسداء الباء ذوو حنكة ومعرفة بالأمور، ومن قبل ثلاثة أيام وصل إلى المدينة راهب ولعله من ديركم لأنه لابس زيكم حاملاً زيتوناً للبيع وأنتم عارفون أن داخل مدينتنا كثرة لا تحصى من أشجار الزيتون، وعلى الدائم أهل برا يبتاعون الزيت والزيتون من أهل المدينة، ولهذا من الشأن سميت (بانوس) الذي هو الزيتون باللغة القبطية، فهل يجهل عمل الراهب ما عمل أم يعلم؟

فأجابه قرنيليوس: ليس بجهل بل بعلم صائب ورأي ثاقب. قال له الفيلسوف أوضح لي ذلك لأعلمه وأزيح عني هذا الفكر الذي قد خنقني وحملني على الحضور إلى عندكم والتماس علم ذلك منكم. فأجابه قرنيليوس قالاً: هل سمع قط أن زيتون بانوس

وزيتها يؤكل بلا ملح؟ قال له الفيلسوف كلا إذ كل الأشـياء مفتقرة إلى الملح. فقال له قرنيليوس فإذاً نحن هم الملح على رأي الإله القائل أنتم ملح الأرض، فبالواجب جاء الراهـب حامـل الزيتون إلى عندكم لكي يملحكم وزيتونه يملح زيتونكم.

فلما سمع الفيلسوف منه هذا الجواب حار بإيراده إياه علـى البديهة وانكفأ عائداً إلى بلدته وأخبر أصحابه بما كان فعجبـوا كلهم.

فأجاب أحدهم وقال أنك توجهت إلـيهم بمـسألة ملـح وزيتون، فأنا أتوجه إليهم وأسألهم بما يتعلق بكتبهم. ثم أنه توجه إليهم وطلب منهم واحداً من علمائهم ليتحدث معه، فطـالعوا الأب بذلك، فأمر الكبير لتادرس أن يمضي لمخاطبته.

فتوجه إليه ولما سلم عليه قال له الفيلسوف أيها الأب عندي مسألة أشاء أعرضها عليك والتمس منك الجواب عنها.

فقال له تادرس: الله هو المعطي الجواب، فقل ما بدا لـك. قال له الفيلسوف أخبرني من هو الذي لم يولد ومات، ومن هو الذي ولد وما مات، ومن هو الذي مات وما أنتن؟ قـال لـه تادرس: أما الذي لم يولد ومات فهو آدم، والذي ولد و لم يمت

فهو أخنوخ، والذي مات ولم ينتن فهي امرأة لوط الصائرة عمود ملح لكي تملح من كان مثلكم.

فلما سمع الفيلسوف جوابه انزعج في نفسه من حذاقة كلامه وقال له قل لأبيكم يا من بنى على الأساس الذي لا يضطرب ولا ينحل إلى الأبد تباركت أنت والأولاد المولودين منك من أجل أنه قد وهب لكم عقل ممتلئ نوراً وقد تعالى على علم الكل وليس يقدر أحد من أولاد النساء يعاند أمركم هذا الذي يقوي ويتسع إلى أقاصي الأرض.

فلما قال الفيلسوف ذلك أحنى عنقه لأبينا تادرس وانصرف، ولما سمع أبونا باخوميوس هذا الكلام صرخ قائلاً تباركت يارب لأنك أخزيت مشورة جلعاد وكل من يبغض صهيون.

ثم من بعد زمان كلمه ملاك الرب في الرؤيا أن يرتب ديراً آخر في الصعيد، فقام هو ومن له استطاعة من الإخوة وصعد إلى جبل إسنا إلى موضع يُدعى ابنوم، ولما بدأ ببناء حصن الدير اجتمع أساقفة تلك التخوم في جمع عظيم وتخاصموا معه لكي يطردوه من ذلك الموضع، وأن رجل الله صبر على اضطهاد كثير حتى فرقهم الرب عنه.

وبنى الدير وكمله في كل شيء مثل حدود بقيـــة الـــديارة وجعل عليه أباً صالحاً اسمه ساويرس له قوة على الوعظ حـــاراً بروحه مواظباً للصوم والسهر، وودعهم للرب وعاد إلى ديـــره، وكان يفتقدهم في بعض الأحيان مثل باقي الديارة.

وملك الأب غير هذه الأديرة السالف ذكرها خمسة أديـــرة أخرى، وأسكن فيها إخوة ترتيبهم وزيهم أسوة بالدير الكـــبير، وكانت حوائجهم تجيئهم من الدير الكبير بافو بحيـــث كانـــت ترتفع أعمالهم، وكانت قد جرت عاداتهم أن يزوروا كلهم الدير الكبير دفعتين في كل عام، في الفصح المقدس، وفي عيد الصليب الكريم، وكانوا يرتبون بأمر الأب في الوقفة والجلسة كل أحد في موضعه الملائم له، ويقدمون لله الصلوات والتسابيح ويمجدونـــه كمن فم واحد ويعملون محبة بمكان واحد ويتمتعون بعظـــات الأب وتعاليمه، ثم يتزودون بركاته وينعكفون إلى دياراتهم.

وفي أوان فصل الخريف كان العمال يوافون فرادى ويرفعون إلى أقنوم الدير الكبير حسابات أعمالهم وارتفاعات تصير علـــى أيديهم مؤرخة بكتابة وتفصيل شيئاً فشيئاً، ومهما كان يحتـــاج كل دير كان الأب يوعز على المختص بهذه الخدمة أن يهتم بـــه ويرسله لهم.

ولما نما تادرس في طبانسين في عمل الرب، أخذه عنده في بافو، وأقام آخر عوضه اسمه زكووس، وترك تادرس معه مثل يشوع بن نون مع موسى ذلك الزمان، وكان أقنوماً أولاً ومشرفاً على سائر الأديرة، وكان يرسله إلى كل الأديرة دفوعاً كثيرة عوضاً عنه يفتقد الإخوة ويشفي أوجاع نفوسهم الذي أعطى له من الله.

وكان في كل مجمع هو الذي يقبل من يريد أن يترهب، وإذا كانت أيضاً الحاجة إلى إخراج واحد منهم بأمر الرب هو الذي يخرجه أيضاً.

ودفوعاً كان أبونا باخوميوس يكلم الإخوة من الكتب فيدعو تادرس إلى جانبه إذ كان يتفق له حاجة يجلس في موضعه ويكلمهم لأن نعمة عظيمة كانت عليهم، وكانت له حلاوة كثيرة عند جميع الإخوة لأنه كان حلواً بشوشاً مع الكل في ملاقاتهم، وكان أبونا باخوميوس يبنيه في كل شيء.

ولما كان في زمان الصيف وهو صائم يومين يومين وكان يعمل مع الإخوة في الحقل، لحقه حر في يوم من الأيام، ومن بعد فروغ العمل جلس يستظل تحت حائط، فجاز أبونا باخوميوس وقال له بوجع قلب: يا تادرس هل الحائط التي تحمل عن

جسدك؟ فلما سمعه تنحى عنها بسرعة، ولما كان المساء تقدم تادرس إلى الكبير قائلاً يا أبي في رأسي وجع ضربان. قال له الكبير يا تادرس رجل مؤمن يسلك طريق الكمال إذا مكث معه مرض في جسده عشرين سنة يؤلمه لا يجب أن يقوله لأحد من الناس إلا الأمراض التي لا يمكنه يخفيها، وهذه الأخرى يحتملها كنحو قوته، أن لا ينيح نفسه إلاّ في أمر يفوق طاقته لأنه مكتوب أن الروح مستعد والجسد ضعيف. هل تظن أن تقطيع الأعضاء والحريق وحده يحسب شهادة؟ لا بل وتعب النسك والضربات التي من الشياطين والأمراض لمن يحتملها بشكر هو معترف وشهيد، وإلا فما الحاجة أن بولس خادم المسيح يكتب هكذا أني أموت كل يوم لأنه لم يكن يموت في كل يوم في ظاهر الأمر بل إنما كان يصبر ويحتمل كل تعصب يأتي عليه مثل كلمة مخلصنا القائل: " من شاء يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني ".

وكذلك أيضاً اليوم إذ يكون رجال الله في أمراض ويخفونها عن الناس هؤلاء هم شهداء عند الله. وإذا كان إنسان جاء عليه تعب من الله أو مرض ولم يتب تكمل عليه الكلمة المكتوبة في إرميا: " إني جلدتهم ولم يتوجعوا وأفنيتهم ولم يقبلوا الأدب ".

أتنظر أن عارضاً صغر أم كبر يعرض لأحد خلواً عن علم الله؟ .. لا البتة، بل عن علمه ومعرفته. فاحتمل الحادث بشكر وجلادة نفس فإنك إذا فعلت ذلك كذلك ستقابل عنه إما بمحص الخطية أو بزيادة العطية وهو تبارك اسمه متى شاء أتى بالشفاء ولعله يختبرك بالمرض ويبلوك إن كنت تبقى شاكراً كأيوب الكامل في سائر أنحائه الذي صبر على تلك القوادح الفاجئة والأوصاب الناكية، قائلاً ليكن اسم الرب مباركاً إلى الدهر أم لا.

واعلم يا تادرس أن أناساً ثلاثة أجرهم متساوياً: الأول منهم رجل حامل على عاتقه صليب المسيح – لا عود الخشب – بل معاناة الشقاء والتعب، سائر تحت وقره، كارع صبره ومره إلى نهاية عمره.

والثاني رجل مريض، ودهوق بالأوصاب والأسقام، محتمل بشكر اللواذع والحمام.

والثالث رجل يخدم المريض بكل قوته، ويفصد عزاه ونياحه بحسب مكنته، قاصداً بذلك حفظ وصية الله تبارك.

وحسن هو أن يقضي السقيم في مرضه مدة من السنين بطول أناة وصبر وجلادة.

فلما سمع تادرس هذه الأقوال، ازداد نشاطه وتوفرت شهامته وكان الأب تقدم وأنذر إخوة أديرته وقال لهم أنـــا وتـــادرس خادمان لله خدمة واحدة وله سلطة من الله ومني أن يـــأمركم وينهاكم كأب، فامتثلوا أمره وأطيعوا نهيه بمخافة الله.

وفيما كان تادرس في أحد الأديرة، أُتهم أحد الإخوة بسرقة، وسأله الرهبان أن يطرده من الدير قائلين أن في مساكنة السارق قلقاً كثيراً لأن مع هلاكه لنفسه يصير حجر عثرة لإخوته ومـــا كان المتهم السارق بل غيره، ممن لم تسبق لهم ظنة سيئة، وتهمة ردية، بل مظنون عند الكل تقي أمين.

فلما رأى السارق أنه يتبع خطيئته جريرة ثانية بما قد أوجب على الأخ البريء من القضية انفرد بتادرس واعترف له بحقيقـــة الأمر وحقق عنده براءة الأخ المتهم وأنه هو السارق لا ذاك وأن الجناية والأدب لازمان له، والآن مهما أردت اصـــنع بي .. إن أردت أخرجني .. وإن أردت أعطني توبة، والآن هذا الأخ بريء من هذا الأمر.

فلما سمع تادرس هذا قال مكتوب نفس بنفس ولكونك قد خلصت هذه النفس ألا يوجبوا عليها الحكم في أمر لم تخطئ فيه، قد غفر الله خطيئتك بلا تعب على أنك لا تعاود إلى مثلها ولا

إلى ارتكاب غيرها من الأمور المنكرة. وأن الأخ أعطى الله عهداً أكيداً بحضرة تادرس أنه لا يعاود إلى مثل هذه الجريرة ولا غيرها من الأحوال المنكرة.

ثم انعطف تادرس إلى الأخ المتهوم وقال له هل فعلت هـــذا الأمر الذي قالوه عنك؟ قال كلا. قال له تادرس ولماذا احتملت خصومتهم لك وقلت أنا فعلته؟ قال خفت أن أقـــول لـــيس لي فيضربوني ويخرجوني، فقلت أنا الذي فعلت وكمـــا تريـــدون اعملوا. قال له تادرس أنك وإن كنت لم تفعل هذا لكن علـــى كل حال لله عليك ديون أخر وبحزنك اليوم قد أديت الطائلة عن تلك، فسبيلك أن تقدم لله شكراً.

ثم انعطف تادرس نحو الإخوة وقال لهم قد رفعتم إليّ النظر في أمر هذا الأخ وأنا قد أيقنت وتحققت أن مشيئة الله ســـامحته، فلا يذكر له أحدكم شيئاً مما أُتهم به عالمين أننا كلنـــا خطـــأة بالفعل والنية والحواس الظاهرة والخفية ونحتاج قاطبة رحمـــة الله وعفوه.

وفي بعض الأوقات كان الأب باخوميوس وتادرس جالسين بمكان خال يتفاوضان أقوال الله وفي أثناء ذلك سمع تادرس ألحاناً مطربة ونغمات متفقة وترنيمات عذبة، فقال للكبير أيهـــا الأب

أتسمع ما هوذا أسمع أنا؟ فأجابه نعم. فقال تادرس وما هو هذا يا أبي؟ فأجابه الأب قائلاً نفس فاضلة طاهرة قد فارقت في هذه الساعة جسدها وملائكة الله قابضوها وها هم يزفونها ويمجدون الله أمامها على خلاصها من أغراض طبيعتها ومن شر أعدائها وبهذه الحالة السنية والتسابيح الروحانية يزفونها إلى الله باريها وختنها، واتفق أنها جازت فوقنا وأنعم الله جل اسمه علينا بسماع هذا التلحين من ملائكته المسبحين، ثم أنهما نهضا وقدما لله شكراً ومجداً.

ودفعة كان هذان الفاضلان قد حضرا معاً مع جماعة من الإخوة عند أخ قد دنت وفاته، وفيما هما جالسان كشف لهما الرب النظر إلى خروج نفس الأخ من جسده وعاينا جميع ما جرى ولم يطلعا أحداً على ذلك لأنه أسرار خفية. فأما الفاضل من الإخوة الحضور وقتئذ فأخذوا إحساساً بهما من سهوهما وصمتهما وتحيرهما من الحادث، وأنهم سألوهما أن يعرفاهم ما أبصرا فنهاهم الأب قائلاً لا تمكنوا منكم هذه الهواجس والأفكار ولا تلتمسوا هذه المطلوبات لئلا يستعلن لكم غير الواجب.

اتصل طيب أخبار الأب باخوميوس برجل ما، اسمه تادرس، من ذوي مراتب الكنيسة العظمى بمدينة الإسكندرية، وكان هذا

الإنسان فاضلاً في سيرته متقشفاً في عيشته يعاني النسك منذ طفوليته، فحثه الشوق إليه وإلى بقية الإخوة وزهد في العلمانية وطلب الرهبانية وفي الحال ركب في سفينة بحرية وتوجه إلى الصعيد الأعلى إلى حيث كان الأب وأديرته، وبتوفيق الله إياه وصل إليه وسلم عليه وعرفه نزاع نفسه إلى الرهبانية، وكان هذا الرجل حسبما تقدم القول موعباً من الفضائل السنية متجملاً بالورع والخيرية مطيعاً وديعاً كأحد غنم الرب، قد حمل ذاته من النسك ما يزيد عن قوته، ويتجاوز طاقته وكان قد شاع في تلك الديار طيب الصيت عنه والأخبار الصالحة أنه مستقيم الديانة وصحيح الأمانة لأنه كان قريباً وملازماً لينبوع الحيوة، أعني الأب أثناسيوس رئيس أساقفة الإسكندرية، ومنه سقى أرضه وأرواها وأتى بأثمار الفضائل الكبار.

فقبله الأب في الحين بفرح كثير وأحصاه في جملة الإخوة ورسم له المقام عند شيخ من القدماء الأفاضل والعلماء الأماثل، يحسن اللغتين اليونانية والقبطية لكي يعزيه ويسليه لأن تادرس المذكور لم يكن يحسن غير اللغة اليونانية، وكان الشيخ يعلمه اللغة القبطية ولما عبر على ذلك وقت قصير تعلم اللغة القبطية علماً كاملاً.

وعندما شاهد الأب باخوميوس هذا تادرس الشهم الجلد وضبطه وتقشفه الدائم وصبره على التعب الشديد، شغف به وزاد حبه إياه وانتدبه لخدمة الضيافة وقبول الواردين لأنه كان حسن السلام لطيف الكلام يقدر ينفع الوافدين بنظرهم إلى وداعته وبشاشة هيئته ولين عريكته وبتعاليمه الفائقة وعظاته الرائقة، لأن الطارقين لهذا الدير كانوا كثيرين.

وتقدم الكبير إليه بالوصية وعرفه كيف يسوس الناس ويحسن قبولهم ويعزيهم جسدانياً وروحانياً ويشيعهم بالكرامة. وقال به فضيلة كبرى ومنقبة عظمى وهي إذا رأى الإنسان أخاً سالكاً في غيه مهملاً خلاصه يعظه ببشاشة وهشاشة وعلى انفراد وعرفه كيف هو الموت والانحلال والمجازاة الرهيبة السائرة عن سائر الأفعال وقتئذ، ويكرر عليه ذلك من غير تبرم حتى يختطفه بكثرة عظاته وتنبيهاته من يد إبليس المحال.

ورسم له أن يكون يقرأ على الإخوة الكتب المقدسة وأن يتحدث مع الشبان منهم على الدائم ويلاحظهم ويهتم بهم لعلمه أن فيه كفاية لذلك، وقال له إن أشكل عليك أمر ما أو اشتبه عليك إفراز حال من الأحوال طالعنا بذلك وستجد بمشيئة الله ومعونته تحريراً ويقين كل واحد من المطلوبات.

وصار هذا تاودروس الإسكندراني يترجم ويلخص على الإخوة رموز ما يقرأه باللسانين اليوناني والقبطي بإسعاف الروح القدس إياه، ومكث في هذه الخدمة على الحال الحسنة المرضية لله ثلاثة عشرة سنة، وأظهر من الفلسفة العملية ما يتجاوز القوة البشرية.

وهو كان بكر الإسكندرانيين في هذا الدير، وقدم بعده جماعة واقتدوا بسيرته وأثمروا أثماراً حسنة ولله مرضية، الذين من جملتهم أكسونيوس الصغير، وناون، واثنان روميان الهيان فيرمس ورروميلس، والعجيب دومنوس الملقب بالأرمني، وبقية القديسين الكواكب الزاهرة، فبعضهم أدرك الكبير في حياة الجسد وبعضهم لم يدركه.

بعض صفات باخوميوس الجميلة

ولو أثرت أن أصف محاسن هذا الأب باخوميوس الفاخر على مساق نصها وأشرح الواحد الواحد منها، لقصرت دون بلوغ الغاية، وتوقفت عن إدراك النهاية، لأن من يقدر يحصي سوسنات الحقل أو يستطيع أن يعد أمواج البحر، لكن بحسب القدرة والإمكان نأتي بقليل من كثير ...

كان هذا الأب متضعاً في أخلاقه وتصرفاته، وما كان الطارق الغريب يعرفه ويميزه من الإخوة خدام الدير لأنه كان مثلهم مشتركاً معه في أشغالهم وأعمالهم وكان يقف يسمع العظة والقراءة مع الإخوة كواحد منهم، ومتى كان يحتاج ثوباً كان يطلب من الأقنوم أسوة بالإخوة كلهم، وما كان له سلطة ولا حكم على شيء من الأشياء كبر أم صغر دون أن يطلب ذلك من الأقنوم، لأنه كان يخاف أن يتغرب من الوداعة وتمسكن اللب ومن حلاوة ابن الله ربنا يسوع المسيح.

وفي عشية بعض الأيام والإخوة خارجون من بيت المائدة تبع الأخ تاودروس الإسكندراني الكبير وسأله قائلاً سمعت عن الأب قرنيليوس أنه ناسك وضابط هواه جداً، وفي حين انتصابه في الصلاة لا يدع عقله أن يطوف جائلاً، بل قد أوقفه شاخصاً إلى الإله، وأنا اليوم جربت عقلي في مثل هذا بتيقظ كثير، وجهد ليس بيسير، وبالكاد قدرت أن أصلي ثلاث صلوات وأنا ضابط عقلي وماسك أفكاري لم أدعها تبتعد عني. فعلمني يا أبي كيف يمكنني أن أتلو أقوال الله وأصلي ولا يكون عقلي يسعى خارجاً ويدور مبدداً.

فأجابه الأب قائلاً: العبد بالجسد يشاء على الدائم أن يكون حراً، والحر تنازعه نفسه أن يكون رئيساً، والرئيس يؤثر أن يكون ملكاً، وهذا لا يتيسر لمن أراده في هذا العالم كون قناياه لها مقدار ويوزعونها أقساماً وبمقدار ما يزيدون في النصيب الواحد بقدر ذلك يقللون النصيب الآخر، واستكثار الواحد هو نقص الآخر. فمن ههنا تنشأ الخصومات على الأكثر بين الناس من أجل البغض بإزاء المنقوص، فأما المقتني الفضيلة فاستكثاره منها غير محسود، لأن الحائز الجزء الأكثر منها لن يمنح ولا خسارة واحدة لمن يتمناها مساهم حظوظه بالسواء، لأن الفضيلة لا تنقص إذا اقتبلت من كثيرين ولا تضيق إذا قومت من كثيرين حتى لو أن كافة الناس اقتنوها لما أفنوا ثروها، بل بمقدار ما يكون إنسان مكثراً مستغنماً منها لن ينقص نصيب مساهميه، فلذلك لا يقوم نزاع بسببها وهي متيسرة لكل من سعى في طلبها باجتهاد وقرنيليوس ما نال ما ناله عبثاً وجزافاً بل بجهادات وافرة وأعراق متكاثرة ملك من نعمة الله ما ملك وأنت فاتعب مثله وثق أنك تنال فستأخذ بحسب استحقاقك وبإزاء أعراقك.

زيارة القديس مقاريوس للقديس باخوميوس

وفد في بعض الأيــام الأب مقــاريوس الكــبير إلى الأب باخوميوس زائراً، وفيما هما يتفاوضان في أقوال الله، شاور الأب باخوميوس للكبير مقاريوس قائلاً: أيها الأب عندي ههنا إخوة سيرتهم على غير نظام فتأديبــهم جيــد أم لا؟ فأجابــه الأب مقاريوس: أدب، واحكم حكماً عدلاً في الذين تحت يدك، فأما على غير هؤلاء فلا، لأنه قد كتب احكموا علــى الــداخلين، والذين خارج الرب يحكم عليهم.

رؤيا للقديس باخوميوس

وكان أيضاً في وقت مرض الأب باخوميوس واتجع حــتى قارب الموت وأقام أياماً كثيرة لا يكلم إنساناً، لأنه كان قد أخذ إلى الدهر الآخر بأمر الرب ورأى نور ذلك الموضع عجيباً جداً، ولا يمكن أن يصفه نطق، وفي هذه الحال خرج أمر من الرب بأن يرجع إلى العالم، فاتجع قلبه لذلك، وأن رجلاً منيراً وجهه مملوءاً من مجد الرب خاطبه قائلاً امض يا ابني فقد بقى لك شهادة قليلة أيضاً في العالم حتى تكمل باقي خدمتي، فلما سمع هذا فرح لأنه كان يشتهي في كل حين أن يستشهد علــى اســم المــسيح،

والملائكة السائرون معه أعلموه أن الرجل الذي خاطبه هو بولس الرسول.

تجربة لتادرس تلميذ باخوميوس

وعلى ما كنا تقدمنا فذكرنا آنفاً، كان الأب باخوميوس قد رتب تادرس معزياً للإخوة وواعظاً ومعلماً وصار له بكراً بالروح القدس الكائن فيه وجعله نائباً عنه مشاعاً لجميع أديرته، وكان يعمل بين يديه لخلاص النفوس ولم يكن يطلع على ضميره قط أنه رفع أو مجد.

فسأل روح خبيث من الله لكي يمتحنه بألم الكبرياء، ومن بعد سبع سنين منذ ظهر قدام جميع الإخوة أنه أكبر أبناء أبينا باخوميوس، اتفق أن الكبير مرض ذلك المرض واجتمع إلى عنده لافتقاده وأخذ بركته كل رؤساء أديرته والمتقدمين من آباء رهبانه.

ولما عاينوه قد ساءت حاله، انفردوا بمعزل عن الكثيرين ورأوا قائلين أبونا مريض على ما ترون وربما يشاء الرب أخذه إليه ونبقى أيتاماً، فهلموا بنا نعين واحداً منا ممن يكون فيه كفاية للأمر متأهباً معداً حتى وعائذاً بالله إن قضى الباري جلّ اسمه

وتقدس ذكره على أبينا الكأس المحتوم على سائر الناس رتبناه موضعه رئيساً لنا ومقدماً ما علينا.

فاجتمع رأيهم كلهم على تلميذه الخصيص به تادرس، وكان تادرس حاضراً معهم وأنهم بجملتهم انعطفوا نحوه قائلين له: إذ كان ليس فينا من يعرف طريقة الأب في سائر تصرفاته وكلية عيشته فاعمل لله ولنا طاعة واخلف أبانا وهب ذاتك لنا وعزنا واقبل سؤالنا ولا تخيب رغبتنا، واعلم أنك إن أنت خالفت وتوقفت عن ذلك فأكثر الإخوة يتفرقون ويتشتتون وتكون أنت على ذلك وسببه ويلحقك تبعة الأمر من الله.

فامتنع تادرس، وأنهم ألزموه قائلين ليس أحد غيرك كافياً لهذا الأمر، فبذل لهم القبول شاء أم أبى، وأجابهم إلى ذلك، وهذه الحركة كانت من ذلك الروح المجرب ليجد على تادرس فرصة بفكرة الرئاسة.

ولما كان فيما بعد لما وهب الله للأب عافيته وامتن على الإخوة بحياته، اتصل به ما رتبه الإخوة من رئاسة الأخ تادرس بعد وفاته، وأنه فرح من جهة، وحزن من غيرها.

أما فرحه فكان من أن اختيارهم وقع على الذي كان هو مقدمه لهذه الخدمة، وأما حزنه فكان من أن تادرس جنح إلى

الأمر وانحنى إليه سريعاً وقبله من مجرد فكرة الرئاسة المولدة التيه والعجب.

وأنه استدعاه (تادرس) إليه وكان عنده قوم من أكابر رؤساء أديرته وهم صورون وبفنوتيوس وأنستناسيوس وقرنيليوس وقال لهم كل واحد منا فليعترف بنقصه لدى كافتنا وأكون أنا المبتديء بالاعتراف أولاً: اعلموا أني مقصّر في تعاهد الإخوة وتسليتهم لكوني على الأكثر خارجاً من الدير مقيماً في الجزيرة متوافراً على أعمال الحقل وما يصير منها بمشيئة الله قوت الإخوة كاف حذراً من حادث الجوع الذي قد جعلته لحرصي علة وسبباً فاغفروا لي.

الآن قل لنا يا تادرس ما يتعلق بك. فقال تادرس: أنا أقمت سبع سنين مرسلاً منك أيها الأب لتعاهد الإخوة والأديرة وترتيبها والنظر إلى ما يتعلق بمصالح شانها نائباً عنك ومساويك في الأمر والنهي وما خطر قط هذا ببالي ولا زهوت وتباهيت بل كنت مثل واحداً من الإخوة ومترلتي مترلتهم، بل ودونهم، والآن فأقلقني هذا الفكر أي فكر الرئاسة وما قدرت أن أغلبه فاغفر لي.

فلما سمع كلامه عاتبه قائلاً: لماذا أعطيت موضعاً للـــروح المجرب لك بفكر العظمة عند كلام الإخوة معك، هؤلاء الذين أطغاهم أولاً لكي ترضى بأمر هكذا قبل أن يحده لك الله؟

ألم تسمع الكلمة المكتوبة في الرسول: أن ليس أحد يأخـــذ الكرامة لنفسه وحده إلا الذي يدعوه الله مثل هرون.

أجاب تادرس قائلاً قد أخطأت، بل جميع ما تأمرني به أنـــا فاعله، وأعطني توبة. وأطلب من الله عن هذه الفارطـــة لعلـــه يرحمني ويقيلني من عثرتي.

ثم أن الأب عزل تادرس من أقنوميته.

ورجع (تادرس) وهو حزين جداً ومضى إلى قلايـــة ذات سكون ودجون وجعل يبكي على غلطته ويندب فارطته خائفاً من ألا يرد الله وجهه عنه بما انه أحزن صفيه وأغضب وليه، إذ كانت مترلته عنده مترلة الكامل الذي لا ينغلب لوصم ولا ينقهر لألم ولم يزل هذا دأبه مدة سنين تحت عقاد الأدب وكان دائماً في البكاء وعيناه كانتا تتجعان من كثرة الدموع حـــتى كـــان الإخوة إذا جازوا بمكان حبسه عشية وباكراً ويسمعون شـــهيقه كانت تتجع قلوبهم ويبكون، وكان أكبر الإخوة يعزونه قـــائلين

كف أيها الأخ عن هذا البكاء الزائد لأن الصائر ما كان إثماً ولا خطية.

وبعد عبور الحولين حله الأب من القانون وجعله ألا يجنح إلى حب الرئاسة ولا يميل لها وأن يتحقق أنه كباقي الإخوة لا امتياز بينه وبينهم.

وفي حال عزلانه قبل أن ينحبس طلب من الأب صلاة ليمضي إلى دير منخوسين لحاجة ما ووعد أنه يعود وشيكاً، فأذن له الأب بذلك وأطلقه، ولما بلغ إلى دير شنوفسكيا الذي كان طريقه عليه دخل في سفينة ليعبر إلى دير منخوسين وكان فيها شيخان، فلما أبصراه قال أحدهما لصاحبه أن هذا الراهب طوباوي، فأجابه ذاك قائلاً ما بالك تطوب شقياً إذ كان ما وصل بعد إلى مقدار (مرجونة) فأجابه الأول وما هي هذه المرجونة وما هو مقدارها؟ فقال له الثاني بمثل ضربه له: كان فلاح ما قاسياً وما كان يثبت معه أجير سنة واحدة لقساوته وعدم سهولته فجاء إليه بعض الناس وقال له أنا أخدمك وأكون معك، ففرح به وقبل بالرحب والسعة، فلما حان أوان سقي الحقل قال الفلاح لأجيره هلم بنا لنسقي الحقل ليلاً. فأجابه الأجير قائلاً حسناً رأيت أيها السيد وصواباً أن يكون السقي في

برودة الليل فلا تشربه الأرض سريعاً وأيضاً يتوفر علينا الماء إذ لا تشرب منه دابة ولا طائر. فلما بلغ أوان الحرث قال الفلاح للأجير أرى أن نزرع في كل شفر نوعاً من البذور، أعني شفر حنطة وشفر شعير وآخر عدس وآخر فول وعلى هذا النسق نطرح جميع بذورنا. فأجابه الأجير قائلاً هذا هو الرأي السديد والفكر الرشيد لأن الزرع يظهر فيما بعد حسناً بهياً ولامعاً ضوياً بتخالف أزهاره وجمال نضاره ولما كان بعد في السنبل خضرة ظاهرة ورطوبة بينة قال الفلاح للأجير هلم لنحصد، فأجابه قائلاً هذه لحكمة وافرة ولفلسفة متكاثرة إذ يوجد التبن لذيذاً طرياً طيباً ولا يقع من السنبل على الأرض شيء.

ومن بعد الدرس، جلب له مرجونة لطيفة ورسم له نقل التبن بها، فقال له الأجير لقد فقت أقرانك وعلوت بسمو رأيك وثاقب ذكائك على أهل زمانك إذ يصير التبن تحت عدد وإحصاء ولا يقع فيه تفريط.

ولما امتحنه بهذه الأحوال وغيرها وصادفه مطيعاً سميعاً من غير خلاف ولا مرادة، قال له من الآن لست بأجير بل ولد كريم أثير وسترث عني إرثاً كثيراً.

وهذا الراهب إن كان قد كال التبن بالمرجونة حينئذ يستحق أن يحظى بالغبطة والتطويب. فقال له الشيخ الأول إذ كنت قد أتيت بمثل ففسره لنا، فأجاب قائلاً: أما الفلاح فهـــو الله جـــلّ اسمه، وذكرى القساوة وعدم السهولة أشير به إلى حمل الصليب اللازم تابعيه وخادميه الذي معناه قطع الإرادة والمشيئة وإماتـــة المعقولات البشرية، وباخوميوس والد هذا الراهب لما صار مطيعاً لربه في جميع أنحائه وسائر أحواله ظهر مرضياً أمامه، وهـــذا إن صبر مقتدياً بآثار معلمه سيصير ابناً له ووراثه.

فلما سمع تادرس هذه الأقوال طرق إلى أسفل متعجباً منـــها ومن قائليها. ومن بعد خروجه من المركب لم يرهما لأنهما كان ملاكين مرسلين من الله ظهرا له ليصلحا خلله ويهديا أفكاره.

وكان تادرس يمشي باكياً حزيناً وحزنه لم يكن لأنه عُـــزل من خدمته، بل لكونه طغى من الروح المجرب له وأنعم للإخوة بأن يصير رئيساً لا سيما وقد كان سمع من الأب باخوميوس هذا القول وهو كما أن الميت لا يستطيع أن يقول لأموات آخرين أنا رأس لكم مقدم عليكم، على هذا المثال جرت حالي أنـــا منـــذ ضبطت هذه الخدمة لم يخطر بقلبي ولا جال بخلـــدي أنـــي أب

ومقدم على الإخوة الذين أنا بينهم، بل الله وحده هو أبونا ورئيسنا.

ولما كان تادرس دائماً يبكي، خطر بقلب واحد من الإخوة فكر شرير أن تادرس لو لم يأتي خطية لم يكن الأب يعزله من طقسه، فأتى إليه وقال له أترى يا تادرس حق هو هذا الكلام الذي سمعته أنا عنك من أبينا أنه لم يعزلك من طقسك لهذا فقط بل ولأنه وجدك في نجاسة الدنس؟ فحزن تادرس ولم يجاوبه عن هذا الكلام. ولما خرج من عنده قال تادرس يخزيك الله يا شيطان لأنك تريد تقلع من قلبي محبة رجل الله. وقام لوقته ومضى إلى الأب وقبل رأسه دفوعاً كثيرة قائلاً ما طلبناه قد وجدناه يا أبي، ولم يسأله عن الكلام الذي سمعه من الأخ إن كان هو قاله أم لا. ولا قال هذا الكلام لأحد إلا بعد خمسة عشر سنة وهو يكلم الإخوة، قاله لهم لأجل المنفعة.

وعرض للأب زكاوس حاجة بالإسكندرية، فطلب من الأب أن يأمر أحد الإخوة أن يسير معه على سبيل المعونة له ولحفظ ما معه في المركب ولقضاء حاجة تعرض. فأجابه إلى ذلك ورسم لتادرس أن يمضي معه ويخدمه، وكانت عينا تادرس وقتئذ مضرورتين من كثرة البكاء، وقال الكبير لزكاوس

استخدمه لا في المركب فقط بل وأينما شئت، فامتثل تـــادرس أمرة الأب كلها، ومضى مع زكاوس بطيبة نفس وصار يخدمـــه ويمتثل أوامره ونواهيه كأنه غرسة جديدة، وإذا رسوا بالمركـــب إلى البر هو الذي يقفز أولاً ويربطها، وإذا أرسل مـــع آخـــر في حاجة كان يمشي من خلف بتمسكن لب ووداعـــة وخمـــول أفكار.

ولقد اعترف الأب قدام الإخوة من أجل تادرس قـــائلاً: لا تظنوا أن تادرس صار في نقص لأنه عُزل من طقسه، كلا .. بل أقول لكم أن جميع ما وهبه الله له عن مناسكه وأعراقه من وقت مجيئه إلى الدير وإلى الآن قد ضاعفه الله له سبع مرات في هـــذه المدة اليسيرة والأيام القليلة وعلا نجاحه وسما فلاحه.

نياحة القديس باخوميوس

وبعد ذلك قال أبونا باخوميوس لتادرس هوذا قـــد كمـــل اعتراف الشهادة التي قيل لي عنها أنه قد بقى لك شهادة قليلـــة من قبل أن يفتقدك الرب، والآن على ما قد كان فأنا أظـــن أن يوم افتقادي قد قرب.

ومن بعد عيد الفصح أطلق الله مرضاً في الإخوة عاماً لكافتهم، ومرض في كل دير من الأديرة زهاء عن مائة أخ وأكثر، وكان الأب باخوميوس من جملتهم وساءت حاله.

وهذا المرض كان موبئاً مفسداً معماً، كان يحم الواحد منهم فكانت في الحال سحنته تتغير وعيناه تحمران وتصيران كالدم وكان يزدم كأنه خنيق، وعلى هذه الحال يفارق بروحه، ومات في هذه الضربة صورس رئيس الدير المسمى بخنون، وقرنيليوس رئيس الدير المعروف بمنخوسين وبفنوتيوس الكبير أخو تادرس أقنوم الدير بافو المشرف كان على سائر الأديرة، وغيرهم كثيرون من أعيان الإخوة.

وكان تادرس قد أوقف ذاته لخدمة الأب، وطال مرضه وانسقم جسمه إلى حد زائد وكان قلبه وعيناه كنار تتقد، ومن قبل وفاته بيومين استدعى الباقين من رؤساء الأديرة ومقدمي الإخوة وقال لهم ها أنا ماض في طريق الناس كلهم الذين على الأرض مثل آبائي وأنتم عارفون بجميع سيرتي وكيف مشيت بينكم بكل اتضاع وكل صلاح وأنتم أيضاً عالمون أنني لم أطلب (نياحي) في شيء أكثر منكم بل كنا كمثل إنسان واحد في كل شيء في هذا الموضع المقدس، وهذا أنا أقوله والرب شاهد

على ضميري أنني لم أقله بكبرياء وفخر لأنني لست أكلمكم بما هو ظاهر لكم فقط بل وأكلمكم بما ليس هو ظاهراً لكم لكـــي بهذا تستريحوا وتطيب قلوبكم، وهو أنني لم أصنع لكم شيئاً من العثرة قدام الله وهوذا أنا الآن أسألكم لكي تحفظوا كل الكلام الذي وضعته لكم وأوصيتكم به وتكلموه لكي تنـــالوا الحيـــوة الدائمة والخيرات العتيدة، وإن خالف واحد منكم ذلـــك بقـــل مخافة واطراح ولا يرجع ويتوب سوف ينتقم الله منـــه في هـــذا الدهر العتيد عن الاطراح الذي صنع.

وهذا قلته لأني لا أعلم ما الحكومة، إذ المخلص ربنا يسوع المسيح يأمر في الإنجيل قائلاً اسهروا فإنكم لا تعرفون ذلك اليوم ولا تلك الساعة، وأنتم تعرفون قصدي وكيف سرت بيـــنكم: وهو أنني لم أنتهر قط واحد منكم بفظاظة كمثل من لي عليـــه سلطان بل كنت أجتهد من أجل خلاص نفوسكم فقـــط ولا نقلت واحد منكم من موضع ولا من صنعة إلى صنعة أخرى إلا وأنا عارف أنها خيرة له في ذوات الله، ولا كافأت شراً بشر، ولا لعنت أحداً قد لعنني بنوع ضجر وغضب بل كنت أؤدبه بدعة وطول روح أن لا يخطئ إلى الله قائلاً وإن كنت أخطأت إليّ فأنا إنسان بل احفظ نفسك ألا تخطئ على الله الذي خلقـــك، ولا

عاتبني واحد منك قط فحردت ولو كان الذي عاتبني صغيراً بل كنت أقبل عتابه من أجل الرب كمثل أن الرب قد بكتني مـــن قبله ولا مضيت قط إلى مجمع أو موضع وكأن لي سلطان عليــه ولا طلبت دابة أركبها من موضع إلى موضع بل كنت أمـــشي على رجلي بشكر وتواضع، وأما لأجل أكل أو شرب أو دهن جسدي مع بقية النياحات التي للجسد فلستم أنتم غير عــارفين بهذا كيف كنت فيها بغير اهتمام.

وكان الإخوة جلوساً حوله، وكان أيضاً تادرس جالساً من بعيد ووجهه منحنى على ركبتيه وهو باك جداً والإخوة باكون لأنهم كانوا يتذكرون عظم الاجتهاد والتعب الذي كان يصنعه معهم والاتضاع الكثير والوداعة لأنه كمـــل المكتـــوب: " أني صرت وديعاً في وسطكم كمثل الأم التي تـــربي بنيهـــا ولـــيس لأعطيكم إنجيل الله فقط بل حتى نفوسنا أيضاً لأنكم أحباؤنا في الرب ".

ومن بعد هذا الكلام قال أبونا باخوميوس للإخوة ها أنـــتم ترون أن الرب قد افتقدني برحمته وأنا منصرف من هذا العـــالم مثل آبائي وأجدادي وماض إلى الله الذي خلقني وهـــو الـــذي

جمعنا مع بعضنا لكي نصنع إرادته، فقولوا الآن يا أحبائي من تريدون أن يكون لكم أباً ويسوس مع معونة الله أحوالكم؟

فاشتملهم الحزن والبكاء وما استطاعوا أن يجاوبوه، عند ذلك استدعى واحداً من رهبان الدير المعروف بشينوفسكيون اسمه أورسيوس رجلاً قوياً في الإيمان خيراً وقال له قل للإخوة من الذي يريد أن يكون لهم أباً. فأجابوه وهم باكون بوجع قلب إن كان هكذا وسوف يكون نصيبنا فنحن لا نعرف سوى الله وأنت فالشخص الذي تقيمه لنا وترسمه نحن طيبون القلب به ونسمع منه في كل شيء يقوله لنا.

اختيار بطرونيوس خلفاً لباخوميوس

فأجابهم قائلاً إذ قد رددتم الأمر إلى الله وإليّ، فبطرونيوس يقتدر على الاهتمام بكم بمؤازرة الله إياه. فقالوا حسناً رأيت.

وكان بطرونيوس وقتئذ مريضاً، فأرسل الأب إليه يقول احذر ثم احذر أن تخالف إخوتك فيما يريدون منك.

انتقال باخوميوس وتجنيزه ودفنه

ثم قال باخوميوس لتادرس اجلب لي كساء أخف من الذي عليّ لأن جسمي لا يطيقه إذ قد ضعفت قوتي لأن هذه أربعين يوماً منذ افتقدني الرب بهذا المرض، إلا أنني أشكره في كل شيء

يجلبه عليَّ، فمضى تادرس وجلب له كساء أخف من الأول وأجود ونزع عنه الكساء الأول وغطاه به، فلما رأى الأب أن الكساء الثاني أعلى قيمة وأكثر راحة من الأول، قال لتادرس ارفع عني هذا الكساء وغطني بالكساء الأول إذ ليس بممدوح أن يكون بيني وبين بقية الإخوة ميزة وأكون سبب عثرة ويقول الذين يأتون بعدي أن باخوميوس كان يحب نفسه أكثر من إخوته بل يجب عليَّ أن أتساوى بهم إلى آخر نسمتي.

وكان قريباً من تسريح الروح، ثم استدعى تادرس إليه ومد يده وضبط بإصبعه شيئاً من لحيته وقال له إن رأيت يا تادرس عظامي مهملة غير محفوظة فاهتم بها أنت واحفظها فقال له تادرس يا سيدي الأب أنا أصنع كل ما تأمرني به، وتادرس كان يظن أنه يقول هذه الكلمة لئلا يأتي أقوام يسرقونه ويبنون عليه كنيسة كما كانوا يصنعون لعظام الشهداء، لأن دفوعاً كثيرة كان يلوم الذين يصنعون هذا وكان يقول أن قلب القديسين غير راض عليهم لأن القديسين لا يحبون أن يفعل بهم هذا الفعل وكل من يصنع هذا فإنما هو يتاجر بأجساد القديسين.

وأبونا باخوميوس مسك لحية تادرس دفعة ثانية وقال له يا تادرس لا تترك جسدي في موضع يدفن فيه ولا تهمل أمر

المتوانيين من الإخوة لكن أيقظهم بناموس الله وكرر عليه الوصية دفعة ثالثة وقال له يا تادرس احفظ الكلمة التي قلتها لك، فقال تادرس نعم أنا أصنع جميع ما قلت يا سيدي الأب ويكون ذلك بصلاتك إن شاء الله.

وعلى هذه الحال أسلم القديس باخوميوس روحه المقدسة إلى الله في الرابع عشر من بشنس سنة ٣٥٨م ثلاث مئة وثمانية وخمسين ميلادية وكان له من العمر سبعة وثمانون سنة وله منذ دخوله في الرهبنة أربعة وستون سنة، ويد تادرس على عينيه مثل يوسف لما غمض يعقوب في ذلك الزمان.

حينئذ اجتمع الإخوة كلهم وسهروا تلك الليلة من العشاء إلى الصباح في الكنيسة بالصلوات والقراءة، ولما كان بالغداة حنطوا جسده وحملوه إلى الجبل بحيث كانت مقابرهم مزفوفاً بالمباخر العطرة والألحان المتفقة بالتمجيدات والترنيمات والتهليل والتزمير مع بكاء كثير وعويل ليس بقليل ودفنوه هناك، وبعد عودة الإخوة إلى الدير عاد تادرس وصحبته ثلاثة إخوة أخر فنقلوه إلى موضع آخر بحيث لم يعلم به أحد وهو فيه إلى اليوم.

تكريس بطرونيوس رئيساً للباخوميين

ومن بعد عبور الثالث، اجتمع الإخـــوة وأحـــضروا الأب بطرونيوس إلى الكنيسة وهو مريض وسألوه أن ينوب عن الأب في خدمته، وإذ كان مقيداً بوصيته أذعن لهم، وأنهم كرسوه كما يجب بكل حشمة ووقار، وكان في نفس مرضه وشـــدة حالـــه شجاعاً متيقظاً.

نياحة بطرونيوس واختيار أورسيوس خلفاً له

ومكث أياماً قلائل يسوس أمور الإخوة أحـــسن سياســـة وكان دائماً في مرضه، ثم اشتد عليه المـــرض وتـــيقن وفاتـــه، فاستدعى الإخوة واستخبرهم لمن يريدون خلفاً بعـــده، فـــردوا الأمر في ذلك إلى اختياره، عند ذلك قال ليكن أورسيوس وهو الذي تقدم الحال بذكره، وفي الحال قضى نحبه وتنـــيح بـــسلام وانصرف إلى ربه، فجنـــزوه بالكرامـــة الـــوافرة والـــصلوات المتكاثرة إلى الجبل ودفنوه هناك كالرسم الجاري.

تكريس أورسيوس رئيساً للباخوميين

فأما الأب أورسيوس فلما سمع أن خدمة الرئاسة قد استندت إليه وعول بها عليه بكى وقال للإخوة: إن هذا الشغل يعلو على طاقتي لكن إذ كانت الطاعة حياة والعصيان موتاً، فأنا أذعـــن

للأمر مستنداً إلى معونة الله ورحمته بصلوات الأب الكبير باخوميوس وصلوات الأب بطرونيوس وصلواتكم الجميع.

وأنهم كرسوه على الرسم ..

وكان هذا الأب أورسيوس خيّراً جداً ومتواضعاً أكثر، وصار يطوف الأديرة يفتقد الإخوة نفساً وجسماً باهتمام كثير حرصاً لئلا يبطل شيء من تقليدات الأب باخوميوس، وكان على الدائم يعلم الإخوة علوماً متواصلة ذاكراً قول الأب باخوميوس له لما انتدبه رئيساً على دير شنوفسكيون (شنوفسكيون)، أنك وإن كنت ما أخذت من الله جلّ ذكره معرفة في العلوم بليغة لكن قل لهم مثلاً فقط وقولاً ساذجاً والله سيحقق قولك عندهم ويقبلونه كقول محكم ويجعله فيهم عملاً وفعلاً، وهكذا كان يضرب لهم الأمثال ويشرحها لهم، وكانوا هم يتعجبون من قوة تأثير أقواله الساذجة فيهم.

عظة للأب أورسيوس

وفي أحد الأيام قال للإخوة قد عرفنا كلنا أن أبانا الكبير كان يدعمنا بتعاليمه الروحانية ويؤيدنا بعظاته الخلاصية ويوضح لنا غوامض الأقوال الإلهية، فأما أنا الفاقد المعرفة فأقول حسب ما يقتضيه نقصي وضعفي إن لم ينظف الإنسان قلبه من فضلات

الأمور وينعكف على خلاصه من غير فتور وإلا فما تكن فيه نواميس الله ويصير سماعنا للأقوال الإلهية والتعاليم الروحانية سماعاً ساذجاً من غير عمل ولا ظهور ثمر، دينونة لنا ثقيلة وعقوبة وبيلة.

فإذاً لنفق أيها الإخوة من سكرنا ولننهض من نومنا ولنسرع في خلاص أنفسنا بكل تيقظ وإفاقة، ولا نهمل المقروءات علينا وننساها ونتبرم بها. وكما أن الخبز قوام الجسد وحياته، كذلك أيضاً أقوال الله قوام النفس وحياتها. وكما أن السراج المضيء مادام يغذي بزيت فلن ينطفئ وإذا كان يوقد ويضيء فما تقربه فأرة لتأكل فتيلته، ومتى عدم الزيت انطفئ وشيكاً وتدخل عليه الفأرة بجسارة إذ تجده مظلماً ومن حرارة النار خالياً بارداً وتأكل فتيلته وربما ألقته إلى الأرض من على منارته، فإن كان خزفياً انكسر وهلك بجملته وإن كان نحاساً فصاحبه يعاود يصلح عوجته، هكذا يلحق النفس المتوانية التي لا تقتدي بالأقوال الإلهية تنفصل عنها نعمة الروح القدس التي هي أنارتها وتنطفي حرارتها، حينئذ يأكل العدو نشاطها ويلقيها إلى الأرض التي هي أهواء الجسد وتنسحق بالرذائل وتبيد.

لا يسهى علينا أيها الأحباء أننا سائرون في بحر معقول وكل واحد منا له مركب يختص به الذي هو جسده فإن هو أثقله هوى وإن هو خففه طفا على وجه الماء وسار. لا نضيع أيها الأحباء الوقت الذي أعطيناه للعلم والعمل، نحن نوع من الجنس الحي وقد أكرمنا الباري تعالى بالنطق والعقل وخصنا به دون غيرنا من المخلوقات، وليس هذا فقط بل مجدنا أكثر وأكثر بأخذه جسدنا وصيرورته كواحد منا وذلك من فرط محبته لنا، وهدانا من غينا إلى سبيل رشدنا، وأعطانا سلطة أن نصير أولاداً له إن شئنا إذ كان مردوداً إلى اختيارنا، فلا نهمل هذه المنحة السنية والنعمة الغنية والرتبة العليا ونختار عليها الرتبة الدنية والمترلة البهيمية لئلا يوافينا الفصل المقول من الروح القدس على فم داود إذ قال الإنسان هو في كرامة فإذ لا يفهمها يضاهي البهائم التي لا عقل لها ويماثلها.

واعرفوا أن الأعمى إذا سقط في حفرة كان معذوراً عند نفسه وعند غيره، فأما البصير فإذا هو سقط في بئر فأي عذر له عند نفسه أو عند غيره؟ إلا أن حسرة الواقع في مكروه عن علم لعظيمة، ونكاية عقابه جسيمة وسبب ذلك علمه. واعلموا أن الجالسين على قوارع الطرق لا يتكلمون ليسمعهم الصم لكن

ليسمعهم ذوو الأذان والأسماع الراجحة المكينة، وكذلك الفلاسفة ينطقون بالحكمة ويبشرون بالمعاني ليس إلى النفوس البهيمية السالكة في رتبة الموت بل إلى النفوس العاقلة الناطقة السالكة في رتبة الحياة. ونحن فقد أوضحنا الحالين بقياسات لا ينكرها الرجل العاقل اللبيب على قد قوتنا، ونقص معرفتنا، وأنتم بلطافة أذهانكم وثاقب ذكاءكم تختارون الحال التي تزين وتبتعدون عن الأمور التي تشين.

ومن بعد أن شيدهم بهذه العظات والأمثال حان أوان الصلاة الجامعة فنهضوا كلهم إليها.

تاريخ الأب أورسيوس

وهذا الأب أورسيوس مكث مع الكبير باخوميوس في حال حياته مصاحباً له مدة من الزمان وكان يستمد منه فنون المناسك، وقويم المسالك، ويغاير فضائله وينافس مناقبه.

ولما رتبه رئيساً على الدير المسمى شنوفسكيا، تذمر لأجله قوم من إخوة الدير المتقدمين فيه قائلين أنه نصبة طرية. ولما سمع الأب ذلك أرسل إليهم يقول لا تظنوا أن ملكوت السماء هي للقدماء الأولين في الدير فقط، بل وللآخرين التابعين المؤثرين، والأخ العتيق القديم في الدير متى ما تذمر على أخيه ولحقه فكر

التكبر والتيه فقد أضاع قدمته وأتلف خدمته، إذ لم يكن قد أتقن بعد علم الصناعة الرهبانية الذي هو تمسكن اللب وخمول النية والاتضاع والمحبة.

لا يطلب الله منا قدمتنا وطول مقامنا في الدير وكثرة سنيننا، بل يريد من العمل بوصاياه الني المحبة أولها ثم الطاعة والاتضاع والوداعة وباقي الفضائل التي يجمعها خوف الله.

ما فائدتي من قدمتي وأنا لا أحس بنجاح لا بل وتصير لي عاراً ووبالاً عليَّ، وأنا أقول لكم صريحاً وقولاً محقاً يقيناً أن أورسيوس النصبة الطرية والغرسة المبتدئة قد رقى فلاحه ونما نجاحه وحصل في بيت الله مصباحاً ذهبياً وضياءاً زاهراً وكوكباً بهياً نيراً باهراً وقد وافقه الفصل المكتوب في رسالة السعيد بولس الثانية إلى أهل قرنتية إذ قال أنني خطبتكم لرجل واحد لأوفقكم للرب كعذراء طاهرة.

عن البابا أثناسيوس الرسولي

وعرض فيما بعد من الأمور المباركة أن الأب الفائق قدسة أثناسيوس المتوشح بالمسيح رئيس أساقفة الإسكندرية عاد من القسطنطينية وتسلم كرسيه وصار الأكثرون يقصدونه للسلام عليه والمفاوضة معه وأخذ صلاته وبركته.

ووافق ذلك أن إخوة من رهبان الدير بافو توجهوا وقتئذ إلى الإسكندرية في مركبهم الخصيص بهم لأسباب تختص بمصالح الدير، وفي حال مسيرهم وقد حصلوا عند الجبل الذي كان فيه الأب الكبير أنطونيوس مقيماً، تذاكروه وآثروا أن يبصروه ويأخذوا بركته، فخرجوا من المركب وصعدوا في الجبل، وعندما قربوا من مغارته اقتسر ذاته لأنه كان شيخاً هرماً ونهض لالتقائهم، ولما سلموا عليه سألهم عن أخبار الأب باخوميوس فبكوا بحزن كثير حينئذ علم أنه قد انتقل إلى الرب فقال لهم لا تبكوا لأنكم كلكم بنعمة الله وصلواته قد صرتم بخوميوسيون كثيرين وبالحقيقة أقول لكم أنه قد خدم الرب خدمة كبيرة في جمعه هذه الجماعات الوافرة والخلائق المتكاثرة وجعلهم على رأي واحد عابدين الإله وسلك منهج الرسل واقتدى بهم وصار مصباحاً نيراً يضيء لذوي الظلام. فأجاب الأب زكاوس رئيس دوناسة، لأنه كان وقتئذ في جملة الإخوة، المتوجهين إلى الإسكندرية قائلاً: أنت أيها الأب هو المصباح لهذا الجيل ولكل العالم إذ قد شاع خبرك وصار في قصور الملوك وقد تمجد الله بحسن سيرتك. فقال له الأب أنطونيوس اعلم أيها الأخ زكاوس إن في ابتداء كوني راهباً ما كان قد ارتسم دير ولا تهندمت حال

بجمع نفوس كثيرين إلى مكان واحـــد، لكـــن بعـــد ســـكون الاضطهاد كان من يؤثر الزهد في العالم ممن قد عرف غـــروره وخداعه كان ينسك بمعزل وعلى انفراد، إلى أن ظهـــر الأنبـــا باخوميوس وعمل هذا الصنيع الحسن بإلهام الله وكان قد ظهـــر قبله إنسان اسمه أوطاس شرع في هذه الخدمة ورام أن يعمل مـــا عمل أنبا باخوميوس، ولأجل أنه لم يكن قصده بكلية قلبه مـــا نالها ولا حظى بها فأما الأب باخوميوس فلقد فاق بطول روحه وغزير حلمه على كثيرين من الناس، وكان يتصل بي ما هو عليه من حسن الأخلاق ونسيم الأعراق وقويم ديانته وحسن عبادته وتصرفه على رأي الكتب الإلهية، وكانت نفسي تفرح لـــذلك وتسر، ولقد تقت بالحقيقة أن أراه في حياة الجسد وربما لم أكن لذلك أهلاً، لكن على كل حال سننظر بعضنا بعضاً بنعمة الله في ملكوت السماء إذ نجتمع مع كافة القديسين، فأما أنـــتم أيهـــا الإخوة فتأيدوا بالله تعالى وأقووا واثبتوا وانجحوا كاملين.

ثم قال لهم ولمن خلف بعده رئيساً، فأجابوه بطرونيوس وقد قضى هو الآخر نحبه وانصرف إلى الرب وخلف لنا بعده الأنبـــا أورسيوس. فقال لهم لا تدعوه أورسيوس بل الأب الإســـرائيلي حقاً الذي لا غش فيه.

ولما عرف أن قصدهم المضي إلى الإسكندرية للسلام على الأنبا أثناسيوس ولأسباب أخر كتب لهم كتاباً إلى المذكور رئيس الأساقفة يهنئه بقدومه معافى إلى كرسيه ويقول له عن الإخوة حاملين كتابه تأمل أولاد الإسرائيلي حقاً.

ثم صلى عليهم وباركهم وسرح سبيلهم.

ولما وصلوا إلى الإسكندرية قبلهم الأب أثناسيوس الأسقف أحسن قبول وزاد في كرامتهم لا سيما لأجل كتاب المغبوط أنطونيوس لأنه كان عارفاً بفضيلته وسمو سيرته.

ولما قضوا أشغالهم عادوا إلى ديرهم، وكان الأب أورسيوس يعلم أن تادرس عمال للفضيلة فرتبه على خبازين دير بافو.

تادرس خبازاً في دير بحنون

وفي عروض ذلك جاء إلى الدير الأب مقاريوس رئيس دير بحنون ومعه الأنبا صوروا وشكا إلى الأب أورسيوس حال الإخوة خبازين ديره وأنهم غير مهذبين في سيرتهم وشغلهم وسأله أن يعطيه الأنبا تادرس يكون في الشغل معهم مدة يسيرة لكي يطقسهم ويعلمهم كيف يجب أن يستسيروا، لأنه كان لتادرس عند كلهم محل كبير. فأعطاه إياه وكان الأوان بعد

الفصح المقدس في السنة الثانية بعد انتقال الأب باخوميوس إلى الرب.

ولما ساروا وهم بعد في المركب أبصر أحد الإخوة الذين كانوا نواتية للمركب تادرس وأنه وديع ساكن ولم يكن يعرفه لأنه كان مبتدئاً في الدير وكان سالكاً سيرة حميدة وقد عرف أنه جاء يكون خبازاً عنده وظنه أنه غرسة جديدة ومبتدئ في الرهبانية، فانفرد به وقال له كم سنة لك مع الإخوة في الدير، فأجابه قائلاً مدة يسيرة. فقال له ومن قبل مجيئك إلى الرهبانية هل أنت تعرف شيئاً من صناعة الخبز؟ فأجابه كنت أعرف قليلاً، فقال له أنت قد جئت خبازاً وأنت مبتدئ وأنا أشير عليك بما ينفعك وينفع نفسك، ربما يتفق أن تبصر أحد الإخوة يضحك في المخبز ضحكاً زائداً خارج النظام أو يخاصم أو يغضب بحسبما يكون في الكنونيات، فلا تماثل من هذه الحال حاله ولا تنحل معه بل اصغ إلى ذاتك وماثل ذوي اليقظة والانتباه، فأجابه تادرس حسناً قلت ونعماً وشكره على ذلك.

ولما قرب المركب من الدير، وكان الإخوة قد اتصل بهم مجيء الأنبا تادرس مع رئيسهم إلى عندهم وهم لذلك فرحون، فخرجوا لالتقائه بهشاشة وبشاشة ذاكرين تعليماته إياهم وعظاته

لهم لما كان يدور على الأديرة نائباً عن الكبير الأنبا باخوميوس، ولما أبصروه سجدوا لديه وسلموا عليه وأوفوه الكرامة الواجبة له بكل حشمة ووقار.

فلما شاهد ذلك الأخ النوتي الذي ظنه غرسة جديدة، كرامة الكل له وتوقيرهم إياه عرف من هذا محل تادرس وعلم أنه كان خليفة الأب باخوميوس عليهم ونائباً عنه في الاهتمام بأنفسهم وأجسادهم، عند ذلك استحيا إذ تجاسر أن يخاطب ويعظ من هذا المحل محله.

عمل الأب أورسيوس في الرئاسة

فأما الأب أورسيوس فكان على الدائم يغذي الإخوة ويرويهم من درر النعمة التي منحه الله إياها وكانت كلماته تعزيهم وتسليهم كثيراً لأنه كان يخاطبهم بأمثال ثم يعود ويلخصها ويوضح لهم معانيها، وذكرهم بحفظ قوانين الأب باخوميوس التي قلدهم إياها لقوام الكنونيون وقوانين ووصايا الآباء الخواص الذين هم في الرتبة العالية والاعتبار بالأديرة.

ووقت لهم وقتين من السنة فيهم يحصلون جميع احتياجاتهم وأشغالهم الجسدية التي هي ضرورية، ودفع أعمالهم إلى الأقنوم

الكبير بثبات وحساب، وهما بعد الفصح المقدس وفي فصل الخريف.

وكان الرب يسوسهم ويدبر أمورهم بموافقة ومحبة لعلمه بحميد قصدهم على ما كانوا فيما مضى من الزمان على أيام الأنبا باخوميوس، وذلك أن الآباء القدماء ومشائخ الديارة كان البعض باقين في هذه الحياة وهم كانوا يشجعون الإخوة على حفظ الوصايا والعمل بها، الذين من جملتهم الأخ بسنتاؤسيوس (بسنتاسيوس) وأنبا صموئيل وأنبا باخوم غير الأب الكبير وأنبا بولس وأنبا يوحنا وأنبا اياراقوبان ذاك الذي تقدم ذكره أنه عزى أبانا باخوميوس بالرب وسلاه في المصائب التي صادفته، وأنبا تيتوسيوس الكبير وأنبا تيتوسيوس الصغير وأنبا يونان وأنبا تادرس المديني والكبير تادرس الذي ألهبه الله بروحه بتوسط الأنبا باخوميوس الصائر إناء مختار، وغير هؤلاء من الأفاضل الأفاخر المصابيح الزاهرة الذين ما كانوا يمكنون أن يدنو من الإخوة ظلاماً، لأنه بحفظ الوصايا يصير لنا الأمن والسلام على ما قاله الروح في المزمور الثامن عشر (ناموس الرب بلا معاب يرد الأنفس وصية الرب لامعة تنير العيون).

ولما انتقل بالرب الأنبا بفنوتيوس أخو تادرس أقنوم الـــدير الكبير بافو من هذه الحياة رتب الأب أورسيوس غيره من الأقنمة الأب السعيد وهو بصرفتين رجلاً شهماً وصبوراً على الأتعـــاب ومحتملاً للأوصاب من قدماء الدير.

إفراز تادرس

وكان الإخوة على الدائم يرغبون إلى تادرس أن يفسر لهـــم رموزاً خفية من الكتب المقدسة وأن يعلن لهم منظراً قد عرفه من مناظر الأب باخوميوس، فكان يجاوبهم ها الأب أورسيوس إياه فلنسأل كلنا أن يلخص لنا قوى الأقوال الإلهية بما أنه اليوم أبونا بأجمعنا. ومتى حضر الأب فالابن لا شيء.

وكانت لهم عادة سلفت أن يجلسوا كلهم قاطبة بعد العشاء ويتفاوضوا أقوال الكتب ويتقصى الواحد من الآخر عما يـــشتبه عليهم لأنهم كانوا مكتفين من سائر الحاجات بالقنع الذي هـــو عنصر الخيرات قائلين قد أعطينا الجسد غذاءه فلـــنعط للـــنفس غذاءها، إذ لم يكن لهم هم إلا بما عاد بخلاص أنفسهم.

والقوم المرتبون على الاهتمام بهم فكانوا يبذلون أنفسهم في خدمتهم ونياحهم كخدام الله لا الناس على رأي الرب الصادق

كما قال: " مهما فعلتموه بواحد من هــؤلاء الأصــاغر فــي فعلتموه ".

ومتى كان الأب أورسيوس يخاطب الإخوة بأقوال الله كان تادرس جالساً بينهم يسمع العظة كصبي لا يعرف شيئاً كأنــه غرسة جديدة، وكان يمسكن لبه حزيناً في قلبه إذ يتفكر تبكيت الأب باخوميوس له لما قننه سنتين، وقد كان قام بالقانون أحسن قيام، ولقد شهد الكبير عنه عند الإخوة على ما تقدم القــول في غيابه قائلاً أن تادرس يرد اللوم على نفسه وقيامه لله بما قننه بــه قد منحه الله من الثواب سبعة أضعاف على ما كان قد أهله وقد رقى شأنه وعلى مكانته.

عظة عن حب الرئاسة للأب أورسيوس

وفي بعض الأيام كان الأنبا أورسيوس يغذي الإخوة علــى جاري عادته الغذاء الروحاني ويسقيهم من ينابيع الروح وأنه قال لهم في أثناء ذلك: أيها الأحباء آبائي وإخوتي .. لقد بلغني عــن أناس منكم ما قد أنكى مهجتي وذلك أن فيكم أقواماً يــؤثرون الرئاسات، وآخرون يريدون خدماً وأقنمة، وقــصدهم بــذلك السبح والمباهاة.

والخدمة ممدوحة هي وحسنة إذا سئل خادمها، ورغب إليه بسببها وأطاع هو لمنتدبه فيها لا أن يلتمسها هو ويبتغيها. أما تعلمون أن من شاء أن يكون ههنا نبيهاً وكبيراً فإنه يكون في ملك السماء حقيراً وصغيراً، وأنا لما رتبني الأنبا بطرونيوس في هذه الخدمة التي تفوق على قوتي وتعلو طاقتي، قد عرف علام الغيوب أنني صرت. فيها بغير اختياري وبخلاف إيثاري لعلمي بنقصي وضعفي ومهانتي وصرت أبكي نهاراً وليلاً خوفاً من عطب النفوس التي رئيس الدير عتيد أن يعطي عنها الجواب في يوم الدينونة، إذ كانت سياسة الأنفس لا تليق بكل واحد بل بالقوم الكاملين الأفاضل والآباء القديسين الأماثل وهؤلاء فقد أبوا منها، الذين أولهم موسى الكبير، لأن لما أرسله الله لخلاص الشعب من عبودية فرعون المصري امتنع من هذه الخدمة وتوقف لدعته وتمسكن لبه، وما أجاب إلى ذلك حتى أبصر. الله قد غضب عليه.

أفتطلب نحن الخدم ونرغب فيها غير ناظرين إلى المعاطب والحفائر المطمورة فيها، أما يعرف كل أحد منا ضعفه ويضبط ذاته ولا يتعدى طوره .. أما تعلمون أن اللبنة النية إن هي وضعت في أس قريب من نهر ما تثبت يوماً كاملاً لكنها تنحل

وشيكاً وتعود إلى طبعها، وإن هـي أدخلـت أولاً إلى النـار وأطبخت فيها استحال طبعها من تراب إلى تحجر وتثبت بـإزاء رطوبة الماء غير منحلة، هكذا هو الإنسان الذي ما قد أمـات معقول بشرته ولا قد أحمى مثل يوسف بكلمة الله إذا وصل إلى الرئاسة ينحل إذ تصادفه امتحانات كثيرة وتجارب ليست بيسيرة فالأجدر بالإنسان أن يعرف قدره ويلاحظ أمره، ويلقي عنه ثقل الرئاسة لئلا يعطب مفتكراً بالفصل المقول في الإنجيل المقدس إذ قال: " كل من يرفع نفسه سيوضع ".

فأما الراسخون في الإيمان الثابتون في حفظ وصايا الله فهـم ثابتون غير متزعزعين كيوسف المذكور الفائقة قداسته، الكاملة طهارته، الذي إن قال عنه قائل أنه لم يكن أرضياً فلن يخرم قوله الذي جرب بتجارب تفوق قوة الإنسان في بلدة لم يوجد بهـا شارة لامعة من عبادة الله، لكن إله آبائـه إبـراهيم وإسـحق ويعقوب نجاه وأنقذه من جميع أحزانه وهو الآن معهم متنعم.

ونحن متى ما عرفنا مترلتنا ولا نتعدى طورنا وانعكفنا علـى خلاص أنفسنا فبالجهد نفلت مع معونة الله إيانا مـن حكمـه ودينونته.

وأشياء أخر مما يضاهي هذه الأقوال ويشاكلها قالها لهم وختمها بالصلاة ثم افترقوا إلى قلاليهم.

بدء انحلال الرهبنة الباخومية

ونما فيما بعد إخوة الكنونيات وزادوا جداً، وعند تكاثرهم أخذوا في الاتساع وقنيان الحقول التي يستمدون منها الطعام، لا سيما رئيس الدير المسمى منخوسين الذي كان اسمه أيلونيوس، فإنه اتسع في القنايا أكثر من بقية الأديرة، وخالف سننها وسمومها.

فأنكر عليه الأنبا أورسيوس ذلك، ونهاه فلم يسمع، عند ذلك عقده وقننه، فثقل ذلك عليه وتكرهه ورام أن يفصل ديره من الكنونيات، وباغتيال العدو ومساعدته إياه شجع غيره من رؤساء الأديرة أن يفعلوا فعله.

وتشوشت قوانين الديارة، وانفسد نظامها، وتأذت أنفسهم من هذه الجهة كثيراً وكاشفوا بالعصيان قائلين ما نرضخ ولا نطيع شيئاً من أوامر وأحكام الدير الكبير بافو.

فأما ابلونيوس المنشق الأول الذي ألقى هذه الفتنة في بقية الديارة فقويت فيه هذه التجربة وزاد في شره وتكاثر غيه، فحزن لذلك الأب أورسيوس واكتأب جداً وصار يطلب من الله

بصيامات متصلة وأسهار وصلوات وجهادات شديدة أن يفتقد الجمهور ويطيب هذه الأمور كما يشاء.

وعبر على ذلك مدة ما ...

اختيار تادرس مساعداً لأورسيوس

ثم أن الأب أورسيوس روى بفكر من الله أن يصلح معه مساعداً في هذا النظام الأبوي، وأنه انفرد ليلاً وولج إلى موضع ساكن وانتصب في الصلاة والبكاء لدى الله طالباً وقائلاً: أيها الإله خالق كل البرايا وعالم السرائر والخفايا أنت تعرف لما رتبني الأب بطرونيوس في هذه الخدمة لم يكن ذلك باختياري وإنما أذعنت لذلك بضد إيثاري وقصدي ثواب الطاعة، وآملت أن أنفع وأخلص نفوساً بمؤازرة روحك، والآن فأرى الأكثرين من الإخوة قد قاموا على لا يسمعون مني ما فيه خلاص أنفسهم بل قد ركب كل أحد منهم هواه عاملاً مشيئته وما يؤثره، والأمناء السامعون هم قليلون، أعني رهبان هذا الدير بافو الذين تصرفوا مع الأب الكبير.

وأنا فحزين جداً لأجل انشقاق إخوتنا منا الذي سببه ليس أنا لأنني لم أفتن أحداً بل علته الشيطان باغضنا وعدو جنسنا، والآن أنا وحدي ما يمكنني أدبرهم ولا أسوس عصياهم لأني

ضعيف جداً وأقصر عن مثل هذه السياسة، فاظهر لي من تعلم أن فيه كفاية للأمر لكي أسميه عوضي ولا أكون أنا علة هلاك هذه الأنفس الكثيرة.

ولم يزل هذا دأبه إلى أواخر الليل، ثم ختم صلاته ورقد، فأبصر في منامه سريرين قويين محكمين في الصناعة أحدهما جديد بجدته قريب العمل والآخر قديم العمل وصوتاً يقول له هذا السرير الجديد استرح أنت عليه والسرير القديم الصنعة فهو برسم تادرس التلميذ الخصيص كان للأب باخوميوس. فلما انتبه عرف بروحه أن الله قد انتدب أنبا تادرس ليكون خليفته فسر بذلك جداً لأنه كان يحب تادرس لأجل كثرة اتضاعه، وكان يعلم فيه كفوءاً ومعرفة للم شعث الأمر الحادث مع معونة الله إياه.

ولما أضاء النهار جمع أوائل الدير ومقدميه مع رؤساء بعض الديارة الذين لم يكاشفوا بالانشقاق وخاطبهم في غيبة تادرس قائلاً: قد خفي عنكم الامتحان الشامل إخوتنا بالرب وما قد تظاهروا به من العصيان علينا وأليق ما يقال من النفاق على الله وتقليدات أبينا الكبير باخوميوس وقد أطلت أناتي هذه المدة صابراً ومترجياً أن يسكن، وعلى ما أرى أنا وأنتم أن الأمر كل

ما جاز زاد شراً، وأنا اعترف لديكم بنقصي وضعفي وقصر همتي عن تلافي هذا الخال وحدي، وقلت وحدي لعلمي أنكم ما تجيبوني على الاعتفاء.

والذي أراه وأتحققه أنه كفؤاً في جميع هذه الأشياء وهو قادر على لم شعث هذه الململة والمحنة التي قد دخلت على الإخوة، هو تادرس الذي كان وقتاً ما أباً لنا كلنا لما رتبه أبونا الكبير عنه نائباً، كذلك وأشاء أنا لما أعلم من نقصي أن يكون عني نائباً لأن الاهتمام كبير ويعلو على قوتي، فتمسكوا به ورتبوه في الشغل شاء أم أبى، وألا دخل العارض وعائذ بالله علينا كلنا وتشتتنا، وبعد الآن واعترافي بنقصي لديكم فلا الله يلومني ولا أنتم، وعندما انتهى من هذا القول مضى إلى دير الشنوفسكيا ليلاً وأقام هناك.

تكريس تادرس عنوة وقسراً

فأما هم فلما سمعوا منه أن يختار تادرس دون غيره، فرحوا كثيراً لأنهم هم أيضاً كانوا يؤثرون ويريدونه لعلمهم بنهضته ومكين عزيمته وسامي معرفته وكبر همته.

وأنهم طلبوا فأحضروه وكرسوه بلا اختيار عنوة وقسراً، وكان ذلك في ابتداء السنة الخامسة من وفاة الأب باخوميوس،

فأما هو فلم يجب بل قنن نفسه أنه لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماءً دون أن يبصر وجه الأنبا أورسيوس ويتحدث معه، ثم أنه مضى إلى عنده وتطارح عليه وسأله أن يقيله من هذه الخدمة، فأجابه قائلاً ألعل نحن رتبناك؟ أبونا الكبير باخوميوس هو الذي رتبك وتقدم إليك بذلك وأنذرك ثلاث دفعات عندما مسك لحيتك وقال لك لا تهمل عظامي بل اهتم بها وواريها، فعن مَنْ عنى بعظامه يا تادرس إلا عن الإخوة الذين ها هم قد تبلبلوا حسب ما ترى.

فلما سمع تادرس هذا القول من الأنبا أورسيوس وعرف أنه لما قال له الأنبا باخوميوس هذا القول ومسك لحيته لم يكن عنده أحد غيرهما وهو فما كان قد أعلم أحداً من الإخوة بذلك فسكت ولم يعاند شيئاً آخر، وهكذا أقنعه قنعاً شافياً روحانياً وتسلمه إخوة قد جاءوا معه وعادوا إلى الدير الكبير بفرح كثير، وثبت الأنبا أورسيوس بحيث كان.

تجرد الأنبا تادرس للخدمة

فأما تادرس فإنه تجرد للخدمة وضبطها على تقليدات الكبير ولم يزغ عن شيء من شروطها ولما سمع الإخوة المقيمون في سائر الأديرة الذين برسم هذا الكنونيون سروا جداً إذ صار

تادرس أباً عليهم لا سيما العارفون بفضيلته وأنه الابن الخصيص كان للأب باخوميوس، ولأن كلامه عليه نعمة وحلاوة وفيه شفاء للأنفس الحزينة.

وأطاع هذا تادرس للأب أورسيوس كطاعته للكبير باخوميوس وصار لا يمضي أمراً من الأمور دون مشورته وأخذ رأيه فيه، حتى أن أورسيوس قال بالحقيقة هذا هو السرير الجديد الذي قيل لي عنه استرح عليه، وذلك أن تادرس ما كان يعتقد في نفسه أنه أول أب ومقدم ورئيس بل كان كأحد الإخوة بينهم كلهم متصوراً أنه تلميذ وتبع لمن الرئاسة له.

وكان يدأب ويسعى ليلاً ونهاراً من أجل خلاص إخوته بالرب ذاكراً وصية الأنبا إياه التي عرفه معناها الأنبا أورسيوس. وكان قد استأصل من نفسه حب الرئاسة استئصالاً كلياً لما تأدب من الله بالأنبا الكبير، وبلغ إلى حد الكمال ولم ينيح بكثرة خيريته ودعته للأنبا أورسيوس فقط بل وللكل قاطبة. وصار الأنبا أورسيوس يعترف ويقول أنا اليوم رئيس بأكثر مما كنت.

ومتى ما كان تادرس يكلم الإخوة بكلمات نافعة وعظة كان يبكي بعويل وانتحاب ودموع كثيرة ويقول بتنهد شديد أين آباؤنا والأوائل منا، وأين أسلافنا ومقدمونا، أين أبونا

ومعلمنا الكبير باخوميوس الذي أنشأ هذه الديارة ورتبها وسن كل هذه التقاليد ونظمها .. صار الآن غير موجود ونحـــن إلى قليل سنفقد من الوجود كقول الرب لذكره السجود لأبينا آدم: أرض أنت وإلى الأرض تعود، وإذا كان ذلك فلا نهمل ذكـــر الموت وننساه لأن ذكره هو أول عمل الصالحات، ومقدمة كل الخيرات، فلنتصوره إذاً على دائم الأوقات وبعـــدد اللحظـــات، ولنتأيد أيها الإخوة بالرب ولنحتمل ثقل إخوتنا وغلطاهم إمـــا بقول وإما بفعل متحققين أن لنا بذلك ثواباً مـــضعفاً، أولاً إن احتملنا القرف والسب والتقول والظلم وسائر المؤلمات المحزنات الصادرة من الأخ بجلادة وشهامة من غير تذمر ولا مرادة بـــل نشكر الله على ذلك نفوز بالرحمة، والثاني هو أن فاعل ذلك بك إذا عاين ثباتك وصبرك وحماسة نفـــسك وحلمـــك ووفـــور حكمتك وعقلك واحتمالك الفارطة الصادرة منه إليك عنـــدما يلدغ من فطنته بعد إفاقته من سكره يعجب منك ويمجـــد الله ويقتدي بك ويأتي إلى صلاح ونجاح وتصير أنت سبب ذلـــك وعلته.

لا ننس أيها الإخوة احتمال أبينا الكبير لسائر المضار وصبره الجليد على شرب الأحزان، والمرارة مـــن الأبالـــسة والنـــاس

الأشرار، وإلى الآن فما له خمس سنين فلا ننس حسن سيرته وحميد طريقته وكثرة وداعته وذلك إلا من السكون والسلامة الصائرة فيما بيننا على أيامه ولئن كان غائباً عن الجسد لكنه بالروح حاضراً معنا فلنتذكر على الدائم كيف كانت أحوالنا وقتئذ جارية على أوفر الرشاد وغاية السداد وإذ لم يكن في قلوبنا شيء آخر إلا ذكر الله وحمده ونفهم أقواله وما كنا نحس أننا نسعى على الغبراء إلا أننا في عيد السماء، ولا يفوتنا علم هذا وهو أن الإنسان الذي قد ابتلى بالبرد الشديد مادام سائراً أو مشتغلاً بحمى جسده ويكون غير محتفل بالبرد فإن قل سعيه ووقف جريه وبطل عمله وكده، بردت أعضاؤه وألمه البرد وأنكاه، وعلى هذا المثال نحن ما دمنا في عمل وصايا الله لا تنتزع حرارة الروح منا بل على الدائم تحمينا وتدعمنا وإن نحن قصرنا عن العمل وبطلنا انصرفت عنا حماوة الروح القدس وولجت إلينا برودة الروح النجس، والآن فقد عرفنا أحوالنا وقد أشرف البرد أن يحل بنا فلنرجع إلى مشيئة الله ولنثق برأفاته أن يحمينا عوداً بناره الروحانية ويختم القول بالصلاة وينصرف كل أحد إلى مكانه الخصيص به.

افتقاد الأب تادرس للأديرة

ثم أن الطوباني تادرس أخذ معه قوماً من الإخوة وركب المركب متوجهاً إلى الأديرة لافتقاد الإخوة، وبحضوره عندهم أيدهم بمؤازرة الروح القدس وأدعمهم، وكانوا يقبلون أقواله المتبلة بالنعمة كأقوال الأب الكبير، والكل أذعنوا لأوامره.

جهود الأنبا تادرس للم الشركة مرة أخرى

وأخيراً مضى إلى دير منخوسين واجتمع مع أبلونيوس الرئيس الذي كان قد انشق أولاً وصار بينهما خطاب كثير، ونزاع ليس بيسير، وبالجهد الجهيد والتعب الشديد أقنعه بمعونة الله إياه ورده إلى الشركة الأخوية، وإلى ضبط التقليدات الأبوية، وصارت السلامة بسياسته عامة للكل وخزي العدو وولى هارباً.

تادرس طبيب روحي وجسدي

وكان الطوباوي تادرس متيقظاً جداً ومعتنياً بخلاص النفوس ومعزياً لكل أحد ومحرضاً إياه إلى الجهاد الخلاصي كأب وامق وطبيب حاذق.

ولم يكن أحد من الإخوة يستنكف من الاعتراف له بأفكاره وأن يكشف له كل شهواته وأوطاره وكان فاعل ذلك ينال منه في الحال الشفاء وهو فكان يقبل الاعتراف بهشاشة وبشاشة لأن

من شأن رفق المعلم ولطافته أن يحرك التلميذ على إيضاح جميع ما في سريرته وبكثرة حنكة هذا الطوباوي وتجربته كان يعرف ما يقاتل به كل أحد من العدو وكان يعلمهم كيف يقاتلونه وبماذا يحاربونه ويقهرونه، ويقول لهم أنكم متى ما جاهدتم الجهادات الناموسية يتوجكم الباري جل اسمه بأكلة بهية على رأي السعيد بولس الرسول.

ومتى ما كان يرى إنساناً مهملاً خلاصة محلوله حواسه، كان يهمل كل أشغاله ويطيل روحه عليه ويعظه ويعرفه غزير رحمة الله وكثرة جوده وتحننه وفيض كرمه على أهل الرجعة والتوبة ويثبت له مع ذلك أحكامه المريعة ويقول له خوف شديد وهول هو الوقوع في يدي الله الحي وأنه جلّ اسمه سيعاقب الخطاة الذين لا يأتون إلى توبة وأنه محسن صالح ويشاء خلاص الكل وأن يصلوا إلى الراحة الدهرية.

وكان يقول متى ما كان إنسان مخنوقاً ومقاتلاً من الشيطان إلى حد زائد ولا أطيل أناة روحي عليه وأتلاقاه بكل ما أجد إليه السبيل بل أهمله وأغفل عنه فأنا أوجد علة هلاكه وأطالب به لا سيما إذا كان ممن يختص بي، فلهذه الحال ما كان يطرح أحداً بل كان بطول روح كثير يستجذب الخاطئ مع معونة الله إياه

ويختطفه من يد الشيطان ويصلي قائلاً يارب استر وأعن ضعفنا ولا تتكلنا على أنفسنا وإلا هلكنا.

وكان يقول جهاد عظيم هو أن يقوم الإنسان لله بالاحتجاج عن نفسه فقط فكيف تجري حال من يطالب بالاحتجاج عن نفسه وأنفس كثيرين، اللهم ارحمني أنا الخاطئ وأعني لأني ما وصلت إلى هذا الحد الجسيم أن أهتم بأنفس أناس وتثقيف أفكارهم، أنت أيها الإله الرحيم الذي جبلت قلوب البشر على انفراد أحرسني ولكافة خلقك من شر أعدائنا الشياطين، لأن لا يقدر أحد على خلاصنا منهم إلا أنت يارب إله المجد.

وكان قد شاع خبر قداسة تادرس في تلك الديار وصار الناس يحملون إليه مرضى ومصابين من الأرواح النجسة ويقصدونه أينما كان ويسألونه أن يصلي عليهم فكان يقول لهم لا تظنوا أننا فينا كفاية في معنى هؤلاء الذين قد أتيتم بهم لأننا خطاة، وما هذا لنا بعمل لكن الإله الصالح أب الرأفات وعنصر الخيرات وينبوع المراحم هو المانح العافية والشفاء للطالبين منه بنية صادقة، وعندما كانوا يلجون عليه كان يصلي قائلاً أيها الإله الفائق الصلاح تمم فيهم مشيئتك بصلوات معلمي باخوميوس وليك وخادمك وامنحهم بإزاء إيمانهم، ومع نهاية

الصلاة كان يأتيهم الشفاء من عند الله باتضاع لب وليه تادرس وينصرفون وهم يمجدون الله.

عمارة تادرس لأديرة جديدة

واعتمر تادرس غير الأديرة السالف كونها في أرض المدينة المعروفة بادموبولس ديرين وذلك بعد مشورة الأب أورسيوس، ورتب فيهما آباء تقاة أوائل وثواني شبيهاً ببقية الأديرة. ثم بنى ديراً آخر أيضاً في أرموتيم ورتب فيه إخوة وراس عليهم رئيساً وقلده رسوم الأديرة وقوانينهم، واعتمر أيضاً برسم العذارى ديراً آخر في القرية المعروفة (بفخنة) يبعد عن دير بافو ميل واحد وكان الأب باخوميوس قد ابتنى للعذارى ديراً أولاً حسب ما ذكرنا سالفاً، وصار هذان الديران النساويان برسم عمل ثياب الصوف للإخوة، فأما بقية حوائجهم فكان الأقنوم يهتم بها على يد الأب أبونيخوس.

إفراز تادرس

ومن حيث سمع الطوباوي تادرس بالعنجرة التي صارت حينئذ في كنيسة الملاطون لأجل موهبة الاستعلانات التي كانت للأب باخوميوس من الله، صار يكتم هو ما يراه عالماً أن كتمان ذلك أوفق من إشهاره.

وكان يقول للإخوة أن الإنسان القويم الإيمان العامل وصايا الإله الرحمن أعظم هو وأجل من صاحب الاستعلانات، لأنه هيكل الله وحيث يكون الله فهناك كل دالة وسلطان، إذ كان كل شيء مجيد في بلاط الملك يوجد لأن قبة الزمان أيضاً التي عملها موسى كان فيها جميع الأشياء التي ترشد ناظرها إلى مجد الله، فلا يشكن أحد في خادم الله إذا سمع عنه أن له سابق نظر واستعلان إذ كان موري الرؤيا ساكتاً فيه فيننا أمس حاجة إلى احتراس كثير وتيقظ ليس باليسير لئلا يظن الإنسان نفسه أنه شيء وهو لا شيء ويخدعه العدو ويغره ويلقيه في شهوة المناظر ثم يتظاهر هو له ويذهله لما يوريه ويملكه بقلة إفرازه حسب ما فعل بكثيرين، بل الأولى بنا كلنا الذي قد وصل منا إلى هذا الحد والذي ما وصل أن نتمسكن في ألبابنا ونتذكر على الدائم خطايانا ومناقصنا ونطلب من الرب لها محصاً وغفراناً وأن يخلصنا من عقاب النار الدهرية والعذاب الأبدي على رأي القديسين الأفاضل والرجال الأماثل.

لأننا نجد داود يقول في الزبور: " لا تذكر يارب خطايا حداثتي وجهلي واغفر لي خطيتي لأنها كثرت وأيضاً آثامي قد علت فوق رأسي وثقلت عليَّ كالحمل الثقيل " وما يتلو ذلك.

الرسول بولس السعيد فرسائله مملوءة من هذا الفن، ولقد قال سأشكر أنا الرب على خلاصي من فم الأسد، عنى به مبتلع النفوس لأنه خبيث وكثير الشر وربما عمل الكذب حقاً، فإن لم يكن المجرب منه الممتحن بحيله مفرزاً في الغاية فإنه يضل.

والغير ضال هو المطيع في كل شيء لأوامر الله وقديسيه بلا إفراز ونحن أيها الإخوة إذ قد عرفنا ذلك فلنحترس ونحرس ذواتنا وليعرف كل واحد منا قدره ولا يتعدى طوره، والراعي منا والمرتعي فلنسم غنماً إذ كان ليس أحداً راعياً إلا ذاك وحده فقط القائل أنا هو الراعي الصالح وفي هذا كفاية لمن يشاء أن يعلم كيف يخلص.

خبر تادرس عند البابا أثناسيوس

وكان يتصل بالباباس أثناسيوس المتوشح بالله أخبار محاسن تادرس الطوباوي، ويفرح ويبتهج، وصار يوده ويتوق إلى رؤية الكبير باخوميوس.

وفي بعض الأوقات جرى ذكر الباباس بين الإخوة في الدير وصاروا يتواصفون جلادته وصبره على الاضطهادات التي نالته ويعجبون ويسبحون الله، لأن هذا كان دأبهم الحديث النافع العائد بعمارة النفس، فقال الطوباوي تادرس أنا سمعت من أبينا

باخوميوس ولعل قد سمع أحدكم منه ذلك، وهو يقول ظهر في جيلنا هذا ببلد مصر ثلاثة أشياء مرضية لله وهي نامية بالرب وسائرة إلى نجاح وفلاح.

فأولها الأب أثناسيوس أقدس أهل زمانه السامي في الفضيلة على أقرانه مجاهد المسيح والمناضل عن الإيمان المستقيم إلى الموت.

وثانيها الأب الكبير أنطونيوس السامي المكان العالي الشأن أنموذج سيرة التفرد والتوحد.

وثالثها هذه الشركة التي لنا الصائرة بأمر الله بنا رسماً حسناً ومستحباً يقتدي به كل من يؤثر خلاص الأنفس بجمعه إياهم إلى مكان واحد لعبادة الله ويعتني بأمورهم نفساً وجسماً إلى النهاية.

طلب القبض على البابا أثناسيوس وحصار دير طبانسين

وعرض من الأمور الغير مُسرَة أن الملك وقتئذ قسطنطينوس ابن قسطنطين الملك الكبير مال إلى اعتقاد أريوس الكافر بابن الله وحرك من الأريوسية الحاضرين كانوا عنده يومئذ في القسطنطينية بتحريك أبيهم الشيطان إياهم أن يرسل يحضر أثناسيوس أسقف إسكندرية إلى عنده ويصيره أن يضبط اعتقاد أريوس، فإن هو أجاب ثبته على كرسيه، وإن عصاه وخالفه نفاه

ورتب موضعه غيره. وأن الملك أصدر منشوراً إلى أرتاميوس والي الإسكندرية وهذا فكان أريوسياً أيضاً يقول به عند وقوفك على كتابنا هذا للوقت والحين تقبض على أثناسيوس الأسقف وترسله إلينا مع من تثق إليه.

ولما وصل الكتاب إلى الوالي، أهمل جميع أشغاله وطلب الأسقف وبحث عليه في مواضع كثيرة فلم يجده، وكان يتقصى عليه من كل أحد فقيل له أنه قد كان يكثر من ذكر رهبان طبانسين ويميل إليهم وبودهم فلعله يكون قد اختفى عندهم.

وأن الوالي نهض بذاته وأخذ معه معه جنده وأصحابه وركب في البحر وتوجه إلى هناك وكان يومئذ الطوباوي تادرس قد أخذ قوماً من إخوة بافو وركبوا في مركب بحرية وقصد افتقاد الأديرة فصادف الدوس وهو صائر إلى دوناسة، وسلم عليه وجاز من حيث لم يعلم تادرس إلى أين هو متوجه ولا الوالي قال به شيئاً، فلما حصل تادرس بقرب الدير الفوقاني المعروف بكابور ورأى من بعد نازح الوالي أيضاً وهو سائر في البحر، فعلم وقتئذ بالنعمة الساكنة فيه ما قد حدث وأن الوالي متوجه إلى دير طبانسين يطلب الأسقف، فخبر الإخوة الذين معه بالأمر فقالوا له يجب أن نرجع إلى ديرنا بافو لئلا يجيء الوالي

هناك ويزعج الإخوة ولنسرع لكي نسبقه. فأجابهم تادرس قائلاً قد قطعنا هذه المسافة البعيدة وجئنا إلى ههنا وقربنا من الإخوة الذين كانوا قصدنا فلنتمم بمعونة الله خدمتنا ولا نرجع من طريقنا والله هو المدبر والحافظ لنا ولإخوتنا الذين في بافو والذين في كل موضع وساروا في طريقهم.

فأما الوالي ارتاميوس فوصل طبانسين ليلاً ونزل بظاهر الدير ورتب الجند رماة القسي أن يحتاطوا به ويحرسوه لئلا يتزل من كواه إنسان، وجلس هو مع أصحابه الخصيصين به بمعزل فأما الإخوة الذين داخل الدير فإنهم جبنوا كثيراً إذ لم يعلموا ما هو الحادث.

ولما أضاء النهار استدعى الوالي بقوم من الرهبان المقدمين فيهم وقال لهم بواسطة ترجمان أين هو أبوكم؟ فأجابه باكسيوس الذي كان قد شجع الرهبان قبل خروجه من الدير عندما عاين جبنهم وقال لهم تقووا بالرب ولا تخافوا، وقال له أيها السيد أبونا غائب في بقية الأديرة لافتقاد الإخوة. فقال له الوالي وأين الثاني منه، فأورده الأب بصرفتين الأقنوم الكبير. فقال له الدوقس بمعزل: قد وصلني أمر ملكي بأن أقبض على الأسقف أثناسيوس وأرسله إليه وطلبته فلم أجده وقد قيل لي أنه عندكم

فأعطوني إياه وكونوا معافين. فأجابه الأب بصرفتين قائلاً: أما أثناسيوس الأسقف فهو أبونا ومقدمنا لكنني ما أبصرت له وجهاً ولا أعرفه ولا جاء إلى عندنا، وها الدير بين يديك فتشه لتعلم صحة قولي.

فأمر الوالي بتفتيش الدير مهلاً مهلاً فلم يجده، وعندما أراد الخروج قال للرهبان هلموا كلكم واعملوا على صلاة، وكان معه أسقف أريوسي عرفه بعض الإخوة ومن الأسقف استدلوا أن الوالي أريوسي فأجابوه قائلين لا يمكننا ذلك لأن معنا وصية من أبينا أن لا نصلي مع من كان أريوسياً. ثم انفصلوا عنه.

فعمل الأسقف وحده صلاة ثم جلس الوالي والأسقف وأصحابه، وفيما هم جلوس طفر الوالي وحده بين الجماعة كهارب مكدود وجل فزع يجري ومنخاره يجري دماً وهو يقول بالكاد أفلت من الموت لأجل الرؤيا التي ظهرت لي الآن إلا أن يشاء الله حياتي. وعلى هذه الحال انفصل ورحل عن الدير. فأما الأب تادرس فلما رجع إلى الدير وسمع بما كان مجد الله.

أسئلة وأجوبة مع الأب تادرس

وفي بعض الأوقات بعد فراغ الطوباوي تادرس من تعليمه للإخوة قال له أخ أيها الأب تاودورا، لماذا متى دعيت من قوم

قساة عتاة وغلظوا لي في القول ما أتنمر علـــيهم، وإذا أغــــاظني أخي فما أقدر أن أضبط ذاتي من أن أثب إليه، فعرفني ما السبب ودلني على عاقبتي؟

فأجابه الطوباوي قائلاً: هذا ليس بعجب ولا كحال غريب بل العجب لو أنك لا تغضب ولا تكتئب ثم قلت عرفني السبب وذلك فهو مشهور لكافة الجمهور أن العالم يحيا بعد فيك وأنت تحيا فيه، فأي برهان تريد أكثر من هذا .. لا تجهل أيهـــا الأخ القول السائر بين الأنام وهو كل إناء ينضح بما فيه والشوكة متى ما ضربها أحد بفأسه بدت حميتها وطفـــرت إليـــه بكليتـــها، فاستخبره الإخوة ما هو هذا؟ فأجابهم رجل الله يفهم أنه كرمة فإن أخذ أحد عنقود عنب من ثمرها ثم داسه وعصره لا يخر منه إلا نبيذ حلو، كذلك الراهب الذي قد خلع عنه الثوب العتيـــق أعني الأمور العالمية وليس الثوب الجديد أعني النسك والجهادات الروحانية متى ما ضبط وديس وعصر ما يقول أو يفعل فما يبدو منه إلا حلاوة وعذوبة وأثمار شهية، فأما الرجـــل الجـــسماني الغضوب فما ينجم عنه شيء صالح بل يبدو منه مرارة وعلقم.

وأنا قائل هذه الأقوال أقول لكم أني وجل خائف من أسقط من الله إذ لم أحم قلبي وأعده لمقاومة العدو المضاد في أوان تجربته

إيانا إما بذاته وإما بالخصيصين به، وقد ذكر داود النبي قتاله لنا في المزمور يقول (كثيرون هم المحاربون إياي من العلا) وقال أيضاً مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي.

فيا ليت شعري .. لماذا أعد قلبه .. هل للراحة والسكون؟ لا البتة، بل أعده لقبول الضربات وللقا الكلمات الناكية، لاحتمال الفريات والإهانات والشتيمة وكل ما كان من المؤلمات للصبر على سائر الأحزان.

وقال أيضاً ها أنا مستعد للسياط. لم يقل أني معد للراحة بل مستعد للضربات فلنصغ إلى المقولات إصغاءً وافياً، نحن أناس فلا نتباهم لئلا يوافقنا الفصل المقول في المزمور: " لا تكونوا مثل الفرس والبغل اللذين لا فهم لهما وإلا بلجام وحكمة تكبح لحى الذين لا يقربون منك ".

تأملوا ما أقول وافهموه .. إن كانت شرذمة من الملائكة سقطت وطائفة من النبيين هوت وزمرة من الحواريين ارتجعت، ولست أعني يوداس فقط من تلاميذ المسيح ذكر الإنجيل أنهم عادوا إلى وراء، فسبيلنا نحن الخطاة أن نجزع ونهلع ولنقتن فينا قبل كل شيء خوف الله لأنه زمام العمل وأنا أرشدكم إلى خوف الله بمثل أورده لكم ..

فلنضع أنموذجاً أمامنا ومثالاً، وليكن ذلك بحراً مهولاً فيه حيوانات كاسرة ووحوش متنمرة، ليس لعمقه نهاية، ولا لغوره غاية، ظاهراً في وسطه صخرة قد برز منها عامود أصله فيها ورأسه راقياً السماء، عرضه وسمكه أربعة أشبار يكون بعد الفضاء أعني الهواء من وجه سطح ماء البحر وإلى السماء كبعد المشرق من المغرب سوى، وفي هذا العامود مصعد مستخرج من جسمه استخراجاً خشناً وعراً غير مهندم ولا محكم حرجاً على ما اقتضى عرض العامود وسمكه ضيقاً ضغطاً جداً. وإن اختار إنسان ممن قد توشح بحلة المعمودية وختم بخاتم الروح أن يطلع في هذا المطلع الوعر مشرقاً إلى السموات العليا يلبسه زي الرهبانية الملائكي وشروعه في مناسكها وجهادها تطوعاً منه لله تعالى، فليرو في فكره طول المسلك وخشونته وفي مضاغطه وأحزانه ووعارته ويتصور ارتفاع الفضا السالفة حكايته وعمق البحر الذي لا تحد نهايته ويجمع إليه كل عقله ولبه وحواسه وفكره في حال صعوده ويميز كيف ينقل رجليه وأين يضع موطئ قدميه ويمسك العامود بكلتا يديه ولا ينظر البتة لا إلى ناحية اليمين ولا ناحية الشمال، ولا يتأمل العمق المهول الذي بين يديه لئلا يحير نظره ويدوخ عقله ويطيش لبه ويعتريه الجبن

والهلع ويميل ويهوي من أعلى علو إلى أسفل فيضيع بجملته ويهلك ويبيد ذكره.

بل يكون أبداً صاعداً إلى فوق مهلاً مهلاً بخوف وفزع ورعب وهلع إلى أن يبلغ بمعونة الله إلى مشارف السماء ويعاين المخلص على منبره جالساً وبين يديه جند الملائكة وخلايق لا تحصى ويشاهد التيجان الدهرية والأكلة السنية، والمنح الروحانية التي تصير لمستحقيها عطايا أبدية.

فقال له الإخوة أوضح لنا معاني هذا المثل، فأجابهم قائلاً البحر الذي لا قعر له هو عالمنا هذا، البحر الذي ليس له قرار الذي يغتر به الجهال من الأنام إذ يعولون عليه ويميلون إليه. والوحوش الكاسرة التي فيه هي الشياطين المردة المؤثرون هلاكنا. والصخرة هي السيد المسيح الذي أتى لخلاصنا من أعدائنا، والعمود البارز منه الراقي بالصاعد فيه إلى السماء هو الشرع الجديد الخلاصي الذي نهجه لنا، فأما خشونة المصعد ووعارته فذاك هو مناسك السيرة وجهادها الذي إليه أشار الكلمة في إنجيله المقدس بقوله أن الطريق التي تؤدي إلى ملك السماء وعرة خشنة وقليلون هم السالكون فيها، وأما قولي لا يميل الإنسان بنظره إلى الناحية الشمالية فمعناه أنه لا يجنح إلى الأمور العالمية

والشهوات الجسدية، وأما قولي بأن لا يميل إلى الناحية اليمينية فمعناه أن لا يقتنص الإنسان بالعالم والذي خلص من شباكه بالعظمة والخيلاء، إذ كان هذان الحالان للنفوس مهلكين وللفضائل مبيدين.

ولعل فيكم من يقول لي قد ذكرت لنا في مثلك أن الذي يسقط من المصعد يبيد ذكره ويضمحل أثره، فإذاً على رأيك أن خطف إنسان بهفوة فقد هلك وليس له توبة فأجيبه بأن باب التوبة مفتوح لكل من يطلبها مغلوق عن الذين لا يقصدونها ويأتون إليها، ولن تجد خطية ليست لها غفران إلا الذي لا يتاب عنها وإلى هذه نحوت بقولي كيوداس الذي أحسن الرب إليه إحساناً جزيلاً وعمل قدامه آيات جسام حتى وقيامة أموات وهو كان الأمين وصندوق النفقة معه فلم يحتشم قدر هذه النعمة التي أوتيها بل جنح إلى حب الفضة السقيم وكفر بنعمة المعطي الكريم فهلك اختياراً إيثاراً، فأما طلب التوبة بعد الهفوة فإن الله بكثرة حنانه يفتقده برحمته ويقيله من عثراته.

ويليق به أن يهتف بالفصل المقول من الروح القدس في المزمور ما أصلح إله إسرائيل للمستقيمين قلباً، فأما أنا فعن قليل كادت تزل رجلاي، فالأخيار إن هم هفوا يسيراً لكن حالهم

حال الفضة المحماة في النار يلقون عنهم الصدأ ويبرزون منها أنقياء، ولذلك يقول داود السعيد فأما أنا فأدخل إلى مترلك بكثرة رحمتك. فإذا كان هذا الفاضل يعترف أنه لا يدخل إلى بيت الله بشيء من الأشياء إلا بكثرة رحمته فالأحرى بنا نحن الأشقياء أن نعترف هذا الاعتراف على الدائم وفي كل وقت.

لنفطن أيها الإخوة في المقال الذي سمعناه من الأب الكبير باخوميوس حين كان يتلو علينا الكتب الإلهية ولنقطف ثمرته ونحصل فائدته لأنه قال الإنسان المؤثر أن يتطهر من خطيته ويتنقى من زلته أو من ألم غضبه أو غير ذلك من أدواء عزيمته متى ما عير أو أهين أو غلظ له في القول وصبر بحلم، فليعتقد أنه قد غفر له من سيئاته أو خلى له من ألمه جزء ما وأنه قد أفاد ديناراً واحداً عيناً، وإن شئتم دفعة ثانية أو خسر وظلم وصبر شاكراً لله فليعتقد أنه قد سومح بجزئين من جريرته وأنه قد ربح دينارين وعلى هذا المساق يعبر عمره فطوباه من إنسان سماوي وملاك أرضي.

وفي أحد الأيام سُئل الأب تادرس من بعض الإخوة إن أنا اقتسرت نفسي وألزمتها أن تحتمل العار والهوان الواصل إليها من قريبها وجعلتها أن تجيب إلى ذلك عنوة واغتصاباً وتصبر على ألم

المضض وتحلم دفعة واحدة، فماذا أصنع بالشتم الثاني ولعل الثالث والرابع وما زاد على ذلك؟

فأجابه تادرس قائلاً: قال الروح القدس على لسان داود ناموس الرب بغير عيب يرد الأنفس، شهادة الرب صادقة تحكم الأطفال، فرائض الرب مستقيمة تفرح القلب وصية الرب لامعة تنير العيون مخافة الرب طاهرة وإلى الأبد راهنة أحكام الرب حقيقية صادقة معاً وهي أشهى من الذهب والجوهر الفائق وأحلى من الشهد والعسل ويحفظها عبدك وفي حفظها مجازاة كثيرة، ألا ترى إلى كثرة الفوائد الصائرة لنا بحفظ الوصايا لكننا نجهلها ولا نعرفها لأجل أننا نقرأها ونسمعها سماعاً ساذجاً لميلنا إلى أهواء الجسد أكثر من ميلنا إلى أغراض الروح، وأنت أيها الأخ هذه الحال لأنك قلت قد حفظت وصية الرب دفعة واحدة ولا يمكنني أحفظها دفعة ثانية وثالثة ورابعة فيشبه أمرك لرجل جاء له إنسان آخر برغيف حوّاري على سبيل الافتقاد فأخذه منه وقال له ها قد أخذت افتقادك هذه الدفعة الواحدة، فإن أنت عدت وجلبت لي رغيفاً آخر بخست بإصبعي حبتي عينيك وقد كان الأولى به أن يشكره ويكرمه لا أن يهينه ويتوعده، وأنت يا أخي لو أنك عبد لإنسان ما ثم أمرك مولاك أن تخدمه في أمر

من الأمور خدمة تختص منفعتها به دونك لسارعت وامتثلت مرسومه، والإله نفسه ملك الملوك يأمرك بافتعال أمر تختص منفعته بك دونك تهمل أمرته وتخالفه وتقول لا أسمع منك، فأي جواب تعطي عن هذا يوم الدين، لقد كثرت حفايرنا وتزايدت مهادفنا، آباؤنا القديسون الأنجم الزاخرة ما احتملوا ضاربيهم والمسيئين اليهم فقط، بل وصلوا عليهم وطلبوا الغفران من الله لهم حسب وصية المخلص إلهنا وبولس الرسول يقول لعمال وصايا الإله أنتم ورثة الله وشركاء المسيح في الإرث فقل لي أنت أيها الأخ ماذا صنعت لتستحق أن ترث الله ... لا طُردت من أجله ولا أُستشهدت من أجل المسيح، فأنت ما طُردت ولا أُستشهدت فلا أقل من أن تحتمل كلمة محزنة تصل إليك من أخيك.

ثم قال الطوباوي للحاضرين عنده بالحقيقة أني أعجب وأذهل من كثرة خيرية الله وفيض صلاحه، وذلك أن جماعة القديسين الشهداء منهم والأبرار قد كان يجزيهم مقابلة عن جهادهم وشقاءهم مجد العالم إياهم لأن من لم يجد خادم الله ووليه ومن لا يعظم شهيد المسيح وباذل دمه لأجله، لكنه جلّ اسمه لا يقتنع لهم بذلك بل يجود عليهم بسبوغ إنعامه وفيض

إحساناته والكون معه في ملكه السماوي إلى ما لا نهاية لـــه، .. لعظيمة هي رحمتك أيها الإله لأنها لا تستقصى.

ولنورد أنموذجاً لإحسان الله وإن كان ذلك دنيئاً وحقـــيراً بالإضافة إليه لكنه حسب مكنتنا ووسعنا، أن الله تعالى يشاكل إنساناً قائلاً أعطوني جميع ما في منازلكم من الأوعيـــة الخزفيـــة الطينية لأهلكها واستأصلها وخذوا مني عوضاً منها آنية ذهبيـــة ذات حجارة ثمينة، ونحن لا نشاء هذه المقايضة ولا نجيب إليها، ولم يطلب منا هذه المقايضة دفعة واحدة فقط بل مرات بكثـــرة وهو إلى الآن وفيما بعد ودائماً يتمنى ذلك منا، ويسأل ويرغب ويتحيل أجلنا الحيل ونحن نتجاهل ونتـــصامم ومـــا ننـــثني ولا نرعوي لكنا نؤثر الخزف والطين على التبر والذهب، فإذا قـــد وافقنا الفصل المقول من الروح القدس في المزمـــور إنـــسان في كرامة ولا يفهمها يقاس بالبهائم التي لا لب لها ويماثلها.

وفي وقت سأله أخ أنه بأي طريق يقدر الإنسان أن يخـــرج الشياطين من ذاته؟ فقال: إنسان إذا قبل ضيفاً وأكرمه في اليوم لا يقدر في الغد أن يطرده إذا كان قماشه داخـــل بيتـــه إلا إذا أعطاه قماشه وجميع ما كان له داخل بيته، حينئذ إذا أراد طرده غلق الباب في وجهه وهكذا الشيطان إذا لم تطرح متاعه خارجاً

عنك الذي هو حطام العالم أي الزنا والطمع والكذب وجميع آلاته، لا تقدر أن تطرده من ذاتك.

وفي وقت آخر قال له الإخوة أيها الأب تاودورا أوضح لنا أيما هي الأعمال الخصيصة بالنفس دون الجسد والأعمال التي تختص بالجسد دون النفس.

فأجابهم قائلاً جميع ما يعمل لأجل وصية الله هو خصيص بالنفس، نعم وما يعمل لأجل قوام الجسد وحاجته الضرورية التي لابد منها وهذا من أعمال النفس يدعى، فأما ما زاد على ذلك فذاك هو الخصيص بالجسد دون النفس.

وذكرنا حاجة الجسد الضرورية لا التي يريدها هو لأنه وحش لا يشبع بل التي نراها نحن لقوامه الكفافي.

فأجابوه قائلين زدنا من هذا المعنى. فقال لهم: متى ما سمع أحدنا عن أخ أنه مريض ويشاء افتقاده ليتمم الوصية، ويهم على فعل ذلك الفعل، فهذا الفعل يختص بالنفس فإن قال فكره قد بقى من تمام الشغل الذي بيدك قليل فتممه أولاً وحينئذ تمضي تفتقد الأخ فإن هو سمع من فكره فهذا الفعل يختص بالجسد، وأيضاً إن جاء إلى عندك أخ وسألك أن تمضي معه وتساعده فإن أنت تركت عملك ومضيت معه فهذا الفعل يختص بالنفس وإن

أنت قلت له لا يمكنني أن أخلي شغلي لأنه ضروري فلا تأخذ عليَّ وعاد خائباً وبقيت أنت في عملك فهذا الفعل يختص بالجسد وتكون قد عطلت وصية الله التي هي عمل النفس القائلة من سخرك ميلاً امض معه ميلين.

ومثل هذه التعاليم وما ضاهاها كان الطوباوي يتلو عليهم كل يوم ويحثهم على العمل بها ويشجعهم على مقاومة التجارب والثبات بإزائها.

زيارة البابا أثناسيوس لدير بافو ومقابلة تادرس له

وفي عروض ذلك وفد الأب أثناسيوس الباباس إلى مدينتي وانتينوا وأرموبولس، اللتين كانتا صقب أديرة الكنونيون لافتقاد الشعب بهما وسمع النبأ الطيب السائر عن الأب تادرس وكيف هو حار بالروح ونشيط في الاهتمام بما عاد بمصالح إخوة الأديرة وبخلاص أنفسهم وأنه يكثر من تعليمهم من غير ملل ولا كلل، فسر بذلك كثيراً وابتهجت نفسه. وقال للأساقفة الذين معه ألا ترون إلى أب هؤلاء الإخوة الكثيرين الملتئمين في هذه الديارة من أماكن شاسعة كيف يجاهد عنهم ويعظهم ويحرص في خلاص أنفسهم لكثر من حرصه بخلاص نفسه، أما نحن آباء الشعب فمن منا يحرص في خلاص شعبه حرصه، ويجاهد جهاده؟ لقد

فاز الشعب الذي هو أبوهم الحاملون صليب المسيح طوعاً المهتمون بخلاص أنفسهم الذين تعبهم يفضي إلى راحة تكون لهم إذ يتوجون من الإله باريهم.

ثم أنه شاء أن يبصر أديرة الكنونيون وترتيبها ونظامها لأنه لم يكن أبصرها نظراً، بل سمع عنها خبر. ولما فرغ من افتقاد شعب المدينتين المذكورتين بارك عليهم وانفصل عنهما وتوجه إلى زيارة الديارة، ولما حصل فيها وطاف جميعها وأبصر الكنائس التي فيها وبيوت الموائد والمخابز وبيوت الضيافات والبيمارستانات حتى وبيوت الماء التي للحاجة الضرورية فأعجبه حسن ترتيبهم واعتبر افتقادهم فوجدهم على الاعتقاد السليم، فسر بذلك جداً.

ومضى إلى الدير الكبير بافو بحيث كان الأب تادرس، وطافه بجملته وأبصر الهياكل التي فيه وسائر قلاليه وبيوت الصنائع وعاين زي الإخوة وتمسكهم واتضاعهم ووداعتهم، وأعجب من كل شيء، اتفاق أخلاقهم وأبصر سيرتهم وترتيبهم ولم يكن ظهر في العالم بعد أناس أرضيون كملائكة سمائيون.

فقال لتادرس قد كان يصل إلى مسامعي أخباركم وحميد سيرتكم وجميع تصرفكم والآن فقد شاهدت بالبصر ما ينيف ويعلو على الخبر. بالحقيقة أقول لك لقد اخترع الأب

باخوميوس هذا الإبداع الحميد واستن هذا التصرف السديد والمذهب الرشيد ما قد ضاهى به أعمال الرسل الأماثل والتلاميذ الأفاضل، إذ جعل النفوس مسكناً لروح الله.

وها أنت قد صرت بعده سالكاً آثاره مقتفياً نظامه، لأنني عاينت كافة الآباء والإخوة الذين هم اليوم تحت أمرك وطاعتك وهم عجيبون جداً في سائر أمورهم ورسومهم ونعمة الله حالة فيهم بواسطة الكبير أبيهم وسفارتك أيها الأخ تادرس، وحسن اهتمامك بهم والكل يبصرونك مثل المسيح، فثق إذاً وتأيد بالله وجاهد ولا تمل.

ثم أنهم عملوا حباً واستعملوا غداً، وقال البابا لتادرس: الفصح المقدس قرب وأشاء أن أكون عند أصحابي، وأنت فكن معافى مع رهبانك وأذكرني في صلواتك.

ثم رام الانفصال عنه، فأما تادرس فلم يفارقه بل سار معه مشيعاً إياه إلى البحر، ولما أبصر أن المركب الذي معه مثقل أعطاه مركب الدير لمسيره وراحته ووصى الإخوة خدام المركب قائلاً أين ما شاء امضوا معه لأن له سلطة على أجسادكم أيضاً فضلاً عن السفينة.

ولما كان الوداع قال الباباس لتادرس أنا حزين إذ لم أبصر الأب أورسيوس لأن على ما سمعت أنه في دير منخوسين، وإذ كان هذا الدير مفرداً عن باقي الديارة وبمعزل عن طريقنا لا أمضي إليه بل خذ كتابي وأوصله إلى قدسه والإخوة المقيمين معه.

كتاب الباباس أثناسيوس إلى الأب أورسيوس

ثم أنه جلس وكتب ما هذا فحواه: لا يجد قدسك وقدس الجماعة حرسكم الله عليَّ إذ لم أجيء إلى عندكم لأبصركم وآخذ صلواتكم التي أنا أسال الله أن يمنحني إياها أين ما كنت لأن ديركم بعد جداً وعيد الفصح المقدس قد قرب، لكنني تمتعت برؤية الأخ تادرس خليفتك أيها الأب أورسيوس ومساعدك والنائب عن أبوتك وبنظري إليه كأني رأيت الأب الكبير باخوميوس وسررت حقاً عند مشاهدتي بقية الإخوة أولاد البيعة الطاهرة. الله يبارك عليهم ويجزل ثوابهم وعند وداع الأخ تادرس إياي قال لي أذكرني في صلواتك ولجماعة الإخوة ولا تخلينا منها، فأجبته أنا بما قال الروح في المزمور: إن نسيتك يا أورشليم أنسى يميني ويلصق لساني بحنكي إن لم أذكرك. فاذكرنا أنت والجماعة في صلواتكم.

تسليم خطاب البابا أثناسيوس للأب أورسيوس

وانكفى تادرس بعد مسير الأسقف إلى عند الأب أورسيوس وأوصل كتاب الأسقف إليه وتلا جميع ما جرى له معه من الخطاب عليه.

عودة الأب أورسيوس إلى الرئاسة

ثم قال تادرس للأب أورسيوس إن الله تقدس اسمه عطَّف قلوب إخوتنا المنشقين كانوا منا إلينا وخزي الشيطان الذي رام بشره انفصالهم منا، وذلك بصلوات الكبير باخوميوس أبينا وبصلوات قدسك الذي أنت بعده راعينا. فأنا أسأل أبوتك وأرغب إلى سيادتك أن تعود إلى ديرك وتنفع الإخوة ليس بعظاتك فقط، بل وبنظرهم إلى هيبتك.

فأجاب سؤاله وعادوا جميعاً إلى بافو، وتادرس سبقه إلى الدير ودق الناقوس وأعلم الإخوة بمجيئه وأمرهم أن يستقبلوه بالكرامةِ الجزيلة، فخرجوا كلهم لاستقباله وأعلم الآباء بالدير ففرحوا لحضوره، فاستقبلوه بالترنيمات والمباخر العطرة ولما وصلوا إليه سجدوا له قاطبة وزفوه إلى الدير وولجوا إلى الكنيسة، وبعد ختام الصلاة باركهم وانتصب كجاري عادته

وشرع في تعليمهم، وكان تادرس قائماً وراءه وصاغياً إلى أقوال الروح البارزة من فمه.

ولما انتهى القول مضى إلى قلايته، وصار تادرس لا يمضي أمراً من الأمور كبر أم صغر دون مشورته وأخذ رأيه، وصارا متفقين في الرأي والمشيئة كنفس واحدة وانتفع الإخوة بهما لما عاينوه من صفاء محبتهما واتفاق ألفتهما، لأن تادرس كان قد صور في قلبهِ أن أورسيوس الأب الأول وهو الثاني.

فرط الشركة الباخومية

وكان بعض الأديرة لم يزالوا متمسكين بحقول ومواد مما يعيق خلاص الأنفس بخلاف تقليدات الأب الكبير باخوميوس، فكان تادرس حزين لذلك، وكان يطلب إلى الله بسهر الليل المديد والنحيب الشديد أن يأتي في أمرهم ما يراه ويشاءه، وكان يخرج خارج الدير بحيث مقابر الإخوة ويصلي هناك طول الليل منتصباً على قبر الأب باخوميوس، على ما حدثني من أبصره لأن بعض الإخوة تبعه سراً فسمعه يصلي قائلاً أيها الرب إله وليك وخادمك باخوميوس صفيك الذي أنا قائم على لحده متوسل به إليك أن تنظر إلى إخوتي عبيدك وتأتي فيهم مشيئتك لأننا أيها السيد قد فترنا بعد أبينا وزاد فشلنا وكسلنا غفلنا عن خلاص

أنفسنا، فلا تهملنا أيها السيد إلهنا أن نمضي وراء جهالتنا بل اعطف نحونا وردنا وإن عدنا وزغنا أيضاً فأيقظنا وألهمنا أن نسلك في سبل الصلاح وأن نسعى في مناهج الفلاح ونأتي إلى آفاقه ونجاح لأنك ربنا وخالقنا ولأجل حبك لنا أرسلت ابنك الوحيد إلى العالم ليهدينا واتخذ جسدنا واحتمل أثقالنا وابتاعنا بدمه الزكي من عدونا وسابينا.

افتح يا إلهنا أذنيك واسمع تضرعي ولا تترك تقليدات عبدك باخوميوس مطروحة مداسة وأوامره مهملة بصلوات خادمك الذي أرضاك أمامك ومكث يتردد على هذه الحال زماناً طويلاً.

خبر نياحة القديس أنبا تادرس تلميذ باخوميوس

ولما كانت عشية نهار السبت الكبير مرض الطوباوي تادرس، وعرف أنه منتقل من هذا العالم على العالم الحقاني، فاهتم بحال الفصح المقدس، وبعد الفصح المقدس تقدم بنشاط كثير واستحضر كافة رؤساء أديرته ومقدمي رهبانه إلى عنده لكي يستغفر منهم عما لعل يكون قد أحزن أحدهم، ولما حضروا والأب أورسيوس في جملتهم وجدوه قد ثقل ولم يقدر على مخاطبتهم، عند ذلك بكوا كلهم بزفرات ذات شجو. فقال لهم الأب أورسيوس هلموا بنا كلنا نصلي ونطلب من الله أب

الرأفات وعنصر الخيرات أن يمن به علينا ويهبه لنا ولا يجعلنا أيتاماً منه المهتم بنا، ثم أنهم كلهم خروا إلى الأرض بنحيب شديد وبكاء قائلين أيها الإله القدوس لا تعدمنا معزي نفوسنا وحارسنا من مكر أعدائنا.

فأما الأب أورسيوس فزاد ندبه وكآبته وأبدى ما هذه حكايته: يارب أنت تعلم أنه قوامنا وعزانا وسندنا في ملماتنا، وهو بعد رحمتك المهتم بنا نفساً وجسماً فإذا رفعته عنا فمن يكون الخلف بعده لنا، خذني أنا عوضاً منه وخله لهؤلاء الإخوة باكيه ونادبيه.

ولم يزالوا على هذا الابتهال ثلاثة أيام، حينئذ لما دنا مماته وأزف حين وفاته فاق إفاقة الرحيل وعاد إلى ذاته وعقله ونظر إلى الأب أورسيوس وقال له اغفر لي أيها الأب عما لعل أكون خالفتك، ثم عطف نحو الإخوة وقال لهم اجعلوني في حل عما لعلي قد أحزنت أحدكم ولا تخلوني من صلواتكم. فأما هم فما أمكنهم جوابه من كثرة بكاهم وفيض عبراتهم والنحيب الذي اعتراهم.

ثم أنه عاد وقال قولاً عاماً: لا أعرف أني قصدت حزن أحدكم ولا غفلت عن خدمتكم، بل كان اهتمامي بكم ربما

بمصالح شأنكم أكثر من اهتمامي بنفسي، لا بقوتي لأن أي قوة تكون لمن هو مركب من طين، بل بقـــوة الله المـــؤازر إيـــاي بصلواتكم وهو جلّ اسمه الشاهد بما أقول، فاغفروا لي كلكـــم وصلوا عليَّ.

وفي الحال قضى نحبه وأسلم نفسه إلى ربه، وانصرف إلى من كان يحبه.

تاريخ نياحة الأب نادرس

وذلك في اليوم الثاني من بشنس من أشهر القبط سنة ٣٧٥ ثلاثمائة خمسة وسبعين لتمام ثلاثة وخمسين سنة من عمره.

تجنيزه ودفنه بجوار القديس باخوميوس

عند ذلك علا عجيج الإخوة وزاد شجاهم وحزنهم وعظم عويلهم وبكاهم، وغرقوا الأرض بـــدموعهم ولم يمكنـــهم أن يضبطوا في ذواهم تنهداهم وزفراهم، ومن يمكنه أن يشرح أنواع نوحهم وفنون تعديدهم، وأن يعد شيئاً فشيئاً من أقوالهم، بـــل الأولى بنا أن نهمل الإطناب ونأخذ بالإيجاز والإسهاب، ونقول أنهم كلهم سهروا عنده تلك الليلـــة مـــصلين ولله مـــسبحين وممجدين إلى الصباح.

حينئذ حملوه وزفوه بالمزامير والترنيمات والمباخر العطرة والتكريمات، حتى وصلوا إلى الجبل بحيث كانت مقابرهم فدفنوه هناك وعادوا إلى الدير وهم باكون ولربهم مباركون.

ثم عاد شيخ منهم اسمه بافرصابيس ثاني الرئيس، أقدم رهبان دير بافو، وصحبته أخان آخران فنقلوا جسد الأب تادرس الكريم من قبره ودفنوه صقب قبر الأب باخوميوس.

ومكث الإخوة حزينين عليه زماناً طويلاً ....

بدء انحلال رهبنة القديس باخوميوس

وقد مكث الإخوة حزينين عليه زماناً طويلاً، لا سيما أولئك الإخوة الذين عصوه ولم يهملوا حقولهم ومواردهم حسبما فعل غيرهم، فإن حزنهم وكآبتهم كانت أكثر من الكل قائلين نحن أخذناه وأمتناه في غير وقته وبسببنا واصل صلاته أن يقدم عليه وفاته ولا يعاين تقليدات معلمه مهملة مداسة، فأعطاه الله طلبته وأبلغه أمنيته وأخذه إليه ونقله من محل الخساسة إلى محل القداسة والفرح الدائم، فأما نحن فإننا نستحق الويل الكثير والندب والعويل.

رجوع الإخوة المنحلين (مؤقتاً) إلى الشركة

وذلك أن الأخ الذي كان قد تبع الأب تادرس سراً عندما كان يتردد إلى قبر الكبير باخوميوس ويصلي هناك، أعاد عليهم بعد وفاته ما سمعه يطلب في صلاته، عند ذلك فاقوا من سكرهم وارتجعوا عن غيهم وأهملوا حقولهم وسائر مواردهم وتابوا إلى الله التوبة الكاملة الفائقة عن نية محقة صادقة، وبهذه الحالة الحميدة والتوبة السديدة عبروا أعمارهم وانتقلوا إلى الحياة السعيدة.

خطاب تعزية من القديس أثناسيوس الرسولي في وفاة القديس تادرس

فأما الأب أورسيوس فإنه عاد إلى رتبته ولازم خدمته وساس الإخوة والديارة حسب استطاعته وإمكانه، وكان خيراً وديعاً إلى الغاية وحريصاً في خلاص النفوس والرب كان يقويه ويمده بالمعونة في جميع ما كان يعانيه إذ كان تبارك اسمه على قدر قصد الإنسان يعطيه، ومكث يسوس أمور الإخوة بالأمن والسلامة سنين كثيرة.

ولما اتصل خبر نياحة الطوباوي تادرس بالأب المتوشح بالله أثناسيوس الأسقف بالإسكندرية حزن جداً، وأصدر كتاباً إلى الأب أورسيوس وإلى جماعة الإخوة نسخته وحكايته (العنوان)

من أثناسيوس الفقـــير إلى رحمـــة الله خـــادم كنيـــسة الإلـــه بالإسكندرية، إلى الأب القديس الفاضل النفيس أورسيوس مقدم الرهبان المتقنين السيرة السديدة السنية والشركة الجامعة المرضية وإلى جماعة الإخوة الوادين لله، افرحوا بالرب (الباطن) قـــوي الصبر أيها الأب أقدس زمانه الفائق في المناسك علـــى أقرانـــه وإخوته المتراقي في درج الروحانيات والمتصل بعز اللاهوتيـــات الفاعل بجوهر العقل والنامي بمادة الفضل القاهر سلطان غـــضبه عند ثورانه والطافئ نار حزنه عند غليانـــه، الأب أورســـيوس السعيد الفاضل المجيد توجك الله في نعمه بالمزيد وقرن أمـــورك بالنجاح والتأييد بوفور جوهر العقل فيك ووقوف ذوي التناهي في العلم دون تناهيك.

يتأيد على الأحزان وقوادح الأشجان صبرك ويتسع لعوارض الكوارث وطوارق اللازبات صدرك فمعزيك في الحزان حلمك ومسليك في الملمات علمك ....

وبعد – فبلغني هجوع الأخ تادرس السعيد السالك مـــدة عمره المنهج الرشيد ومسني فقده مساً شديداً وأولمني خبر وفاته إيلاماً ُجهيداً وعرفت ما نالك ولكافة الإخوة عليه من إفـــراط الجزع وما تكبدتموه من فجيع الهلع، والعالم خفيات القلوب وما

تكنه الضمائر والغيوب يعرف ما اعتراني من مزيد الحسرات حريق الوجنة من حرارة العبرات وعزيز عليَّ أن أكاتبكم معزياً وأخاطبكم مسلياً، ولكن فلنعلم كلنا أننا سالكون هذه السبيل وإنما ثمة تأجيل وتأخير، ولئن كان الماضي الآن مفقوداً فالباقي إلى قليل غير موجود كما قال الرب لذكره السجود لأبينا آدم في جنة الخلود أرض أنت وإلى الأرض تعود.

ولكن إن كان شخص تادرس السعيد قد نأى غائباً فروحه حاضر معنا ولولا ذلك لاستعملت في عزاكم فنوناً كثيرة وأتيت بخطابات غير يسيرة، وإذا كان ذلك كذلك فأنا ألجم القول بالاقتصار من دون إسهاب وإكثار وأقول أن تادرس بالجسد مفقود وبالروح موجود وقد استحق الطوبى المقول في فاتحة الزبور إذ قال طوباوي هو الرجل الذي لم يسلك في مشورة المنافقين ولم يقف في طريق الخاطئين ولم يجلس في مجالس المستهزئين، بل مشيئته تكون في ناموس الرب ويتلو نهاراً وليلاً سنته يضاهي نصبة مغروسة على مجاري المياه تؤتي ثمرها في أوانه وورقها لا ينتثر من مكانه ويكون منجحاً في أعماله.

فأنا الان أغبطه عن علم وأطويه بقول مكين وأقول أنه تاجر وفاز وقطع بحر هذا العالم وجازه، وحصل في المينا إلا من الهادي

حيث ليست زوابع ولا خفق أمواج ولا اضطراب زوبعة ولا حس عجيج في العالم الذي لا هم فيه ولا يلابسه ألم ولا يدانيه، فيا ليت تؤول حال كل منا إلى هذا المآل الذي هو غاية السعادة والكمال، يا ليت كل من جرى وسعى إلى حيث ما صار في النعيم الدائم الذي لا يدانيه غبار، يا ليت كل فلاح وملاح وصل إلى هذا النجاح والفلاح وحصل في المحال العلوية ممجداً مع القوى العقلية ومترنماً مع داود ألفاظاً شجية أن مساكنك يارب القوات لشهية ونفسي إلى ديارك لمرتجية، طوبى لمن يسكن في بيتك وإلى الأبد يسبحك، لأن يوماً واحداً في ديارك أفضل من آلاف السنين في مساكن الخطاة.

فإذاً يا إخوتي المحبوبين مني حباً زائداً، لا تبكوا على تادرس وتندبوه وتعددوا عليه وتتشاجوه لأنه ما مات بل رقد رقوداً إلى الحياة الدهرية والسعادة الكلية التي لا تنتهي ولا تنقضي، حيث يفر هارباً كل وجع وكل ألم وكل حزن وندم.

فكونوا معافين نفساً وجسماً وأذكرونا في صلواتكم كما إنا نحن ذاكروكم ولكافة بني المعمودية المتمسكين بالأمانة الأرثوذكسية.

والسلامة تشمل جماعتكم آمين.

ولما وقف الأب أورسيوس وجماعة الإخوة علـــى كتـــاب الباباس، استحسنوا نظامه ونسق كلامه ولطيف معانيه وحـــسن مبانيه وتعزوا به تعزية جسيمة وصار لهم به سلوة عظيمة.

أما الأب أورسيوس الفاخر فإنه تولى أمر الإخوة والـــديارة وساسهم أحسن سياسة.

هذا ما انكشف لنا من أخبار الأب باخوميوس ولي الله وخادمه، وأخبار بعض تلاميذه ورهبانه الأفاضل بعد حرص كثير وذلك فنذر يسير من جم غفير، وكيف كانت تظهر لنا جهادات هؤلاء القديسين وفضائلهم وما أحكموه من مناسكهم. والإله يأمر قائلاً لا تعلم شمالك بما تعمله يمينك.

وإنما شرحنا من أخبار الكبير باخوميوس ما شاهدناه وعايناه، فأما مناسكه الخفية وجهاداته السرية واستعلاناته الروحانية وصلواته الليلية والنهارية فمن يعلم ذلك ويعرفه إلا الله وحده الذي إياه جل اسمه نسأل ولديه نتضرع ونتوسل بشفاعة هؤلاء الآباء الأخيار القديسين الأبرار الكواكب الزاهرة والأنجم الباهرة: الأب بلامون، الأب باخوميوس، الأب بطرونيوس، الأب أورسيوس، العجيب تادرس، الأب باكيسوس، الأب قرنيليوس، الأب يونا الجنَّان، الطوباوي أبيتوصورة، وجماعة القديسين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم أن يوقظ عقولنا إلى مرضاته ويلهمنا أن نعمل مشيئاته ويتجاوز عن سيئاتنا ويغفر لنا خطايانا ويصفع عن عثراتنا ولا يؤاخذنا بآثامنا وهفواتنا.

بشفاعة البتول والدة الإله وجماعة الشهداء والمكللين القديسين العابدين آمين ...

الفهرس

الموضوع	صفحة
تقديم لنيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس	٧
الفصل الأول: سيرة القديس باخوميوس	٩
راهب مغرور	٢١
دعوة القديسن باخوميوس لعمل الكنونيون	٢٥
نياحة القديس بلامون معلم باخوميوس	٢٦
حضور يوحنا أخ باخوميوس إلى طبانسين	٢٨
حياة التقشف والنسك التي كانوا يعيشونها	٢٨
جهاد القديس باخوميوس	٣٣
قبوله الإخوة القادمين للرهبنة ووصيته لهم	٣٦
عدم دخول الكهنوت في الرهبنة	٣٩
توزيع الخدمة بالدير	٤٢
اتساع الدير وإنشاء أديرة أخرى وعمل الرهبان	٤٦
حضور أخت القديس باخوميوس وإنشاء دير للراهبات	٤٩
الفصل الثاني: سيرة القديس تادرس	٥٣
التدابير الرهبانية للأنبا باخوميوس	٧٥
إرشادات روحية وتعاليم لتادرس	٨٢

الموضـوع	صفحة
الأنبا باخوميوس يعمل على خلاص أنفس الجميع	٨٤
سيرته مع البابا أثناسيوس الرسولي	٨٥
حال الرهبنة الباخومية ورؤيا للقديس باخوميوس	٨٧
دروس في طول الروح والصبر على التجارب	١٠١
ضرورة الوعظ والتعليم للإخوة	١١١
آخرون فضلاء من أولاد القديس باخوميوس	١١٧
تدبير الأنبا باخوميوس	١٢١
عظة من أجل حراسة النفس	١٣٧
سبب حضور الأب إلى طبانسين	١٣٩
غارات البربر	١٤٠
اتضاع الأب والمناظر الإلهية والاستعلانات الروحية	١٤٢
حادث تقمقم الخبازين	١٤٦
القدوة الحسنة للرئيس	١٤٧
الإفراز والنسك	١٥٠
تعاليم للقديس باخوميوس	١٥٢
في تدابير القديس باخوميوس	١٦٨
الأخ سلوانس	١٧٣

صفحة	الموضوع
١٨٣	التعليم عن طريق الموت
١٨٨	حروب الشياطين
١٨٩	عن النسك الاختياري
١٩٢	عدم طلب شيء في غير أوانه
٢٠٤	رؤيا أخرى
٢٠٦	موقفه من المبتدعين والهراطقة
٢١٠	يونان الطوباوي البستاني
٢١٢	خبر عن القديس أبيتوصورة
٢١٥	الجِهاد ضد شيطان الزنا
٢١٧	تحذير من الأب باخوميوس
٢٢١	بعض تدبيرات الأنبا باخوميوس
٢٣٣	البعد عن ملذات الحياة في الرهبنة
٢٣٧	بطرونيوس المدقق
٢٥٣	بعض صفات باخوميوس الجميلة
٢٥٦	زيارة القديس مقاريوس للقديس باخوميوس
٢٥٧	تجربة لتادرس تلميذ باخوميوس
٢٦٥	نياحة القديس باخوميوس

الموضوع	صفحة
تكريس بطرونيوس رئيساً للباخوميين	٢٧٢
تكريس أورسيوس رئيساً للباخوميين	٢٧٢
بدء انحلال الرهبنة الباخومية	٢٨٨
اختيار تادرس مساعداً لأورسيوس	٢٨٩
تادرس طبيب روحي وجسدي	٢٩٦
خبر تادرس عند البابا أثناسيوس	٣٠١
أسئلة وأجوبة مع الأب تادرس	٣٠٥
زيارة البابا أثناسيوس لدير بافو ومقابلة تادرس له	٣١٦
عودة الأب أورسيوس إلى الرئاسة	٣٢٠
خبر نياحة القديس أنبا تادرس تلميذ باخوميوس	٣٢٢
الفهرس	٣٣٢